كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ
[٣٨ / ص / ٢٩]

تفسير القاسمي

المسمّى

محاسن التأويل

تأليف علامة الشام

محمد جمال الدين القاسمي

١٢٨٣ — ١٣٣٢ هـ
١٨٦٦ — ١٩١٤ م

الجزء السابع

وفيه تفسير سورة : الأعراف

وقف على طبعه وتصحيحه ، ورقّمه وخرّج آياته وأحاديثه ، وعلّق عليه
(خادم الكتاب والسنة)

محمد فؤاد عبد الباقي

دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

obeikandl.com

obeikandl.com

كلمة

كاتب الشرق الأكبر، عطوفة أمير البيان

الأمير شكيب أرسلان

فى مقدمته لكتاب « قواعد التحديث »

للمؤلف، رضى الله عنه

« وإنى لأوصى جميع الناشئة الإسلامية، التى تريد أن تفهم الشرع فهماً ترتاح إليه ضمائرها، وتنعقد عليه خناصرها، ألّا تقدّم شيئاً على قراءة تصانيف المرحوم الشيخ جمال القاسمىّ »

جنيف . رجب الفرد ١٣٥٣

كلمة

مصلح العصر الإمام

السيد محمد رشيد رضا

فى مجلد المنار السابع عشر، صفحة ٥٥٨

« هو علّامة الشام، ونادرة الأيّام، والمجدّد لعلوم الإسلام، محيي السنّة بالعلم والعمل والتعليم، والتهذيب والتأليف، وأحد حلقات الاتصال بين هَدْى السلف، والارتقاء المدنىّ الذى يقتضيه الزمن »

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

٧ – سورة الأعراف

أخرج أبو الشيخ ابن حبان عن قتادة ، قال : الأعراف مكية ، إلا آية (وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ) وقال : من هنا إلى (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ) مدنى .

وآياتها مائتان وست آيات .

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١] (الٓمٓصٓ)

تقدّم الكلام فى أول سورة البقرة ، على حروف فواتح السور ، والمذاهب فيها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢] (كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ)

« كِتَٰبٌ » أى : هذا كتاب « أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ » أى : لايكن فيك ضيق صدر من تبليغه ، مخافة أن يكذبوك ، أو أن تقصر فى القيام بحقه . فإنه ﷺ كان يخاف قومه ، وتكذيبهم له ، وإعراضهم عنه ، وأذاهم . فكان يضيق صدره من الأداء ، ولا ينبسط له ، فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم .

قال الناصر : ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى (فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ...) الآية[١]

« لِتُنذِرَ بِهِۦ » أى : بالكتاب المنزل ، المشركين ليؤمنوا « وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ » أى : عظة لهم . وتخصيص الذكرى بالمؤمنين للإيذان باختصاص الإنذار بالمشركين . وتقديم الإنذار لأنه أهم بحسب المقام .

---

(١) [١١ / هود / ١٢] ... إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ، وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣] (ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ، قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ)

وقوله تعالى : « ٱتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ » خطاب منه تعالى لكافة المكلفين بالأمر باتباع ما أنزل ، وهو القرآن ، والمراد بـ (مَا أُنزِلَ) : القرآن والسنة . وقوفاً مع عمومه ، لقوله سبحانه (وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ)(١) .

تنبيه :

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل به بعضهم على أن المباح مأمور به ، لأنه من جملة ما أنزل الله ، وقد أمرنا باتباعه ـ انتهى ـ .

وأقول : هذا غلوّ فى الاستنباط ، وتعمق بارد . ويرحم الله القائل : إذا اشتد البياض صار برصاً .

« وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ » أى لا تتبعوا أولياء غيره تعالى، من الجن والإنس. فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع « قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ » أى ما تتعظون إلا قليلا ، حيث لا تتأثرون ولا تعملون بموجبه ، وتتركون دينه تعالى ، وتتبعون غيره . ثم حذرهم تعالى بأسه ، إن لم يتبعوا المنزل إليهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤] (وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ)

[٥] (فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ)

« وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا » أى أردنا إهلاكها بسبب مخالفة المنزل إليهم « فَجَآءَهَا

(١) [٥٣ / النجم / ٣و٤] .

بَأْسُنَا » أي : فجاء أهلها عذابنا « بَيَـٰتًا » أي : بائتين ، كقوم لوط . والبيتوتة : الدخول في الليل ، أي ليلًا قبل أن يصبحوا « أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ » أي قائلين نصف النهار، كقوم شعيب . والمعنى: فجاءها بأسنا غفلة، وهم غير متوقعين له . ليلا وهم نائمون، أو نهارا وهم قائلون وقت الظهيرة. وكل ذلك وقت الغفلة . والمقصود أنه جاءهم العذاب على حين غفلة منهم، من غير تقدم أمارة تدلهم على وقت نزول العذاب ؛ وفيه وعيد وتخويف للكفار . كأنه قيل لهم : لا تغتروا بأسباب الأمن والراحة ، فإن عذاب الله إذا نزل ، نزل دفعة واحدة . ونظير هذه الآية قوله تعالى(١) : (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ * أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ) ؟ ثم تأثر تعالى عذابهم الدنيوىّ ببيان عذابهم الأخروىّ، بقوله سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٦] (فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ)

« فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ » أي : المرسل إليهم وهم الأمم ، يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم كما قال : وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ(٢) « وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ » أي : عما أجيبوا به ، كما قال سبحانه : يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ(٣) . والمراد بالسؤال توبيخ الكفرة وتقريعهم .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧] (فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ)

« فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم » أي : على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم « بِعِلْمٍ » أي : عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة « وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ » أي : عنهم وعما وجد منهم .

---

(١) [٧ / الأعراف / ٩٧ و٩٨] .
(٢) [٢٨ / القصص / ٦٥] .
(٣) [٥ / المائدة / ١٠٩] . . . قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨] (وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)

« وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ » أى : وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيفها ، يوم يسأل الله الأمم ورسلهم ، العدل . « فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ » أى : حسناته فى الميزان « فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ » أى : الناجون من السخط والعذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩] (وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ)

« وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ » أى : حسناته فى الميزان « فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُم » بالعقوبة « بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ » أى : يكفرون .

تنبيهات

الأول: قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى هذه الآية ذكر الميزان، ويجب الإيمان به . انتهى.

وقال الإمام الغزالىّ فى (المضنون) : تعلّق النفس بالبدن كالحجاب لها عن حقائق الأمور. وبالموت ينكشف الغطاء ، كما قال تعالى(١) : فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ ، ومما يكشف له تأثير أعماله مما يقربه إلى الله تعالى ويبعده ، وهى مقادير تلك الآثار ، وإن بعضها أشد تأثيراً من البعض ، ولا يمتنع فى قدرة الله تعالى أن يجرى سبباً يعرف الخلق فى لحظة واحدة مقادير الأعمال ، بالإضافة إلى تأثيراتها فى التقريب والإبعاد . فحدّ الميزان ما يتميز به الزيادة من النقصان ، ومثاله فى العالم المحسوس مختلف ، فمنه الميزان المعروف ، ومنه القبان للأثقال ، والاصطرلاب لحركات الفلك والأوقات ، والمسطرة للمقادير والخطوط ، والعروض لمقادير

(١) [٥٠ / ق / ٢٢] ونصها : لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ .

حركات الأصوات . فالميزان الحقيقيّ ، إذا مثله الله عز وجل للحواس ، مثله بما شاء من هذه الأمثلة أو غيرها . فحقيقة الميزان وحـده موجود فى جميع ذلك ، وهو ما يعرف به الزيادة من النقصان . وصورته تـكون مقدرة للحس عند التشكيل ، وللخيال عند التمثيل ، والله تعالى أعلم بما يقدره من صنوف التشكيلات . والتصديقُ بجميع ذلك واجب . انتهى .

الثانى : الذى يوضع فى الميزان يوم القيامة . قيل : الأعمال وإن كانت أعراضاً إلا أن الله تعالى يقلبها يوم القيامة أجساماً .

قال البغويّ : يروى هذا عن ابن عباس ، كما جاء فى (الصحيح)[1] أَنَّ الْبَقَرَةَ وَءَالَ عِمْرَانَ يَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ أَوْ غَيَايَتَانِ ، أَوْ فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ . ومن ذلك فى (الصحيح)[2] قصة القرآن ، وأنه يأتى صاحبه فى صورة شاب شاحب اللون ، فيقول: من أنت؟ فيقول: أنا القرآن الذى أسهرتُ ليلك، وأظمأتُ نهارك . وفى حديث البراء[3]

---

(١) الحديث رواه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث رقم ٢٥٢ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى أمامة الباهليّ قال : سمعت رسـول الله ﷺ يقول « اقرءوا القرآن ، فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه . اقرءوا الزهراوين : البقرة وسورة آل عمران ؛ فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان. أو كأنهما فِرْقان من طير صوافّ. تحاجّان عن أصحابهما . اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة. ولا يستطيعها البَطَلَة ».

(٢) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٣ ـ كتاب الأدب ، ٥٢ ـ باب ثواب القرآن ، حديث ٣٧٨١ (طبعتنا) ونصه : عن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ « يجىء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب ، فيقول : أنا الذى أسهرتُ ليلك وأظمأت نهارك » .

(٣) هو حديث طويل أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٨٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبى) .

فى قصة سؤال القبر : فيأتى المؤمنَ شابٌّ حسن اللون ، طيّب الريح ، فيقول : من أنت ؟ فيقول : أنا عملك الصالح . وذكر عكسه فى شأن الكافر والمنافق .

فالأعمال الظاهرة فى هذه النشأة بصور عرضية ، تبرز على هذا القول فى النشأة الآخرة بصور جوهرية ، مناسبة لها فى الحسن والقبح . فالذنوب والمعاصى تتجسم هناك ، وتتصور بصورة النار ، وعلى ذلك حمل قوله تعالى : وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ[1] ، وقوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا[2] . الآية ـ وكذا قوله ﷺ[3] فى حق من يشرب من إناء الذهب والفضة: إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم. ولا بعد فى ذلك . ألا يرى أن العِلْمَ يظهر فى عالم المثال على صورة اللبن .

وقيل : صحائف الأعمال هى التى توزن ، ويؤيده حديث البطاقة . فقد أخرج أحمد[4]

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٥٤] يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ . . .

(٢) [٤ / النساء / ١٠] . . . وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٤ ـ كتاب الأشربة ، ٢٨ ـ باب آنية الفضة ، حديث ٢٢٣٣ ونصه :

عن أم سلمة ، زوج النبىّ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال « الذى يشرب فى إناء الفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم » .

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢١٣ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٦٩٤ (طبعة المعارف) ونصه :

قال رسول الله ﷺ « إن الله عز وجل يستخلص رجلا من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة ، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلًّا . كل سجلّ مدّ البصر . ثم يقول له : أتنكر من هذا شيئًا ؟ أظلمتك كتبتى الحافظون ؟ قال: لا ، يارب . فيقول: ألك عذر أو حسنة ؟ فيُبْهت الرجل . فيقول : لا ، يا رب . فيقول : بلى ، إن لك عندنا حسنة واحدة . =

والترمذيّ وصححه ، وابن ماجة والحاكم والبيهقيّ وابن مردويه عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ﷺ : يصاح برجل من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة . فينشر له تسعة وتسعون سجلًّا ، كل سجلّ منها مدّ البصر ، فيقول : أتنكر من هذا شيئاً ؟ أظلمك كتبتى الحافظون؟ فيقول:لا، يارب ! فيقول: أفلك عذر أو حسنة ؟ فيهاب الرجل، فيقول: لا. يارب فيقول : بلى . إن لك عندنا حسنة ، فإنه لا ظلم عليك اليوم . فيُخرَج له بطاقة فيها (أشهدأن لاإله إلاالله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله) فيقول: يارب ! ماهذه البطاقة مع هذه السجلّات؟ فيقال : إنك لاتظلم . فتوضع السجلات فى كِفة ، والبطاقة فى كِفة ، فطاشت السجلات ، وثقلت البطاقة .

وقيل : يوزن صاحب العمل ، كما فى الحديث(١) : يؤتى يوم القيامة بالرجل السمين ،

= لاظلم اليوم عليك .

فتُخرج له بطاقة فيها (أشهد أن لاإله إلا الله، وأن محمداً رسول الله) فيقول : أحضروه فيقول : يارب ! ماهذه البطاقة مع هـذه السجلّات ؟ فيقال : إنك لا تُظْلَم . قال فتوضع السجلات فى كِفّة . قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة ، ولا يثقُلُ شىء باسم الله الرحمن الرحيم .

وأخرجه الترمذيّ فى : ٣٨ ـ كتاب الإيمان ، ١٧ ـ باب ماجاء فيمن يموت وهو يشهد أن لاإله إلا الله ، حدثنا سويد بن نصر .

وأخرجه ابن ماجة فى : ٣٧ ـ كتاب الزهد ، ٣٥ ـ باب ما يرجى من رحمة الله يوم القيامة ، حديث ٤٣٠٠ (طبعتنا) .

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ـ ١٨ سورة الكهف ، ٧ ـ باب أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ ، حديث رقم ٢٠٢٣ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال « إنه ليأتى الرجل العظيم =

فلا يزن عند الله جناح بعوضة . ثم قرأ (فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا)[1] .

وفى مناقب عبد الله[2] بن مسعود ؛ أن النبيّ ﷺ قال : أتعجبون من دقة ساقيه ؟ والذى نفسى بيده ! لهما فى الميزان أثقل من أُحُدٍ .

قال الحافظ ابن كثير : وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار ، بأن يكون ذلك كله صحيحاً . فتارة توزن الأعمال ، وتارة يوزن محلها ، وتارة يوزن فاعلها . والله أعلم ـ انتهى ـ .

قال أبو السعود : وقيل : الوزن عبارة عن القضاء السوىّ ، والحكم العادل . وبه قال مجاهد والأعمش والضحاك ، واختاره كثير من المتأخرين ، بناء على أن استعمال لفظ الوزن فى هذا المعنى شائع فى اللغة والعرف بطريق الكناية . قالوا : إن الميزان إنما يراد به التوصل إلى معرفة مقادير الشيء . ومقادير أعمال العباد لا يمكن إظهارها بذلك ، لأنها أعراض قد فنيت . وعلى تقدير بقائها ، لا تقبل الوزن ـ انتهى ـ وأصله للرازىّ .

قال فى (العناية): فمنهم مَن أوّل الوزن بأنه بمعنى القضاء والحكم العدل، أومقابلتها بجزائها.

= السمين يوم القيامة ، لا يزن عند الله جناح بعوضة » .

وقال : اقرءوا : فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ١٨ (طبعتنا) .

(١) [١٨ / الكهف / ١٠٥] أُوْلَـٰٓئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ . . .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٢٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٩٩١ (طبعة المعارف) ونصه :

عن زرّ بن حبيش عن ابن مسعود أنه كان يجتنى سواكاً من الأراك . وكان دقيق الساقين. فجعلت الريح تكفؤه ، فضحك القوم منه . فقال رسول الله ﷺ «مم تضحكون» ؟ قالوا : يانبىّ الله ، من دقة ساقيه . فقال «والذى نفسى بيده ! لهما أثقل فى الميزان من أُحُد » .

من قولهم: وازنه ، إذا عادله . وهو إما كناية أو استعارة . بتشبيه ذلك بالوزن المتصف بالخفة والثقل ، بمعنى الكثرة والقلة . والمشهور من مذهب أهل السنة أنه حقيقة بمعناه المعروف . انتهى .

فإن جمهور الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل .

قال فى (فتح البيان) :وأما المستبعدون لحمل هذه الظواهر على حقائقها فلم يأتوا فى استبعادهم بشيء من الشرع يرجع إليه . بل غاية ما تشبثوا به مجرد الاستبعادات العقلية ، وليس فى ذلك حجة لأحد . فهذا إذا لم تقبله عقولهم ، فقد قبلته عقول قوم هى أقوى من عقولهم : من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، حتى جاءت البدع كالليل المظلم ، وقال كلٌّ ما شاء ، وتركوا الشرع خلف ظهورهم . وليتهم جاءوا بأحكام عقلية يتفق العقلاء عليها ، ويتحد قبولهم لها . بل كل فريق يدعى على العقل ما يطابق هواه ، ويوافق ما يذهب إليه هو ومن تابعه ، فتتناقض عقولهم على حسب ما تناقضت مذاهبهم . يعرف هذا كل منصف . ومن أنكره فليصفّ فهمه وعقله عن شوائب التعصب والتمذهب ، فإنه إن فعل ذلك أسفر الصبح لعينيه .
وقد ورد ذكر الوزن والميزان فى مواضع من القرآن كقوله : وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا (١) . وقوله : فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ (٢) . وقوله : إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ (٣) وقوله : وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ * فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ (٤) .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٤٧] . . . وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ، وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ .
(٢) [٢٣ / المؤمنون / ١٠٢ و ١٠٣] .
(٣) [٤ النساء/ ٤٠] . . . وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا .
(٤) [١٠١ / القارعة / ٨ و ٩] .

obeikandi.com

والأحاديث فى هذا الباب كثيرة جداً مذكورة فى كتب السنة المطهرة . وما فى الكتاب والسنة يغنى عن غيرهما . فلا يلتفت إلى تأويل أحد أو تحريفه ، مع قوله تعالى وقول رسوله الصادق المصدوق ، والصباح يغنى عن المصباح ـ انتهى ـ .

وخلاصته ؛ أن الأصل فى الإطلاق الحقيقة ، ولا يعدل عنها إلى المجاز إلا إذا تعذرت ، ولا تعذر ههنا .

الثالث : إن قلت : أليس الله عز وجل يعلم مقادير أعمال العباد ؟ فما الحكمة فى وزنها ؟ قلت : فيه حكم :

منها ـ إظهار العدل ، وإن الله عز وجل لا يظلم عباده .

ومنها ـ امتحان الخلق بالإيمان بذلك فى الدنيا وإقامة الحجة عليهم فى العقبى .

ومنها ـ تعريف العباد مالهم من خير وشر وحسنة وسيئة .

ومنها ـ إظهار علامة السعادة والشقاوة .

ونظيره ؛ أنه تعالى أثبت أعمال العباد فى اللوح المحفوظ ثم فى صحائف الحفظة الموكلين ببنى آدم ، من غير جواز النسيان عليه سبحانه وتعالى . كذا فى (اللباب) .

وقال أبو السعود : إن قيل : إن المكلف يوم القيامة إما مؤمن بأنه تعالى حكيم منزه عن الجور ، فيكفيه حكمه تعالى بكيفيات الأعمال وكمياتها . وإما منكر له فلا يسلم حينئذ أن رجحان بعض الأعمال على بعض لخصوصيات راجعة إلى ذوات تلك الأعمال ، بل يسنده إلى إظهار الله تعالى إياه على ذلك الوجه ، فما الفائدة فى الوزن ؟

أجيب بأنه ينكشف الحال يومئذ ، وتظهر جميع الأشياء بحقائقها على ما هى عليه ، وبأوصافها وأحوالها فى أنفسها من الحسن والقبح ، وغير ذلك . وتنخلع عن الصور المستعارة التى بها ظهرت فى الدنيا ، فلا يبقى لأحد ممن يشاهدها شبهة فى أنها هى التى كانت فى الدنيا بعينها ، وأن كل واحد منها قد ظهر فى هذه النشأة بصورته الحقيقية المستتبعة لصفاته ، ولا يخطر بباله خلاف ذلك ـ انتهى ـ .

وقد سبقه إلى نحوه الرازىّ .

ولما أمر تعالى أهل مكة باتباع ما أنزل إليهم ، ونهاهم عن اتباع غيره ، وبيّن لهم وخامة عاقبته بالإهلاك فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرة ـ ذكرهم فنون نعمه ترغيباً فى اتباع أمره ونهيه ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠] (وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ ، قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ)

« وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ » أى جعلنا لكم فيها مكاناً وقرارا . أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها « وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ » جمع معيشة ، وهى ما يعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها . أو ما يتوصل به إلى ذلك من المتاجر والمزارع والصنائع « قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ » الكلام فيه كالذى فى قوله (قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ) وقد مرّ قريباً . والتذييل مسوق لبيان سوء حال المخاطبين وتحذيرهم ، أى ما مننا عليكم بذلك إلا لتشكروا بمتابعة ما أنزلنا إليكم ، وترك متابعة من دوننا ، فتحصلوا معايش السعادات الأبدية . ثم بيّن تعالى نعمته على آدم التى سرت إلى بنيه ، وبيّن لهم عدواة إبليس وما انطوى عليه من الحسد لأبيهم ، ليحذروه ولا يتبعوا طرائقه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١] (وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّاجِدِينَ)

« وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّاجِدِينَ » هذا كقوله تعالى : (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ

إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ)[١] وفى تصدير هذه الآية بالقسم وحرف التحقيق ، كالتى قبلها ، إعلام بكمال العناية بمضمونهما .

قال أبو السعود : وإنما نسب الخلق والتصوير إلى المخاطبين ، مع أن المراد بهما خلق آدم عليه السلام وتصويره حتما ، توفية لمقام الامتنان حقه ، وتأكيدا لوجوب الشكر عليهم ، بالرمز إلى أن لهم حظًّا من خلقه عليه السلام وتصويره ، لما أنهما ليسا من الخصائص المقصورة عليه ، بل من الأمور السارية إلى ذريته جميعاً ، إذ الكل مخلوق فى ضمن خلقه على نمطه ، ومصنوع على شاكلته ، فكأنهم الذى تعلق به خلقه وتصويره . أى : خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور ، ثم صورناه أبدع تصوير ، وأحسن تقويم ، سار إليكم جميعاً ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢] (قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ)

« قَالَ » سبحانه وتعالى « مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ » أى أن تسجد كما وقع فى سورة (ص) . و (لا) مزيدة للتنبيه على أن الموبّخ عليه ترك السجود . ولتوكيدٍ لمعنى الفعل الذى دخلت عليه وتحقيقه ، كما فى قوله تعالى[٢] : (لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ) كأنه قيل : ليتحقق علم أهل الكتاب ، وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك . وتوقف بعض المحققين فى وجه إفادة (لا) النافية تأكيدَ ثبوت الفعل مع إيهام نفيه ، واستظهر الشهاب أنها لا تؤكده مطلقاً ، بل إذا صحبت نفياً مقدماً أو مؤخراً صريحاً أو غير صريح ،

---

(١) [١٥ / الحجر / ٢٨و٢٩] .

(٢) [٥٧ / الحديد / ٢٩] ... أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ .

كما فى (غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) وكما هنا ، فإنها تؤكد تعلق المنع به ـ انتهى ـ .

وقيل : (مامنعك) محمول على (ماحملك ومادعاك) مجازا أو تضميناً. وقال الراغب: المنع ضد العطية ، وقد يقال فى الحماية . والمعنى ماحماك عن عدم السجود . ولا يخفى أن السؤال عن المانع من السجود ، مع علمه به، للتوبيخ ولإظهار معاندته و كفره و كبره وافتخاره بأصله وتحقيره أصلَ آدم عليه السلام. كما أوضحه قوله تعالى: « قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ » قال ابن كثير . هذا من العذر الذى هو أكبر من الذنب ـ انتهى ـ .

وإنما قال هـذا ، ولم يقل (منعنى كذا) مطابقة للسؤال . لأن فى هـذه الجملة التى جاء بها مستأنفة ، ما يدل على المانع ، وهو اعتقاده أنه أفضل منـه ، والفاضل لايفعل مثل ذلك للمفضول ، مع مافى طيّها من إنـكار أن يؤمر مثله بالسجود لمثله . فالجملة متضمنة للجواب بقياس استدلالىّ ، وهى من الأسلوب الأحمق كما فى قصـة نمروذ . وقد علل مادعاه من الخيرية والفضل بزعمه أن عنصر النار أفضل من عنصر الطين ، لأنها جوهر نورانىّ ، وهو ظلمانىّ . ولقد أخطأ اللعين حيث خص الفضل بما من جهة المادة والعنصر ، وغفل عما يكون باعتبار الفاعل، كما أنبأ عنه قوله تعالى (مَامَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ)[1] أى: بغير واسطة، وباعتبار الصورة . كما نبه عليه بقوله (وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى)[2] وباعتبار الغاية وهو ملاك الأمر ، ولذلك أمر الملائـكة بالسجود له لما بين لهم أنه أعلم منهم بما يدور عليـه

(١) [٣٨ / صٓ / ٧٥] ونصها : قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ، أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ .

(٢) [١٥ / الحجر / ٢٩] ونصها : فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَـٰجِدِينَ .

و [٣٨ / صٓ / ٧٢] .

أمر الخلافة فى الأرض ، وأن له خواصّ ليست لغيره . وبالجملة فالشيء كما يشرف بمادته ، يشرف بفاعله وغايته وصورته ، والثلاثة فى آدم عليه السلام دونه ، فاستبان غلطه .

وفى (اللباب) أن عدو الله إبليس جهل وجه الحق ، وأخطأ طريق الصواب ، لأن من المعلوم أن من جوهر النار الخفة والطيش والارتفاع والاضطراب ، وهـذا الذى حمله ، مع سابقة شقائه ، على الاستكبار عن السجود لآدم عليه السلام ، والاستخفاف بأمر ربه ، فأورده ذلك العطب والهلاك . ومن جوهر الطين الرزانة والأناة والصبر والحلم والحياء والتثبت ، وهذا كان الداعى لآدم عليه السلام ، مع سابقة سعادته ، إلى التوبة من خطيئته ، ومسألته ربه العفو عنه والمغفرة .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت[١] : قال رسول الله ﷺ : خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجانّ من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم . رواه مسلم .

تنبيه :

روى ابن جرير[٢] بإسناد صحيح عن الحسن فى قوله تعالى (خَلَقْتَنِى من نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ) قال : قاس إبليس وهو أول من قاس . وأخرج[٣] أيضا بإسناد صحيح عن ابن سيرين قال : أول من قاس إبليس ، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس . ولذا احتج بهذه الآية من ذهب إلى عدم جواز تخصيص النص بالقياس ، وإلا لما استوجب إبليس هذا الذم الشديد .

قال الرازىّ : بيان الملازمة أن قوله تعالى للملائكة (اُسْجُدُوا لِآدَمَ) خطاب عامّ يتناول جميع الملائكة ، ثم إن إبليس أخرج نفسه من هـذا العموم بالقياس ، وهو أنه مخلوق

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٠ (طبعتنا) .

(٢) الأثر رقم ١٤٣٥٦ من التفسير .

(٣) الأثر رقم ١٤٣٥٥ من التفسير .

obeikandi.com

من النار ، والنار أشرف من الطين ، ومن كان أصله أشرف فهو أشرف ، والأشرف لا يجوز أن يؤمر بخدمة الأدنى، والدليل عليه أن هذا الحكم ثابت فى جميع النظائر، ولا معنى للقياس إلا ذلك . وقد ثبت أن إبليس لما خصص العموم بهذا القياس استحق الذم ، وما ذاك إلا لعدم جوازه . وأيضاً فى الآية دلالة على ذلك من وجه آخر : وذلك لأن إبليس لما ذكر هذا القياس قال تعالى : (فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا) فوصفه تعالى بكونه متكبرا ، بعد أن حكى عنه ذلك القياس الذى يوجب تخصيص النص وهذا يقتضى أن من حاول تخصيص عموم النص بالقياس تكبّر على الله . ودلت هذه الآية على أن التكبر عليه تعالى يوجب العقاب الشديد، والإخراج من زمرة الأولياء . ثبت أن تخصيص النص بالقياس لا يجوز ، وهذا هو المراد مما نقله الواحدىّ فى (البسيط) عن ابن عباس أنه قال : كانت الطاعة أولى بإبليس من القياس ، فعصى ربه وقاس ، وأول من قاس إبليس فكفر بقياسه، فمن قاس الدين بشىء من رأيه ، قرنه الله مع إبليس ـ هذا ما نقله الواحدىّ فى (البسيط) عن ابن عباس ، وأفاده الرازىّ .

وقد روى عن السلف آثار كثيرة فى ذم القياس ، منها ما تقدم عن الحسن وابن سيرين وابن عباس . وعن مسروق قال : لا أقيس شيئاً بشىء ، فتزلّ قدمى بعد ثبوتها . وعن الشعبىّ : إياكم والقياس ، وإنكم إن أخذتم به أحللتم الحرام، وحرمتم الحلال ، وَلَأَنْ أتغنى غنية ، أحب إلىّ من أن أقول فى شىء برأيى . وقد ذكر الحافظ ابن عبد البرّ رحمه الله من هذا المعنى آثارًا وافرة فى (جامع بيان العلم وفضله) وقال : احتج من نفى القياس بهذه الآثار ومثلها . وقالوا فى حديث معاذ : إن معناه أن يجتهد رأيه على الكتاب والسنة . وتكلم داود فى إسناد حديث معاذ وردّه ودفعه من أجل أنه عن أصحاب معاذ، ولم يُسَمَّوْا . قال الحافظ ابن عبد البر : وحديث معاذ صحيح مشهور ، رواه الأئمة العدول ، وهو أصل فى الاجتهاد والقياس على الأصول . ثم قال : وسائر الفقهاء وقالوا فى هذه الآثار وما كان مثلها

فى ذم القياس : إنه القياس على غير أصل ، أو القياس الذى يردّ به أصل ، والقول فى دين الله بالظن . ألا ترى إلى قول من قال منهم : أول من قاس إبليس ؟ لأن إبليس ردّ أصل العلم بالرأى الفاسد ، والقياس لا يجوز عند أحد ممن قال به إلا فى رد الفروع إلى أصولها ، لا فى رد الأصول بالرأى والظن . وإذا صحّ النص من الكتاب والأثر ، بطل القياس (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ...) الآية[1] ـ وأىّ أصل أقوى من أمر الله تعالى لإبليس بالسجود ، وهو العالم بما خُلق منه آدم ، وما خُلق منه إبليس ، ثم أمره بالسجود له فأبى واستكبر لعلة ليست بمانعة من أن يأمره الله بما يشاء ، فهذا ومثله لا يحلّ ولا يجوز . وأما القياس على الأصول ، والحكم للشىء بحكم نظيره ، فهذا ما لا يختلف فيه أحد من السلف ، بل كل من رُوِى عنه ذم القياس قد وجد له القياس الصحيح منصوصاً . لا يدفع هذا إلا جاهل أو متجاهل ، مخالف للسلف فى الأحكام.

وقال مسروق الوراق :

كنَّا من الدين قبل اليوم فى سعةٍ ... حتى ابْتُلِينَا بأصحاب المقاييسِ
قاموا من السوق إذ قلَّت مكاسبهُم ... فاستعملوا الرأى عند الفقرِ والبُوسِ
أما العُرَيْب فقوم لا عطاءَ لهم ... وفى الموالى علاماتُ المفاليسِ

فلقيه أبو حنيفة فقال : هجوتنا . نحن نرضيك . فبعث إليه بدراهم فقال :

إذا ما أهلُ مصرٍ بَادَهُونَا ... بآبدةٍ من الفُتْيَا لطيفهْ
أتيناهم بمقياسٍ صحيحٍ ... صَلِيبٍ من طراز أبى حنيفهْ
إذا سَمِعَ الفقيهُ بِهِ وَعَاهُ ... وأثبته بِحِبْرٍ فى صحيفهْ

قال ابن عبد البر : اتصلت هذه الأبيات ببعض أهل الحديث والنظر من أهل ذلك

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٣٦] ... مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا .

الزمن ، فقال :

إذا ذُو الرأىِ خَاصَمَ عن قيـاسٍ   وجاء ببـدعة منـه سخيفهْ
أتينـاهم بقولِ الله فِيهـاَ   وآثارٍ مبرَّزة شريفهْ

هكذا حكاه ابن عبد البر فى (جامع فضل العلم) . وله فيه فى (باب ما جاء فى ذم القول فى دين الله بالرأى والقياس على غير أصل) مقالات سابغة جديرة بالمراجعة .

ومما ذكر فيه : أن أهل الحديث أفرطوا فى أبى حنيفة، وتجاوزوا الحدّ . قال : والسبب الموجب لذلك ، عندهم ، إدخاله الرأى والقياس على الآثار ، واعتبارها . وأكثرُ أهل العلم يقولون : إذا صح الأثر بطل النظر . وكان ردّه لما ردّ من أخبار الآحاد بتأويل محتمل ، وكثير منه قد تقدمه إليه غيره ، وتابعه عليه مثله ممن قال بالرأى : وجُلُّ ما يوجد له من ذلك ما كان منه اتباعاً لأهل بلده ، كإبراهيم النخَعىّ وأصحاب ابن مسعود . إلا أنه أغرق هو وأصحابه فى تنزيل النوازل ، والجواب فيها برأيهم واستحسانهم . فأتى منهم فى ذلك خلافٌ كبير للسلف . ثم قال: وما أعلم أحداً من أهل العلم إلا وله تأويل فى آية ، أو مذهب فى سنة، ردّ من أجل ذلك المذهب سنةً أخرى بتأويل سائغ ، أو ادعاء نسخ . إلا أن لأبى حنيفة من ذلك كثيرا ، وهو يوجد لغيره قليل . وعن الليث بن سعد أنه قال : أحصيت على مالك ابن أنس سبعين مسألة كلها مخالفة لسنة النبىّ ﷺ ، مما قال مالك فيها برأيه . قال : ولقد كتبت إليه أعظه فى ذلك . هذا كلام ابن عبد البر ملخصاً .

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية فى بعض فتاويه : أنه روى عن علىّ وزيد أنهما احتجا بقياس، فمن ادعى إجماعهم ـ أى الصحابة ـ على ترك العمل بالرأى والقياس، مطلقا فقد غلط، ومن ادعى أن من المسائل ما لم يتكلم فيها أحد منهم إلا بالرأى والقياس ، فقد غلط ، بل كان كل منهم يتكلم بحسب ما عنده من العلم، فمن رأى دلالة الكتاب ذكرها، ومن رأى دلالة الميزان ذكرها ـ انتهى ـ .

وقال ابن تيمية رحمه الله فى فتوى أخرى : والصحابة كانوا يحتجون فى عامة مسائلهم بالنصوص كما هو مشهور عنهم، وكانوا يجتهدون رأيهم ويتكلمون بالرأى،ويحتجون بالقياس الصحيح أيضاً . والقياس الصحيح نوعان :

أحدهما : أن يعلم أنه لا فارق بين الفرع والأصل إلا فرقاً غير مؤثر فى الشرع ، كما ثبت عن النبىّ ﷺ فى الصحيح(١) أنه سئل عن فأرة وقعت فى سمن ، فقال : ألقوها وما حولها ، وكلوا سمنكم . وقد أجمع المسلمون على أن هذا الحكم ليس مختصاً بتلك الفأرة وذلك السمن، فلهذا قال جماهير العلماء : إنه أىّ نجاسة وقعت فى دهن من الأدهان كالفأرة التى تقع فى الزيت ، وكالهرّ الذى يقع فى السمن ، فحكمها حكم تلك الفأرة التى وقعت فى السمن . ومن قال من أهل الظاهر : إن هذا الحكم لا يكون إلا فى فأرة وقعت فى سمن ، فقد أخطأ ، فإن النبىّ ﷺ لم يخص الحكم بتلك الصورة ، لكن لما استفتى عنها أفتى فيها ، والاستفتاء إذا وقع عن قضية معينة أو عن نوع ، فأجاب المفتى عن ذلك ، خصه لكونه سئل عنه ، لا لاختصاصه بالحكم . ومثل هذا أنه سئل عن رجل(٢) أحرم بالعمرة وعليه جبة مضمَّخة

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٧٢ ـ كتاب الذبائح والصيد ، ٣٤ ـ باب إذا وقعت الفأرة فى السمن الجامد أو الذائب ، حديث ١٧٥ ونصه :

عن ابن عباس عن ميمونة رضى الله عنهم قالت : سئل رسول الله ﷺ عن فأرة سقطت فى سمن ؟ فقال « ألقوها وما حولها ، وكلوه » .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٦٦ ـ كتاب فضائل القرآن ، ٢ ـ باب نزل القرآن بلسان قريش والعرب ، حديث ٨١٥ ونصه :

عن صفوان بن يعلى بن أميّة ؛ أن يعلى كان يقول: ليتنى أرى رسول الله ﷺ حين ينزل عليه الوحى ! فلما كان النبىّ ﷺ بالجعرانة ، وعليه ثوب قد أظلّ عليه ، ومعه ناس من أصحابه ، إذ جاءه رجل متضمخ بطيب . فقال : يا رسول الله ، كيف ترى فى رجل أحرم =

بخلوق فقال: انزع عنك الجبة الخلوق، واصنع فى عمرتك ما كنت تصنع فى حجك. فأجابه عن الجبة ، ولو كان عليه قميص أو نحوه ، كان الحكم كذلك بالإجماع .

والنوع الثانى من القياس : أن ينص على حكم لمعنى من المعانى ، ويكون ذلك المعنى موجوداً فى غيره ، فإذا قام دليل من الأدلة على أن الحكم متعلق بالمعنى المشترك بين الأصل والفرع سوّى بينهما ، وكان هذا قياساً صحيحاً . فهذان النوعان كان الصحابة والتابعون لهم بإحسان، يستعملونهما، وهما من باب فهم مراد الشارع. فإن الاستدلال بكلام الشارع يتوقف على أن يعرف ثبوت اللفظ عنه ، وعلى أن يعرف مراده باللفظ . وإذا عرفنا مراده، فإن علمنا أنه حكم للمعنى المشترك ، لا لمعنى يخص الأصل ، أثبتنا الحكم حيث وجد المعنى المشترك . وإن علمنا أنه قصد تخصيص الحكم بمورد النص ، منعنا القياس . كما أنا علمنا أن الحج خص به الكعبة، وأن الصيام الفرض خص به شهر رمضان، وأن الاستقبال خص به جهة الكعبة، وأن المفروض من الصلوات خص به الخمس، ونحو ذلك، فإنه يمتنع هنا أن نقيس على المنصوص غيره. وإذا عين الشارع مكاناً أو زماناً للعبادة، كتعيين الكعبة وشهر رمضان، أو عين بعض الأقوال والأفعال ، كتعيين القراءة فى الصلاة ، والركوع والسجود ، بل وتعيين التكبير وأمّ القرآن ، فإلحاق غير المنصوص به يشبه حال أهل اليمن الذين أسقطوا تعيين الأشهر الحرم، وقالوا : المقصود أربعة أشهر من السنة ، فقال تعالى : إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ

ـــــــــــــــ

= فى جبة بعد ما تضمخ بطيب ؟ فنظر النبىّ ﷺ ساعة . فجاءه الوحى . فأشار عمر إلى يعلى أن : تعالَ . فجاء يعلى فأدخل رأسه فإذا هو محمرّ الوجه يغطّ كذلك ساعة . ثم سُرِّى عنه فقال « أين الذى يسألنى عن العمرة آنفا » ؟ فالتمس الرجل فجىء به إلى النبىّ ﷺ . فقال « أما الطيب الذى بك فاغسله ثلاث مرات . وأما الجبة فانزعها ، ثم اصنع فى عمرتك كما تصنع فى حجك » .

obeikandl.com

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ(١). وقياس الحلال بالنص على الحرام بالنص، من جنس قياس الذين قالوا: إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ(٢). وكذلك قياس(٣) المشركين الذين قاسوا الميتة بالمذكّى وقالوا أتأكلون ماقتلتم ولاتأكلون ماقتل الله؟ قال تعالى: وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ(٤). فهذه الأقيسة الفاسدة، وكل قياس دل النص على فساده فهو فاسد، وكل من ألحق منصوصاً بمنصوص يخالف حكمه، فقياسه فاسد. وكل من سوّى بين شيئين أو فرق بين شيئين بغير الأوصاف المعتبرة في حكم الله ورسوله فقياسه فاسد. لكن من القياس مايعلم صحته، ومنه مايعلم فساده، ومنه مالم يتبين أمره. فمن أبطل القياس مطلقاً فقوله باطل. ومن استدل بالقياس المخالف للشرع فقوله باطل.

---

(١) [٩/ التوبة/ ٣٧] ... زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَـٰلِهِمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ.

(٢) [٢ البقرة/ ٢٧٥] ونصها: ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ، وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ، فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ.

(٣) أخرجه النسائيّ في: ٤٣ ـ كتاب الضحايا، ٤٠ ـ باب تأويل قول الله عز وجل: وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ، ونصه:

عن ابن عباس في قوله عز وجل: وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ، قال: خاصمهم المشركون فقالوا: ماذبح الله فلا تأكلوه. وما ذبحتم أنتم أكلتموه.

(٤) [٦/ الأنعام/ ١٢١] ونصها: وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ...

ومن استدل بقياس لم يقم الدليل على صحته ، فقد استدل بما لا يعلم صحته ، بمنزلة من استدل برواية رجل مجهول لايعلم عدالته . فالحجج الأثرية والنظرية تنقسم إلى مايعلم صحته ، وإلى مايعلم فساده ، وإلى ماهو موقوف حتى يقوم الدليل على أحدها . ولفظ النص يراد به تارة ألفاظ الكتاب والسنة ، سواء كان اللفظ دلالته قطعية أو ظاهرة ، وهذا هو المراد من قول من قال : النصوص تتناول أفعال المكلفين. ويراد بالنص مادلالته قطعية لاتحتمل النقيض، كقوله: تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ[1]. وَ: ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ[2]، فالكتاب هو النص ، والميزان هو العدل ، والقياس الصحيح من باب العدل، فإنه تسوية بين المتماثلين ، وتفريق بين المختلفين . ودلالة القياس الصحيح توافق دلالة النص ، فكل قياس خالف دلالة النص فهوقياس فاسد. ولا يوجد نص يخالف قياساً صحيحاً ، كما لايوجد معقول صريح يخالف المنقول الصحيح، ومن كان متبحرا فى الأدلة الشرعية ، أمكنه أن يستدل على غالب الأحكام

---

(١) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ، فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ، فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

(٢) [٤٢/ الشورى/ ١٧] ونصها : ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ .

و [٥٧ / الحديد / ٢٥] ونصها : لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ .

بالنصوص وبالأقيسة، فثبت أن كل واحد من النص والقياس دل على هذا الحكم كما ذكرناه من الأمثلة ، فإن القياس يدل على تحريم كل مسكر ، كما يدل النص على ذلك ، فإن الله حرم الخمر لأنها توقع بيننا العداوة والبغضاء ، وتصدنا عن ذكر الله وعن الصلاة ، كما دل القرآن على هذا المعنى . وهذا المعنى موجود فى جميع الأشربة المسكرة ، لافرق فى ذلك بين شراب وشراب، فالفرق بين الأنواع المشتركة من هذا الجنس تفريق بين المتماثلين، وخروج عن موجب القياس الصحيح، كما هو خروج عن موجب النصوص. وهم معترفون بأن قولهم خلاف القياس، لكن يقولون : معنا آثار توافق ، اتبعناها ؛ ويقولون : إن اسم الخمر لم يتناول كل مسكر . وغلطوا فى فهم النص ، وإن كانوا مجتهدين مثابين على اجتهادهم . ومعرفة عموم الأسماء الموجودة فى النص وخصوصها ، من معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وقد قال تعالى(١) : ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ . والكلام فى ترجيح نفاة القياس ومثبتيه يطول استقصاؤه ولا يحتمل المقام بسطه أكثر من هذا ـ والله أعلم ـ انتهى كلامه رحمه الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣] (قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّـٰغِرِينَ)

« قَالَ » تعالى لإبليس « فَٱهْبِطْ مِنْهَا » أى : بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعتى . وأكثر المفسرين على أن الضمير عائد إلى الجنة، والإضمار قبل ذكرها لشهرة كونه من سكانها . قال ابن كثير : ويحتمل أن يكون عائدًا إلى المنزلة التى هو فيها من الملكوت الأعلى ـ انتهى ـ وعليه اقتصر المهايمىّ حيث قال : فاهبط منها أى : من رتبة الملكية إلى رتبة العناصر . « فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا » أى : فما يصح ولا يستقيم ، فإنها

---

(١) [٩ / التوبة / ٩٧] . . . وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ .

مكان المطيعين الخاشعين « فَاُخْرُجْ » تأكيد للأمر بالهبوط ، متفرّع على علته « إِنَّكَ مِنَ الصَّٰغِرِينَ » أى : من الأذلاء وأهل الهوان على الله تعالى وعلى أوليائه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤] (قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ)

« قَالَ أَنظِرْنِيٓ » أى : أمهلنى ولا تُمتنى « إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » أى : آدم وذريته من القبور .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥] (قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ)

« قَالَ » أى : الله له « إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ » أى من المؤجلين إلى نفخة الصور الثانية.

قال ابن كثير : أجابه تعالى إلى ما سأل ، لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لا تخالف ولا تمانع . ولا معقب لحكمه .

وقال الإمام أبو سعد المحسن بن كرامة الجشمىّ اليمانىّ فى تفسيره (التهذيب)[1] :

قال الأستاذ السيد ظافر القاسمىّ ، حفظه الله ، وَلَدُ المؤلف رضى الله عنه :

وجد على غلاف الجزء السابع من هذا الكتاب بخط المؤلف رحمه الله ما نصه :

وقفت على الجزء الرابع من تفسيرٍ اشتُرِىَ من اليمن ، يسمى «التهذيب» من الأعراف إلى براءة ، كتب عليه ما مثاله :

« تصنيف الشيخ الإمام أبى سعد المحسن بن كرامة الجشمىّ رحمة الله عليه »

وترتيبه ، بعد أن يسوق آية أو آيتين أو ثلاثاً ، أن يقول :

١ ـ القراءة ـ ثم يذكر وجوه القراءات .

٢ ـ اللغة ـ ثم يذكر مفردات الآية ومعانيها اللغوية واشتقاقها . =

ومتى قيل : ما وجه سؤاله مع أنه مطرود وملعون ؟ فجوابنا علمه بإحسانه تعالى إلى خلقه من أطاع ومن عصى ، فلم يمنعه من السؤال ما ارتكب من المعصية . ومتى قيل : هل خاطبه بهذا ؟ قلنا : يحتمل ذاك ، ويحتمل أنه أمر ملكاً نخاطبه به . ومتى قيل : هل يجوز إجابة دعاء الكافر ؟ قلنا : فيه خلاف .

الأول : قيل لا ، لأنه إكرام وتعظيم ـ عن أبى علىّ ـ ولذلك يقال : فلان مستجاب الدعوة ، وإنظاره لا على سبيل إجابة دعائه ، لأنه ملعون ولأنه لم يسأل على وجه الخضوع .

= ٣ ـ الإعراب .

٤ ـ النظم .

٥ ـ المعنى .

٦ ـ الأحكام ـ يذكر فيها دلالة الآى على كذا و كذا الخ .

٧ ـ القصة ـ إن كانت حوت ذلك .

وهو ترتيب جميل .

انتهى ما كتبه المؤلف رحمه الله .

وقد سألتُ الأستاذ الشيخ حامد التقىّ ، من علماء دمشق ، وقد سبق له أن لازم المؤلف رحمه الله قرابة عشرين عاماً ، عن الكتاب ومؤلفه الجشمىّ فأجابنى :

كان المرحوم غالب النائلىّ رفيقاً للإمام القاسمىّ فى طلب العلم ، وتجمعهما قرابة رحمية ، وقد كان موظفاً أيام الدولة العثمانية ، فنقل إلى اليمن ، وعاش فيها حول عشر سنوات ، عاد بعدها ، ومعه بعض الكتب المخطوطة ، وقد اطلع عليها المؤلف ، فوجد من بينها هذا الجزء من « التهذيب » وحده ، فاقتبس منه ما استحسن اقتباسه . وقد توفى المرحوم غالب النائلىّ عام ١٩٤٨ ، وبيعت مكتبته إلى أحد تجار الكتب ، ولم نعد نعرف شيئاً عن هذا الكتاب.

انتهى كلام الأستاذ التقىّ . =

الثانى : يجوز إجابة دعائه استصلاحاً له ، لأنه تفضّل ـ عن أبى بكر أحمد بن علىّ ـ وليس بالوجه . ومتى قيل : إذا أنظر هل يكون إغراء بالمعصية ؟ قلنا : لا ، لأنه لم يعلم ماالوقت

= ثم تجىء بعد هذا ترجمة الجشمىّ وها هى :

بسم الله الرحمن الرحيم

وأما ترجمة الإمام أبى سعد المحسن بن كرامة الجشمىّ ، فبعد البحث عثرت على ترجمة مختصرة له فى كتاب (تاريخ بيهق) المطبوع باللغة الفارسية طبع إيران وستراها فى الصفحة المقابلة فسلموها لظافر بك القاسمىّ مع إبلاغه السلام .

ولعلك تفحص عن كتاب (التهذيب) فى المكتبة الظاهرية إذا كان لايوجد فى مكتبة ظافر بك ، فإنه على الظاهر تفسير حسن وصاحبه ينتمى إلى علىّ رضى الله عنه .

« ترجمة الحاكم الإمام أبى سعد المحسن بن محمد بن كرامة البيهقىّ »

تولد ونشأ فى قصبة جشم ـ فى إيران قريبة من بيهق ، وبيهق اسمها الآن سُبْزَوار ، وهى إلى سبزوار بالقرب من نيسابور فى لواء خراسان ـ وله تصانيف فى الأصول والفقه كثيرة. مثل عيون المسائل وشرح العيون وغيرها. مثل تحكيم العقول. وله تفسير لطيف يقع فى عشرين مجلدًا ـ ولم يذكر المترجم أن اسمه التهذيب ـ وله طريقة لطيفة فى التصنيف . تفقه فى مجلس القاضى أبى محمد الناصحىّ وكان يختلف فى ذلك إلى الأمير أبى الفضل الميكالىّ . وقد روى الحديث عن الإمام أبى عبد الرحمن السلمىّ والإمام أبى الحسين عبد الغافر بن محمد الفارسىّ.
وقد مدحه الإمام علىّ بن أبى صالح الخوارىّ بهذه الأبيات :

ألا ياضارباً فى الأرض أقصر ... فما تبغيه عند ابن الكرامه
أقول لمن غدا يبغى مزيدًا ... عليه: علمت أنك فى الكرامه
أليس يقابل الطلاب مهما ... تلقوه ببرٍّ أو كرامه
أبا سعد بقيت فكل شخص ... يروم الفضل حقًّا منك رامه =

المعلوم، فلا يكون إغراءً مع تجويزه هجوم الموت عليه، ولأنه تعالى لما أعلمه أنه يدخله النار، ولعنه ــ علم أنه لايختار الإيمان أبداً . ومتى قيل : مافائدة إنظاره ؟ قلنا : لطف له، لأنه يمكنه من استدراك أمره . وهل يضل به أحد ؟ قال أبو عليّ : لا، لقوله تعالى : مَآ أَنتُمْ

= ومدحه أيضاً الإمام مسعود بن عليّ الصوابيّ بهذه الأبيات :

أبا سعد جزيت بلا نهايه　　أراك بلغت فى التصنيف غايه

وخلصت القلوب الغلف حقّاً　　وأوضحت الشريعة والهدايه

وفى سور المحامد والمساعى　　مناقبك الشريفة صِرْنَ آيه

وهو الحاكم الإمام أبو سعد المحسن بن محمد بن كرامة بن محمد بن أحمد بن الحسن بن كرامة بن إبراهيم بن إسماعيل بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن الحنفية بن عليّ بن أبى طالب عليه السلام . فبينه وبين جده ابن الحنفية عشرة آباء إلى عليّ رضى الله عنه أحد عشر، وهو علويّ ولكنه لم يكن معروفاً ولم يشتهر بهذا النسب . وله ولدان أحدهما الحاكم محمد توفى فى شهور سنة ثمان عشرة وخمسمائة . ولم يذكر المترجم تاريخ وفاة المترجَم له ولا تاريخ ولادته . ولكن يعرف تاريخ وفاته على الإجمال من ملاحظة تاريخ وفاة ولده الحاكم محمد المذكور .

نقلت هذه الترجمة عن كتاب (تاريخ بيهق) تأليف أبى الحسن بن عليّ بن زيد البيهقيّ المعروف بابن فندق، المطبوع باللغة الفارسية فى إيران بتاريخ ١٣١٧ شمسية .

١٧ رجب سنة ١٣٧٦

وأقول أنا :

لقد بحثت عن هذا التفسير حتى علمت أن البعثة المصرية لتصوير المخطوطات العربية فى بلاد اليمن، ذكرت فى التقرير الذى قدمه إلى وزارة المعارف رئيسها الدكتور خليل يحيى نامى بالصفحة رقم ١٨ منه ما يأتى : =

عَلَيْهِ بِفَـٰتِنِينَ * إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ [(١)]. ولأنه لو ضل به أحد ، لـكان بقاؤه مفسدة، فـكان الله تعالى لا يُنظره . فأما أبو هاشم فيجوّز أن يضل به أحـــد ، ويكون بمنزلة زيادة الشهوة ، ويجوز أن يكون لطفاً لنا من وجوه : أحدها أن المـكاف مع وسوسته إذا امتنع من القبيح ، كان ثوابه أكثر ، ولأنه تعالى عرفنا عداوته، والعاقل يجتهد فى أن يغيظ عدوّه ويغمّه ، وذلك إنمـا يكون بطاعة ربه ، ومن أطاعه فمن قِبَل نفسه أتى ، لا من قبل ربه . انتهى كلام الجشمىّ ، وهو جارٍ على أصول المعتزلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦] (قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ)

« قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِى » أى أضللتنى عن الهدى ، أو حكمت بغوايتى . والباء للقسم ، كما فى قوله تعالى : قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ [(٢)]. أى: فأقسم بإغوائك إياى. وقيل: هى بمعنى لام التعليل، أى: لأجل إغوائك إياى « لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ » أى: لآدم وبنيه ترصدًا بهم، كما يقعد القطاع للطريق على السابلة « صِرَٰطَكَ الْمُسْتَقِيمَ » أى: طريقك السوىّ، وهو طريق الحق، ومعناه لأفتر عن إفسادهم . وانتصابه على الظرفية أو على نزع الجارّ .

= ٩ ـ كتاب التقريب المنتزع من كتاب (التهذيب) لأبى سعد الحسين بن كرامة الجشمىّ البيهقىّ ـ للقاضى محمد بن عامر الأصبهانىّ ـ رقم التصوير ١٧

١٠ ـ التهذيب فى التفسير ـ للحاكم أبى سعد بن كرامة الجشمىّ البيهقىّ ، الموجود منه ثمانية مجلدات . رقم التصوير من ٨٧ ـ ٩٣ و ٢٧٠ . وهذا محفوظ بدار الـكتب . انتهى .

(١) [٣٧ / الصافات / ١٦٢و١٦٣] .

(٢) [٣٨ / ص / ٨٢] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧] (ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ)

« ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ » أى من جميع الجهات الأربع . مثّل قصده إياهم بالتسويل والإضلال من أى وجه يمكنه ، بإتيان العدوّ من الجهات الأربع التى يعتاد هجومه منها . ولذلك لم يذكر الفوق والتحت « وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ » أى مستعملين لقواهم وجوارحهم ، وما أنعم الله به عليهم فى طريق الطاعة والتقرب إلى الله . وإنما قال ذلك لما رآه من الأمارات على طريق الظن ، كقوله : وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (١) ـ . روى الإمام (٢) أحمد عن سبرة بن الفاكه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام ، فقال : أتُسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك ؟ قال : فعصاه فأسلم . ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطِّوَل. قال: فعصاه فهاجر. قال: ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له: هو جهاد النفس والمال. فتقاتل فتقتل فتُنكح المرأة ويُقسم المال؟ قال: فعصاه فجاهد . فقال رسول الله ﷺ : فمن فعل ذلك منهم فمات، كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو قتل كان حقا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقا على الله أن يدخله الجنة .

وقال الحافظ : ورد فى الحديث استعاذة من تسلط الشيطان على الإنسان من جهاته

(١) [٣٤ / سبأ / ٢٠] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٤٨٣ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى) .

كلها ، فروى الإمام أحمد[١] وأبو داود[٢] والنسائى[٣] وابن ماجة[٤] وابن حبان والحاكم عن عبد الله بن عُمَر قال : لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسى اللهم ! إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى ، وأهلى ومالى ؛ اللهم استر عوراتى وآمن روعاتى ؛ اللهم ! احفظنى من بين يدىّ ومن خلفى ، وعن يمينى وعن شمالى ، ومن فوقى وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى . ورواه البزار عن ابن عباس .

فائدة

قال الجشمىّ : تدل الآية أنه سأل الإنظار ، وأنه تعالى أنظره ، وقد بينا ما قيل فيه . وتدل على شدة عداوته لبنى آدم وحرصه على إضلالهم . وتدل على أن أكثر بنى آدم غير شاكرين . وتدل على أن الإضلال فعل إبليس ، والقبول عنه فعلهم ، لذلك أضافه إليهم ، وذمَّهم عليه ، ولو كان خلقاً له لما صح ذلك . ـ انتهى ـ والكلام فى أمثالها معروف .

ثم أكد تعالى على إبليس اللعنة والطرد والإبعاد عن محل الملأ الأعلى ، بقوله سبحانه :

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٥ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٤٧٨٥ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٤٠ ـ كتاب الأدب ، ١٠١ ـ باب مايقول إذا أصبح ، حديث ٥٠٧٤ .

(٣) أخرج النسائىّ قوله « اللهم إنى أعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى » فى : ٥٠ ـ كتاب الاستعاذة ، ٦٠ ـ باب الاستعاذة من الخسف .

(٤) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٤ ـ كتاب الدعاء ، ١٤ ـ باب مايدعو به الرجُل إذا أصبح وإذا أمسى ، حديث رقم ٣٨٧١ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨] (قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ، لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ)

« قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُوماً » بالهمزة فى القراءة المشهورة ، من (ذَأَمَهُ) إذا حقره وذمه ، وقرئ « مَذُوماً » بذال مضمومة وواو ساكنة ، وهى تحتمل أن تكون مخففة من المهموز بنقل حركة الهمزة إلى الساكن ثم حذفها ، وأن تكون من المعتلّ ، وكان قياسه (مذيم) كمبيع . إلا أنه أبدلت الواو من الياء ، على حدّ قولهم (مكول) فى مكيل ، و(مشوب) فى مشيب . « مَّدْحُوراً » مقصياً مطروداً « لَّمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ » اللام فيه ، لتوطئة القسم . وجوابه « لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ » أى : لمن أطاعك من الجن والإنس ، لأملأن جهنم من كفاركم ، كقوله تعالى : قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُوراً[(١)] .

قال الجشمىّ : وإنما قال ذلك لأنه لا يكون فى جهنم إلا إبليس وحزبه من الشياطين ، وكفار الإنس وفسّاقهم ، الذين انقادوا له وتركوا أمر الله لأمره ، فجمعهم فى الخطاب . ومتى قيل : لم ضيّق جهنم ووسع الجنة ؟ قلنا : لأن جهنم حبس ، والجنة دار ملك . ومتى قيل : فما الفائدة فى قوله (لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ) قلنا : لطفاً ليكون المكلف تبعاً للأنبياء دون الشياطين ، ولطفاً لإبليس وحزبه ، لأنه غاية فى الزجر والنهى .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على الوعيد لمن تبع إبليس ، وأنه يملأ جهنم منهم . ولا بدّ فيه من شرط ، وهو أن لا يتوب ، أو لا يكون معه طاعة أعظم . وتدل على إذلال إبليس وطرده ولعنه بسبب عصيانه ، تحذيراً عن مثل حاله .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٦٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩] (وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ)

وقوله تعالى : « وَيَـٰٓـَٔادَمُ » أى : وقلنا يا آدم « ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ » أى جنة الخلد ، أو جنة فى الأرض .

قال الجشمىّ : وقد تقدم ذكر هذه القصة ، والفائدة فى إعادتها أن القرآن نزل فى بضع وعشرين سنة ، والعوارض تعرض، والوفود تقدم، فكانت القصة تعاد، ليسمع من لم يسمع، استصلاحاً ولطفاً . لأن فى إعادة قصة واحدة ، فى مواضع بألفاظ مختلفة ، كل واحد منها فى نهاية الحسن ، من إعجاز القرآن . « فَكُلَا مِنْ حَيْثُ » أى من كل مكان « شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ » أى فتصيرا من الذين ظلموا أنفسهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠] (فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ)

« فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ » أى : إبليس بأكل الشجرة مخيلًا لهما النفع « لِيُبْدِىَ لَهُمَا » أى : يظهر لهما « مَا وُۥرِىَ » أى: ستر « عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا » أى: عوراتهما، واللام فى (لِيُبْدِىَ) إما للعاقبة ، لأنه لم يعلم صدوره منهما ، أى : فكان عاقبة وسوسته أن أظهر سوآتهما ؛ أو للتعليل والغرض، وهو الأصل فيها ، بناء على حدسه أو علمه بطريقٍ ما .

تنبيه :

فى الآية دليل على أن كشف العورة من عظائم الأمور ، وأنه مستهجن فى الطباع ، ولذلك سميت سوأة ، لأنه يسوء صاحبها .

قال الحاكم : وقد استدل قوم بالآية على وجوب ستر العورة ، وأنه كان فى شريعة آدم عليه السلام . قال القاضى : لا دليل فى الآية على الوجوب ، لأنه ليس فيها إلا أنهما فعلا ذلك . قال الأصم : فى الآية دليل على أنهما كرها التعرّى ، وإن لم يكن لهما ثالث ، ففى ذلك دليل على قبح التعرّى ، وإن لم يكن مع المتعرى أحد ، إلا لحاجة .

« وَقَالَ مَا نَهَـٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا » أى : إلا كراهة أن تكونا « مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ » أى : من الذين لا يموتون ويبقون فى الجنة ساكنين . وقد استدل بهذا من رأى تفضيل الملائكة على الأنبياء ، لارتكابهما ذلك طمعاً فى نيل ما ذكر . وأجاب ، من لم ير هذا ، باحتمال أن تكون هذه الواقعة قبل نبوة آدم . ولئن كانت بعدها ، فلعل آدم رغب فى الملكية للقوة والشدة والقدرة ، أو لخلقة الذات ، بأن يصير جوهراً نورانيًّا ـ أشار له الرازىّ ـ

وقال الناصر : لا يلزم من اعتقاد إبليس لذلك ووسوسته بأن الملائكة أفضل ، أن يكون الأمر كذلك فى علمه تعالى . ألا ترى إبليس قد أخبر أن الله تعالى منعهما من الشجرة حتى لا يخلدا أو لا يكونا ملكين ، وهو فى ذلك كاذب مبطل فلا دليل فيه إذاً ، وليس فى الآية ما يوجب تقرير الله تعالى لإبليس على ذلك ، ولا تصديقه فيه ، بل ختمت الآية بما يدل على أنه كَذَب لهما وغرّهما ، إذ قال الله تعالى:(فَدَلَّـٰهُمَا بِغُرُورٍ) فلعل تفضيله الملائكة على النبوة من جملة غروره ـ انتهى ـ .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : وأنا أقول : لا أزال أتعجب ممن أخذ يستدل من هذه الآية . والكلام الذى فيها ، حكاه الله تعالى عن قول إبليس فى معرض المناداة عليه بالكذب والغرور والزور والتدليس . وإنما يستدل من كلامه تعالى ، أو من كلام حكاه عن بعض أنبيائه . وإن لم يكن ذلك ، فكلام حكاه راضياً به مقرًّا له ـ انتهى ـ .

على أنه قرئ (مَلِكين) بكسر اللام ، كان يقرؤها كذلك ابن عباس ويحيى بن أبى

obeikandi.com

كثير . قال الواحدىّ : إنما أتاهما إبليس من جهة الملك . ويدل على هـذا قوله تعالى (هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ)(١) ـ انتهى ـ .

والقراءة الشاذة قد تكون تفسيراً للمتواترة ، كما لا يخفى ، وبه يندفع ما للرازىّ هنا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢١] (وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ)

« وَقَاسَمَهُمَآ » أى أقسم لهما « إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ » أى : فى هذا الأمر . قال ابن كثير : أى حلف لهما بالله على ذلك حتى خدعهما . وقد يخدع المؤمن بالله ـ انتهى ـ .

وعن قتادة : إنما يخدع المؤمن بالله . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاةٍ ، أعتقه ، فكان عبيده يفعلون ذلك طلباً للعتق ، فقيل له : إنهم يخدعونك ! فقال : من خدعنا بالله انخدعنا له .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٢] (فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ، وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ)

« فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ » أى : أطمعهما . وأصله : الرجل العطشان يدلّى فى البئر ليروى من مائها ، فلا يجد فيها ماء ، فيكون مدلّياً فيها بغرور ، فوضعت التدلية موضع الإطماع فيما لا يجدى نفعاً . وفيه إشعار بأنه أهبطهما بذلك من درجة عالية ، إلى رتبة سافلة . فإن

---

(١) [٢٠ / طه / ١٢٠] ونصها : فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ .

التدلية والإدلاء إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل . وقيل : معنى دلاهما جرأهما بغروره ، والأصل فيه (دللهما) ، والدلّ والدالة الجرأة كما قال[1] :

أَظُنَّ الحِلْمَ دلَّ عليَّ قومى وَقَدْ يُسْتَجْهَلُ الرَّجُلُ الْحَلِيمُ

فأبدل أحد حرفى التضعيف ياءً .

« فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا » أى : أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية فتهافت عنهما اللباس ، فظهرت لهما عوراتهما . قال السيوطىّ فى (الإكليل) : استدل به بعضهم على أن من ذاق الخمر عصى ـ انتهى ـ وهذا وقوف مع ظاهر ما ههنا ، فإن الذوق وجود الطعم بالفم ، وظاهر أنه قد يعبر به عن الأكل اليسير ، وهو المراد هنا ، لأنه وقع فى آية أخرى مصرحاً بالأكل فيها « وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ » أى : أخذا يرقعان ويلزقان ورقة فوق ورقة « عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ » أى : ليستترا به .

قال الجشمىّ : تدل على أن ستر العورة كان من شريعة آدم عليه السلام . وقد استدل قوم بالآية على وجوب الستر . قال القاضى : وليس فى الآية مايوجب الوجوب، إذ ليس فيها أكثر من أنهما فعلا ذلك . قال الأصم : وتدل على أن الستر من خلُق آدم وحواء، وأنهما كرها العرّى وإن لم يكن لهما ثالث ، ففى ذلك دليل على قبح التعرّى إلا عند الحاجة .

« وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ » أى يذكرهما النهى السابق والأمر والتجنب عن الشيطان « أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ » أى : عن الأكل منها « وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ » .

---

(١) قائله قيس بن زهير . وقد استشهد به فى اللسان فى مادة (د ل ل) ج ١١ ص ٢٤٧ (طبعة بيروت) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٣] (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ)

« قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا » أى أضررناها بالمعصية « وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا » أى ماسلف « وَتَرْحَمْنَا » أى بالتوبة وقبولها « لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ » أى لنصيرن ممن خسر جميع ماحصل له من الكمالات . قال الضحاك بن مزاحم (فى قوله : رَبَّنَا ظَلَمْنَآ ...) الآية ـ هى الكلمات التى تلقاها آدم من ربه .

لطيفة :

قال الجشمىّ : يقال إن آدم عليه السلام سعد بخمسة أشياء : اعترف بالذنب ، وندم عليه ، ولام نفسه ، وسارع إلى التوبة ، ولم يقنط من الرحمة . وشقى إبليس بخمسة أشياء : لم يقر بالذنب ، ولم يندم ، ولم يلم نفسه بل أضاف إلى ربه فلم يتب ، وقنط من الرحمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٤] (قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ)

« قَالَ ٱهْبِطُواْ » أى من الجنة إلى ما عداها . وقال أبو مسلم : معناه اذهبوا . وهو خطاب لآدم وحواء وإبليس . قال ابن كثير : والعمدة فى العداوة آدم وإبليس ، ولهذا قال فى سورة طه : (قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ...) الآية[1] ـ وحواء تبع لآدم ، والحية إن كان ذكرها صحيحاً فهى تبع لإبليس . وقد ذكر المفسرون الأماكن التى هبط فيها كل منهم . ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات ، والله أعلم بصحتها ، ولو كان فى تعيين تلك

(١) [٢٠ / طه / ١٢٣] ونصها : قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً ، بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ .

obeikandl.com

البقاع فائدة ، تعود على المكلفين ، فى أمر دينهم أو دنياهم ، لذكرها الله تعالى فى كتابه ، أو رسوله صلى الله عليه وسلم ـ انتهى ـ « بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ » أى استقرار أو موضع استقرار . « وَمَتَٰعٌ » أى تمتع ومعيشة « إِلَىٰ حِينٍ » أى : إلى تقضى آجالكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٥] (قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ)

« قَالَ فِيهَا » أى الأرض « تَحْيَوْنَ » تعيشون « وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ » أى يوم القيامة للجزاء ، كقوله تعالى(١) : مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ . ثم ذكرهم سبحانه بنعمته فى تبوئة الدار والمستقر فى الأرض ، وكسوتهم لباساً يسترون به سوءاتهم ، بعد ما نزع عنهما لباس الجنة ، وذلك لما هم ، بعد الإهباط ، من الحاجة إلى اللباس والمعاش . فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٦] (يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ، وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ، ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

« يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا » يعنى ما يلبس من الثياب وغيره .

قال الزمخشرىّ : جعل ما فى الأرض منزلا من السماء ، لأنه قضى ثمة وكتب ، أى قضى وقسم لكم ، وقضاياه وقسمه توصف بالنزول من السماء ، حيث كتب فى اللوح المحفوظ .

وقال أبو البقاء : لما كان الريش واللباس ينبتان بالمطر ، والمطر ينزل ، جعل ماهو المسبب بمنزلة السبب ـ انتهى ـ .

---

(١) [٢٠ / طه / ٥٥] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية فى فتوى له فى معنى النزول : لا حاجة إلى إخراج اللفظ عن معناه المعروف لغة ، فإن اللباس ينزل من ظهور الأنعام ، فامتن سبحانه بما ينتفعون به من الأنعام فى اللباس والأثاث ، وهذا ـ والله أعلم ـ معنى إنزاله ، فإنه ينزله من ظهور الأنعام، وهو كسوة الأنعام من الأصواف والأبار والأشعار ، وينتفع به بنو آدم فى اللباس والرياش، فقد أنزلها عليهم ، وأكثر أهل الأرض كسوتهم من جلود الدواب ، فهى لدفع الحر والبرد، وأعظم مما يصنع من القطن والكتان .

« يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ » أى يستر عوراتكم التى قصد إبليس إبداءها من أبويكم حتى اضطرا إلى خصف الأوراق ، وأنتم مستغنون عن ذلك « وَرِيشًا » عطفه إما من عطف الصفات ، فوصف اللباس بشيئين : مواراة السوأة ، والزينة . فالريش بمعنى الزينة ، لأنه زينة الطير فاستعير منه . وأما من عطف الشيء على غيره . أى أنزلنا لباسين : لباس مواراة ولباس زينة ؛ فيكون مما حذف فيه الموصوف ، أى لباساً ريشاً أى ذا ريش ، والريش مشترك بين الاسم والمصدر . وروى عليّ بن أبى طلحة عن ابن عباس ، وحكاه البخاريّ[1] عنه : الريش المال . وحكاه غير واحد من السلف . قال الإمام ابن تيمية : وبعض المفسرين أطلق عليه لفظ المال ، والمراد به مال مخصوص . قال ابن زيد: جمالاً . وقرئ : رياشاً . قال

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١ ـ باب خلق آدم صلوات الله عليه وذريته ونصه :

قال ابن عباس : لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ : إلا عليها حافظ . كَبَدٍ : فى شدة خلق . وَرِيَاشًا (وريشاً) : المال .

وفى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٧ ـ سورة الأعراف. ونصه :

قال ابن عباس : ورياشاً ، المال .

وانظر كتابنا (معجم غريب القرآن، مستخرجاً من صحيح البخاريّ) مادة (ر ى ش) ص ٧٧

ابن السكيت : الرياش هو الأثاث من المتاع ، ما كان من لباس أو حشو من فراش أودثار ، والريش : المتاع والأموال ، وقد يكون فى الثياب دون الأموال . وإنه لحسن الريش ، أى : الثياب ـ انتهى ـ .

ويقال : راش فلان ، أى جمع الريش ، وهو المـال والأثاث . وراش الصديقَ أطعمه وسقاه وكساه ، وأصله من الريش، كأن الفقير المملق لانهوض له، كالمقصوص منه الجناح وكل من أوليته خيراً ، فقد رشته ـ كذا فى تاج العروس ـ .

فائدة

روى الإمام [أحمد (١) عن أبى أمامة عن عمر بن الخطاب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من استجدّ ثوباً فلبسه ، فقال حين يبلغ ترقوته : الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى ، وأتجمل به فى حياتى . ثم عمد إلى الثوب الذى أخلق فتصدق به ، كان فى ذمة الله تعالى وفى جوار الله ، وفى كنف الله حيًّا وميتاً . ورواه الترمذىّ (٢) وابن ماجة (٣) . وروى

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٤ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٠٥ (طبعة المعارف) .

(٢) وأخرجه الترمذىّ فى : ٢٢ ـ كتاب اللباس ، ٢٩ ـ باب مايقول إذا لبس ثوباً جديداً . ونصه :

عن أبى سعيد قال : كان رسول الله ﷺ ، إذا استجدّ ثوباً سماه باسمه (عمامة أو قميصاً أو رداء) ثم يقول « اللهم ! لك الحمـد . أنت كسوتنيه . أسألك خيره وخير ماصنع له . وأعوذ بك من شره وشر ماصنع » .

قال : وفى الباب عن عمر وابن عمر .

(٣) وأخرجه ابن ماجة فى : ٢٢ ـ كتاب اللباس ، ٢ ـ باب مايقول الرجل إذا لبس ثوباً جديداً ، حديث رقم ٣٥٥٧ (طبعتنا) ونصه كنص المسند .

الإمام أحمد[١] عن أبى مطر أنه رأى علياً رضى الله عنه أتى غلاماً حدثاً، فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم ، ولبسه إلى ما بين الرسغين إلى الكعبين ، يقول ولبسه : الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس ، وأوارى به عورتى . فقيل : هذا شىء ترويه عن نفسك أو عن نبىّ الله ﷺ ؟ قال : هذا شىء سمعته من رسول الله ﷺ عند الكسوة : الحمد لله الذى رزقنى من الرياش ما أتجمل به فى الناس وأوارى به عورتى .

ولما بيّن تعالى ساتر الظاهر وزينته ، أشار إلى ساتر عيوب الباطن وزينته بقوله : « وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ » أى: خشية الله ، أو الإيمان ، أو السمت الحسن، والكل متقارب ، ورفعه بالابتداء ، خبرهُ جملة « ذَٰلِكَ خَيْرٌ » أو خيرٌ ، وذلك صفته ، كأنه قيل : ولباس التقوى المشار إليه خير .

قال المهايمىّ : لأن الظاهر محل نظر الخلق ، والباطن محل نظر الحق والعيوب الباطنة أفحش من العورات الظاهرة . وقال القاشانىّ : لباس التقوى صفة الورع والحذر من صفة النفس ، ذلك خير لأنه من جملة أركان الشرائع ، لأنه أصل الدين وأساسه ، كالحمية فى العلاج ـ انتهى ـ .

قال أبو على الفارسىّ : معنى الآية : ولباس التقوى خير لصاحبه إذا أخذ به، وأقرب له إلى الله تعالى ، مما خلق من اللباس والرياش الذى يتجمل به . قال : وأضيف اللباس إلى التقوى، كما أضيف إلى الجوع فى قوله : فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ[٢] . ـ انتهى ـ

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٥٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١٣٥٤ (طبعة المعارف) .

(٢) [١٦ / النحل / ١١٢] ونصها : وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ .

أى : فهو استعارة مكنية وتخييلية بأن يتوهم للتقوى حالة شبيهة باللباس ، تشتمل على جميع بدنه ، بحسب الورع والخشية من الله ، اشتمال اللباس على اللابس ، أو من قبيل (لُجَيْنِ الماء). وقرأ نافع وابن عامر والكسائى (وَلِبَاسَ ٱلتَّقْوَىٰ) بالنصب ، عطفاً على (لباساً) .

« ذَٰلِكَ » أى إنزال اللباس « مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ » الدالة على فضله ورحمته على عباده « لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » أى : نعمته عليهم فيعرفون عظمتها فيشكرونها .

قال الزمخشرى : وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوآت ، وخصف الأراق عليها ، إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس ، ولما فى العرى ، وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعارًا بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى .

تنبيه :

قال الجشمى : تدل الآية على عظيم نعمه تعالى بهذه النعم التى عدّها . وذهب علىّ بن موسى القمىّ إلى أنها تدل على وجوب ستر العورة . وقال آخرون: لا تدل ، وليس فى الظاهر إلا الإنعام به من حيث نفى الحر والبرد وستر العورة والتجمل به ، فأما أنه واجب ، فبعيد . ولو ثبت وجوبه عليه ، احتجنا إلى وجوبه فى شريعتنا إلى دليل مستأنف . وقد ثبت فى هذه الشريعة وجوبه بالخبر المستفيض والإجماع ، فلا حاجة إلى الرجوع إلى شريعة أخرى . وتدل على أنه تعالى، كما أنعم بنعم الدنيا ، أنعم بنعم الدين، فإن الأقرب أن لباس التقوى العلم والعمل الصالح، فكأنه ضم إلى نعم الدنيا نعم الدين التى بها يحصل الفوز بالثواب، فتحصل نعمة الدارين.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٧] (يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ، إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ، إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ)

« يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ » أى لا يخدعنكم عن دخول الجنة ، بنزع لباس

الشريعة والتقوى عنكم ، فيخرجكم من نظر الله بالرحمة إليكم « كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ » نعت لمصدر محذوف، أي لا يفتننكم فتنةً مثل إخراج أبويكم « يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا » أى الظاهر بسبب نزع لباس التقوى « لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ » أى الظاهرة الدالة على السوأة الباطنة . وجملة (ينزع) حال من (أبويكم) أو من فاعل (أخرج) ، أى : أخرجهما نازعاً لباسهما ، بأن كان سبباً فى أن نزع عنهما ؛ وصيغة المضارع لاستحضار الصورة .

تنبيهان :

الأول ـ قال السيوطىّ فى (الإكليل): استدل بهذه الآية أيضاً على وجوب ستر العورة، واستدل بالآيتين من قال: إن العورة هى السوأتان خاصة ـ انتهى ـ .

الثانى ـ قال الإمام الرازىّ : اعلم أن المقصود من ذكر قصص الأنبياء عليهم السلام حصول العبرة لمن يسمعها ، فكأنه تعالى لما ذكر قصة آدم ، وبين فيها شدة عداوة الشيطان لآدم وأولاده ، أتبعها بأن حذر أولاده من قبول وسوسة الشيطان، فقال: (يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ...) الآية ـ وذلك لأن الشيطان لما بلغ أثر كيده ، ولطف وسوسته ، وشدة اهتمامه، إلى أن قدر على إلقاء آدم فى الزلة الموجبة لإخراجه من الجنة ـ فبأن يقدر على أمثال هذه المضار فى حق بنى آدم أولى . فبهذا الطريق حذر تعالى بنى آدم بالاحتراز عن وسوسته .

وقوله تعالى : « إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ » أى : جنوده من الشياطين « مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ » أى من مكان لا ترونهم فيه . والجملة استئناف لتعليل النهى، وتأكيد التحذير من فتنته بأنه بمنزلة العدوّ المداجى ، يكيدكم ويغتالكم من حيث لا تشعرون . عن مالك ابن دينار : إن عدوّا يراك ولا تراه ، لشديد المؤنة ، إلا من عصم الله .

تنبيه .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : قال ابن الفرس : استدل بها بعضهم على أن الجن لا يرون وأن من قال إنهم يُرَوْنَ فهو كافر ـ انتهى ـ ومراده بالبعض ، المعتزلة ، ولذا

قال الزمخشريّ : فيــه دليل بيّن أن الجن لا يرون ولا يظهرون للإنس ، وأن إظهارهم أنفسهم ليس فى استطاعتهم ، وأن زعْم من يدعى رؤيتهم زور ومخرقة ـ انتهى ـ

وقال الجشمىّ : تدل على بطلان قول العامة إن الشيطان يتصور لنا ونراه . ثم قال : ومتى قيل : أليس يُرَون زمن الأنبياء ، ويرى المعاين الملَك؟ فجوابنا: أنه يزداد قوة الشعاع، أو تتكاثف أبدانهم ، فيكون معجزة للنبي ـ انتهى ـ

وأجاب أهل السنة كما فى (العناية): بأنه قد ثبتت رؤيتهم، بالأحاديث الصحيحة المشهورة، وهى لاتعارض ما فى الآية . لأن المنفى فيها رؤيتهم إذا لم يتمثلوا لنا .

وقال فى فتح البيان : وقد استدل جماعة من أهل العلم بهذه الآية على أن رؤية الشيطان غير ممكنة ، وليس فى الآية مايدل على ذلك . وغاية ما فيها أنه يرانا من حيث لانراه وليس فيها أنا لانراه أبدا، فإن انتفاء الرؤية منّا له ، فى وقت رؤيته لنا ، لايستلزم انتفاءها مطلقاً. والحق جواز رؤيتهم كما هو ظاهر الأحاديث الصحيحة ، وتكون الآية مخصوصة بها ، فيكونون مرئيين فى بعض الأحيان لبعض الناس دون بعض ـ انتهى ـ .

وقد أوضح الغزالىّ رحمه الله رؤيا الجن والشياطين برؤيا الملائكة حيث قال فى (الركن الثانى) : الملائكة والجن والشياطين جواهر قائمة بأنفسها مختلفة بالحقائق اختلافا يكون بين الأنواع . ثم قال : ويمكن أن تشاهد هذه الجواهر ـ أعنى جواهر الملائكة ـ وإن كانت غير محسوسة . وهذه المشاهدة على ضربين : إما على سبيل التمثيل ، كقوله تعالى : (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا)[1] . وكما كان النبيّ عليــه الصلاة والسلام[2] ، يرى جبريل فى صورة دِحْيَةَ الكلبىّ .

(١) [١٩ / مريم / ١٧] ونصها : فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ١٠٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٥٨٥٦ و ٥٨٥٧ (طبعة المعارف) ونصهما :

والقسم الثانى أن يكون لبعض الملائكة بدن مخصوص ، كما أن نفوسنا غير محسوسة ولها بدن محسوس هو محل تصرفها وعالمها الخاص بها ، فكذلك بعض الملائكة ، وربما كان هذا البدن المحسوس موقوفاً على إشراق نور النبوة ، كما أن محسوسات عالمنا هـذا موقوفة عند الإدراك على إشراق نور الشمس ، وكذا فى الجن والشياطين ـ انتهى ـ .

وقوله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » قال الزجاج : يعنى سلطناهم عليهم : يزيدون فى غيهم ـ انتهى ـ والجملة تعليل آخر للنهى ، وفيه تحذير أبلغ من الأول.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٨] ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

« وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً » أى: ما تناهى قبحه من الذنوب، كالشرك وكشف العورة فى الطواف

= عن يحيى بن يعمر . قلت لابن عمر : إن عندنا رجالا يزعمون أن الأمر بأيديهم، فإن شاءوا عملوا وإن شاءوا لم يعملوا ؟ فقال: أخبرهم أنى منهم برئ. وأنهم منى برءاء . ثم قال : جاء جبريل ﷺ إلى النبىّ ﷺ فقال : يا محمد ! ما الإسلام ؟ فقال « تعبد الله لاتشرك به شيئاً . وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت » قال : فإذا فعلتُ ذلك فأنا مسلم ؟ قال « نعم » قال : صدقتَ . فما الإحسان ؟ قال « تخشى الله تعالى كأنك تراه ، فإلّا تكن تراه فإنه يراك » قال : فإذا فعلتُ ذلك فأنا محسن؟ قال «نعم» قال: صدقتَ . قال : فما الإيمان؟ قال « تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث من بعد الموت والجنة والنار والقدر كله » قال : فإذا فعلت ذلك فأنا مؤمن ؟ قال « نعم » قال : صدقت .

وعن ابن عمر عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، مثله . قال : وكان جبريل عليه السلام يأتى النبىّ صلى الله عليه وسلم فى صورة دِحْيَة .

«قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا» أى؟ إذافعلوهااعتذروا بأن آباءهم كانوايفعلونها، فاقتدوا بهم ، وبأن الله أمرهم بأن يفعلوها ، حيث أقرنا عليها ، إذ لو كرهها لنقلنا عنها، وهما باطلان ، لأن أحدهما تقليد للجهال ، والتقليد ليس بطريق للعلم ، والثانى افتراء على ذى الجلال .

قال الشهاب : فى قوله تعالى : (وَٱللَّهُ أَمَرَنَا) : مضاف مقدر ، أى أمر آباءنا ، فلا يقال الظاهر أمرهم بها ، والعدول عن الظاهر إشارة إلى ادعاء أنّ أمر آبائهم أمرٌ لهم .

« قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ » أى : هذا الذى تصنعونه فاحشة منكرة ، والله لا يأمر بمثل ذلك ، لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال والحث على مكارم الخصال « أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » إنكار لإضافتهم الأمر بالفحشاء إليه سبحانه ، يتضمن النهى عن الافتراء عليه تعالى ، وفيه شهادة على أن مبنى قولهم على الجهل المفرط قال الشهاب : ولا دليل فى الآية لمن نفى القياس ، بناء على أن ما يثبت به مظنون لا معلوم، لأنه مخصوص فى عمومها بإجماع الصحابة ومن يعتد به ، أو بدليل آخر .

تنبيه :

قال مجاهد(١) : كان المشركون يطوفون بالبيت عراةً ، يقولون : نطوف كما ولدتنا أمهاتنا ، فتضع المرأة على قُبُلها النِّسعة أو الشىء وتقول :

اليومَ يبدو بعضهُ أو كلُّهُ وما بدا منــه فلا أُحِلُّهُ

فأنزل الله (وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً ...) الآية ـ قال ابن كثير: كانت العرب ،ما عدا قريشاً ، لا يطوفون بالبيت فى ثيابهم التى لبسوها، يتأولون فى ذلك أنهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها. وكانت قريش ـ وهم الحمس ـ يطوفون فى ثيابهم، ومن أعاره أحمسىّ ثوباً طاف فيه،ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه، فلا يتملكه أحد، ومن لم يجد ثوباً جديدًا ، ولا أعاره أحمسىّ ثوباً ؛

(١) الأثر رقم ١٤٤٦٢ من تفسير الطبرىّ .

طاف عرياناً ، وربما كانت امرأة ، فتطوف عريانة ، فتجعل على فرجها شيئاً ليستره بعض الستر ، فتقول : اليوم يبدو ... ـ البيت ـ وأكثر ما كان النساء يطفن بالليل ، وكان هذا شيئاً قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم ، واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله وشرع ، فأنكر تعالى عليهم ذلك .

وذكر السيوطيّ في (الإكليل) عن ابن عباس أيضاً ؛ أنها نزلت في طوافهم بالبيت عراة ، رواه أبو الشيخ وغيره . قال : ففيها وجوب ستر العورة في الطواف .

تنبيهان :

الأول ـ ذهب المعتزلة إلى أن الإرادة مدلول الأمر ، ولا زمة له ، والفحشاء ـ أعني الشرور والمعاصي ـ غير مأمور بها بنص الآية ، فلا تكون مرادة له تعالى .

وأجاب أهل السنة بأن الأمر قد ينفك عن الإرادة ، بمعنى أنه يوجد بدون الإرادة ، فلا تكون الإرادة تابعة له وجودا . ومما يوضح أن الشيء قد يؤمر به ولا يكون مرادا، أن السيد إذا أراد أن يظهر على الحاضرين عصيان عبده ، يأمره بالشيء ولا يريده منه . ومنها أن الأمر أمران : أمر تكوينيّ يحصل به وجود الأشياء ، وهو خطاب (كن) وهو تابع للإرادة ، ويعم جميع الكائنات . فالطاعات والمعاصي كلها مأمورة ومرادة بهذا الأمر ، ولا يتعلق بهذا الأمر الطاعةُ والعصيان والثواب والعقاب. لأنه يتعلق بالأشياء حال العدم.

وأمر تشريعيّ تدوينيّ : أي شرعه الله لعباده ، وكلفهم به، مما دون في كتب الشريعة وبُيِّن . وهذا الأمر يتعلق به الطاعة والعصيان والثواب والعقاب والرضا والسخط. والكفرُ والمعاصي ليست مأمورةً بهذا الأمر . والمعتزلة لم يفرقوا بين الأمرين ، وقالوا : إن الكفر والمعاصي لو كانت مرادَه تعالى، لكانت مأمورا بها ، وإتيانُ المأمور به طاعة، فيكون الكافر والفاسق مطيعيْن ، فإنهما مأمور بهما بالأمر الأول ، وليس مأمورا بهما بالأمر الثاني ، حتى يكون إتيانهما طاعة .

قال السيلكوتىّ : ولا يخفى عليك أن تقسيم الأمر إلى أمرين ، إنما يستقيم إذا كان قوله تعالى: (إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ)(١) على ظاهره ، كما ذهب إليه البعض . وأما إذا كان عبارة عن الإيجاد من غير أن يتعلق بها خطاب ، كما ذهب إليه الأشعرىّ ومن تبعه ، فلا . انتهى ـ والمسألة مبسوطة فى محالها المعروفة .

الثانى ـ قوله تعالى (قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ) جواب عن شبهتهم الثانية . ولم يذكر جواباً عن الأولى . قال الإمام : لأنها إشارة إلى محض التقليد . وقد تقرر فى المعقول أنه طريقة فاسدة ، لأن التقليد حاصل فى الأديان المتناقضة . فلو كان التقليد حقًّا ، لزم القول بحقية الأديان المتناقضة . فلما كان فساده ظاهرا ، لم يذكره تعالى .

الثالث ـ قال فى (فتح البيان) : فى هذه الآية الشريفة أعظم زاجر ، وأبلغ واعظ ، للمقلدة الذين يتبعون آباءهم فى المذاهب المخالفة للحق ، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر ، لا بأهل الحق ، فإنهم القائلون: (إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ)(٢) والقائلون : (وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا) . والمقلد ، لولا اغتراره بكونه وجد آباءه على ذلك المذهب ، مع اعتقاده بأنه الذى أمر الله به ، وأنه الحق ـ لم يبق عليه . وهذه الخصلة هى التى بقى بها اليهودىّ على يهوديته ، والنصرانىّ على نصرانيته ، والمبتدع على بدعته . فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم فى اليهودية والنصرانية والبدعة ، وأحسنوا الظن بهم بأن ما هم عليه هو الحق الذى أمر الله به، ولم ينظروا لأنفسهم ولا طلبوا الحق كما يجب ، ولا بحثوا عن الله كما ينبغى . وهذا هو التقليد البحت ، والقصور الخالص . ثم قال : وإن من أعجب الغفلة وأعظم الذهول عن الحق ، اختيار المقلدة لآراء

(١) [٣٦ / يس / ٨٢] .

(٢) [٢٣ / الزخرف / ٢٣] ونصها : وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ . . .

الرجال، مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله بين ظهرانيهم، ووجود من يأخذونهما عنه بين أيديهم، ووجود آلة الفهم لديهم ، وملكة العقل عندهم ـ انتهى ـ .

ولما نفى تعالى ما تقوّلوه عليه ، وأخبر أنه لا يأمر بالفحشاء ، بيّن ما أمر به بقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٩] (قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ، وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ، كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)

« قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ » أى : بالعدل . وللسلف فيه هنا وجوه : ما ظهر فى العقول كونه حسناً ، أو التوحيد ، أو كلمة الإخلاص. وعن أبى مسلم: جميع الطاعات . قال الحاكم: وهو الوجه : ولا يخفى أن الجميع مما يشمله (القسط) فلا منافاة . « وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ » معطوف على الأمر الذى ينحلّ إليه المصدر مع (أن) . أى : بأن أقسطوا وأقيموا ، والمصدر ينحل إلى الماضى والمضارع والأمر ، كما نقله المُعرِب . أو معطوف على (أَمَرَ رَبِّى) أى : قل أقيموا . قال الجرجانىّ : الأمر معطوف على الخبر ، لأن المقصود لفظه، أو لأنه إنشاء معنى . انتهى ـ و (الوجوه) مجاز عن الذوات . ومسجد إما مصدر، والوقت مقدر قبله ، و (عند) بمعنى (فى) . أى : أقيموا ذواتكم فى كل وقت سجود، وذلك بمنعها عن الالتفات إلى الغير فيه ، وبمراعاة موافقة الأمر مع صدق النية ، أو باستقبال القبلة فيه . وإما اسم زمان أو مكان بالمعنى اللغوىّ ، أى فى كل وقت سجود أو مكانه . والسجود على هذه الأوجه مجاز عن الصلاة ، أو المسجد هو المصطلح عليه . والمعنى : فى أىّ مسجد حضرتكم الصلاة ولا تؤخروها حتى تعودوا إلى مساجدكم . والأمر على هذا الوجه للندب . قيل : وهو لا يناسب المقام . وإما على ما قبله ، فهو للوجوب .

وهذه الوجوه مستفادة مما روى عن السلف . قال فى (اللباب) : معنى الآية فى قول

مجاهد والسدّىّ : وجهوا وجوهكم حيثما كنتم فى الصلاة إلى الكعبة . وقال الضحاك : المعنى إذا حضرت الصلاة وأنتم عند المسجد فصلّوا فيه ، ولا يقولن أحدكم : أصلى فى مسجدى، أو مسجد قومى . وقيل : معناه اجعلوا سجودكم لله خالصاً .

« وَادْعُوهُ » أى : اعبدوه « مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ » أى : الطاعة بتخصيصها له ، لأنه استحق عبادتكم بإبدائه إياكم ، ولا يسعكم تركها ، إذ إليه عودكم بالآخرة ؛ فإنه « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » أى : كما أنشأكم ابتداء ، يعيدكم إليه أحياء ، فيجازيكم على أعمالكم ، فأخلصوا له العبادة . وإنما شبه الإعادة بالابتداء ، تقريراً لإمكانها والقدرة عليها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٠] (فَرِيقاً هَدَىٰ وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَٰلَةُ ، إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ)

« فَرِيقاً هَدَىٰ » بأن وفقهم للإيمان « وَفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَٰلَةُ » وهم الكافرون « إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ » أى: أنصارًا وأرباباً « مِن دُونِ اللَّهِ » حيث أطاعوهم فيما أمروهم به من الكفر والمعاصى « وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ » أى : أنهم على هداية وحق فيما اعتقدوا .

تنبيهان :

الأول ـ قال ابن جرير[١] : قوله تعالى (وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ) من أبين الدلالة على خطأ قول من زعم أن الله لا يعذب أحداً على معصية ركبها ، أو ضلالة اعتقدها ، إلا أن يأتيها بعد علم منه بصواب وجهها، فيركبها عنادًا منه لربه فيها. لأن ذلك لو كان كذلك، لم يكن بين فريق الضلالة الذى ضل ، وهو يحسب أنه مهتد ، وفريق الهدى ـ فرقٌ . وقد فرّق الله تعالى بين أسمائهما وأحكامهما فى هذه الآية ـ انتهى ـ .

(١) انظر الصفحة رقم ٣٨٨ من الجزء الثانى عشر من تفسيره (طبعة المعارف) .

وحاصله ، كما قال القاضى : إن الآية دلت على أن الكافر المخطئ والمعاند سواء فى استحقاق الذم . قال القاضى : وللفارق أن يحمله على المقصر فى النظر ، أى : يحمل الضمير فى (اتَّخَذُوا) على الكافر المقصر فى النظر . وأما الذين اجتهدوا وبذلوا الوسع فمعذورون ، كما هو مذهب البعض ـ كذا فى (العناية) .

الثانى ـ قال الرازىّ : هذه الآية تدل على أن مجرد الظن والحسبان لا يكفى فى صحة الدين ، بل لا بد فيه من الجزم والقطع واليقين ، لأنه تعالى عاب الكفار بأنهم يحسبون كونهم مهتدين . ولولا أن هذا الحسبان مذموم ، لما ذمهم بذلك ـ انتهى ـ .

قال المهايمىّ : ومما حسبوا فيه أنهم مهتدون بمتابعة الشيطان ، تركهم التزين والتلذذ مع العبادة ، فطافوا عراة . وتركهم اللحم والدسم مع الإحرام ، فقال عز وجل :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣١] (يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ)

« يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ » أى : من اللباس « عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ » أى : بيت بنى للعبادة ، على أنه اسم مكان ، أو مصدر بمعنى السجود ، مرادًا به الصلاة والعبادة . فإن العبادة أولى أوقات التزين « وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ » أيام الحج تقوّيًا على العبادة « وَلَا تُسْرِفُوٓاْ » أى : إسرافًا يوجب الانهماك فى الشهوات ويشغل عن العبادة ، أو لا تحرموا الطيبات من الرزق واللحم والدسم « إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ » المعتدين .

تنبيهات :

الأول ـ كنا أسلفنا فى مقدمة هذا التفسير ، أن من فوائد معرفة سبب النزول الوقوف على المعنى ، وإزالة الإشكال . وهذه الآية إنما أجملنا تفسيرها بما ذكرنا ، لأنها نزلت فى ذلك.

فقد روى مسلم[١] عن ابن عباس قال : كانت المرأة تطوف بالبيت وهى عُرْيانة ، فتقول : من يعيرنى تِطْوَافا[٢] ؟ تجعله على فرجها وتقول :

اليومَ يبدو بَعْضُهُ أَوْ كُلُّهُ   وَمَا بَدَا مِنْهُ فَـلَا أُحِلُّهُ

فنزلت هـذه الآية (خُذُواْ زِينَتَكُمْ . . .) الآية . ونزلت (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ . . .) الآية .

وعند ابن جرير[٣] عن ابن عباس قال : كانوا يطوفون عراة ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل ، وكانت المرأة تقول :

اليومَ يبدُو بعضُهُ أو كلُّهُ   فما بدا منه فَلَا أُحِلُّهُ

فنزلت (خُذُواْ زِينَتَكُمْ) . قال فى (اللباب) : وفى رواية أخرى عنه[٤] : فأمرهم الله تعالى أن يلبسوا ثيابهم ولا يتعرّوا . وروى العوفىّ[٥] عن ابن عباس أيضاً فى الآية قال: كان رجال يطوفون بالبيت عراة ، فأمرهم الله بالزينة ، والزينة اللباس ، وهو مايوارى السوأة، وما سوى ذلك من جيد البزّ والمتاع ، فأمروا أن يأخذوا زينتهم عند كل مسجد . وأخرج أبو الشيخ عن طاووس قال : أمروا بلبس الثياب ، وأخرج من وجه آخر عنه قال : الشملة

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٤ ـ كتاب التفسير ، حديث ٢٥ (طبعتنا) .

(٢) تطوافاً: هو ثوب تلبسه المرأة تطوف به. وكان أول الجاهلية يطوفون عراة ويرمون ثيابهم ويتركونها ملقاة على الأرض ولا يأخذونها أبدا. ويتركونها تداس بالأرجل حتى تبلى، ويسمى اللقاء . حتى جاء الإسلام فأمر الله تعالى بستر العورة ، فقال تعالى : خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . وقال النبىّ ﷺ « لا يطوف بالبيت عريان » .

(٣) الأثر رقم ١٤٥٠٤ .

(٤) الأثر رقم ١٤٥٠٧ .

(٥) الأثر رقم ١٤٥٠٨ من تفسير ابن جرير .

من الزينة . وقال مجاهد : كان حيٌّ من أهل اليمن إذا قدم أحدهم حاجًّا أو معتمراً يقول : لا ينبغي لي أن أطوف في ثوب قد عصيت فيه ، فيقول : من يعيرني مئزراً ؟ فإن قدر عليه وإلّا طاف عرياناً . فأنزل الله تعالى فيه ما تسمعون : (خُذُواْ زِينَتَكُمْ . . .) الآية .

وقال الزهريّ : إن العرب كانت تطوف بالبيت عراة إلا الحمس ـ وهم قريش وأحلافهم ـ فمن جاء من غير الحمس ، وضع ثيابه ، وطاف في ثوب أحمسيّ ، ويرى أنه لا يحل له أن يلبس ثيابه . فإن لم يجد من يعيره من الحمس فإنه يلقي ثيابه ، ويطوف عرياناً . وإن طاف في ثياب نفسه ألقاها ، إذا قضى طوافه وحرّمها ، أي جعلها حراماً عليه ؛ فلذلك قال تعالى: خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ . والمراد من الزينة لبس الثياب التي تستر العورة . قال مجاهد : ما يواري عوراتكم ، ولو عباءة ـ انتهى ـ قال ابن كثير : هكذا قال مجاهد وعطاء وإبراهيم النخعيّ ، وسعيد بن جبير وقتادة والسديّ ، والضحاك ومالك عن الزهريّ وغير واحد من أئمة السلف في تفسيرها : أنها نزلت في طواف المشركين بالبيت عراة ـ انتهى ـ فظهر أن المراد بالزينة ما يستر العورة لأنه اللازم المأمور به الذي بيّنه سببُ النزول ، دون لباس التجمل المتبادر منه ، لأن المستفاد من (خُذُواْ) هو وجوب الأخذ ، ولباس التجمل مسنون ـ قاله الشهاب ـ وأقول دلّت الآية بما أفاده سبب نزولها على أن الزينة لا تختص ، لغةً ، بالجيّد من اللباس كما توهم . وبين ذلك العوفيّ عن ابن عباس فيما نقلناه .

وفي (التهذيب) : الزينة اسم جامع لكل شيء يتزين به . ومثله في (الصحاح) و(القاموس) وعبارته : الزينة ما يتزين به .

وقال الحرالّي : الزينة تحسين الشيء بغيره من لبسة أو حلية أو هيئة .

وقال الراغب : الزينة الحقيقية ما لا يشين الإنسان في شيء من أحواله ، ولا في الدنيا ولا في الآخرة ـ انتهى ـ .

وقد نقل الرازيّ إجماع المفسرين على أن المراد بـ (الزينة) لبس الثياب التي تستر العورة .

قال : والزينة لا تحصل إلا بالستر التام للعورات . قال : وأيضاً إنه تعالى قال فى الآية المتقدمة (قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِى سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا) فبين أن اللباس الذى يوارى السوأة من قبيل الرياش والزينة . ثم إنه تعالى أمر بأخذ الزينة فى هذه الآية . فوجب أن يكون المراد من هذه الزينة هو الذى تقدم ذكره فى تلك الآية . وأيضاً فقوله (خُذُواْ زِينَتَكُمْ) أمر ، والأمر للوجوب . فثبت أن أخذ الزينة واجب ، وكل ما سوى اللبس فغير واجب ، فوجب حمل الزينة على اللبس عملًا بالنص بقدر الإمكان . ولا يقال : إن قوله (وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ) أمر إباحة ، فيكون المعطوف عليه كذلك ، لأنه لا يلزم من ترك الظاهر فى المعطوف ، تركه فى المعطوف عليه .

هذا ، وقد روى الحافظ ابن مردويه من حديث سعيد بن بشير والأوزاعىّ عن قتادة عن أنس مرفوعاً : أنها نزلت فى الصلاة فى النعال . وكذا أخرجه أبو الشيخ عنه ، وعن أبى هريرة مثله . قال ابن كثير : وفى صحته نظر ـ والله أعلم ـ قلت : لا نظر ، لأن ذلك مما تشمله الزينة ، وقد أسلفنا فى المقدمة أن قولهم : (نزلت فى كذا) لا يقصد به أن حكم الآية مخصوص به ، بل مخصوصة بنوعه ، فتعم ما أشبهه ، فَتَذَكَّرْ . والأحاديث فى مشروعية الصلاة فى النعل كثيرة جدًّا ، منها : عن أبى مسلمة [1] سعيد بن يزيد ، قال : سألت أنساً : أكان النبىّ صلى الله عليه وآله وسلم يصلى فى نعليه ؟ قال : نعم (متفق عليه) . قال العراقىّ فى (شرح الترمذىّ) : وممن كان يفعل ذلك ـ يعنى لبس النعل فى الصلاة ـ عمر بن الخطاب وعثمان ابن عفان وعبد الله بن مسعود وعويمر بن ساعدة وأنس بن مالك وسلمة بن الأكوع وأوس الثقفىّ ، ومن التابعين : سعيد بن المسيب والقاسم وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله وعطاء ابن يسار وعطاء بن أبى رباح ومجاهد وطاووس وشريح القاضى وأبو مجلز وأبو عمر الشيبانى والأسود بن يزيد وإبراهيم النخعىّ وإبراهيم التيمىّ وعلىّ بن الحسين وابنه أبو جعفر . انتهى.

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨ ـ كتاب الصلاة ، ٢٤ ـ باب الصلاة فى النعال حديث رقم ٢٥٦.

وقد أخرج أبو داود[١] من حديث أبى سعيد الخدرىّ أنه قال : قال ﷺ : إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر فإن رأى فى نعليه قذراً أو أذًى فليمسحه وليصلّ فيهما . وحديث عمرو ابن شعيب عن أبيه عن جده قال : رأيت رسـول الله ﷺ يصلى حافياً ومنتعلاً . أخرجه أبو داود [٢] وابن ماجة [٣] .

الثانى : دلت الآية على وجوب الستر عند الطواف ، لأنه سبب النزول ، قالوا : واللفظ شامل للصلاة لأنها مفعولة فى المسجد .

الثالث : حاول بعضهم استنباط التجمل عند الصلاة منها حيث قال : لما دلت على وجوب أخذ الزينة بستر العورة فى الصلاة ، فُهِم منها ، فى الجملة ، حسن التزين بلبس ما فيه حسن

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ٨٨ ـ باب الصـلاة فى النعل ، حديث ٦٥٠ ونصه :

عن أبى سعيد الخدرىّ قال : بينما رسول الله ﷺ يصلى بأصحابه ، إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره .

فلما رأى ذلك القومُ ألقَوْا نعالهم .

فلما قضى رسول الله ﷺ صلاته قال « ما حملـكم على إلقائـكم نعالـكم » ؟ قالوا : رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن جبريل صلى الله عليه وسلم ، أتانى فأخبرنى أن فيهما قذراً » وقال « إذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر . فإن رأى فى نعليه قَذَرًا أو أذًى ، فليمسحه وليصلّ فيهما » .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ٨٨ ـ باب الصـلاة فى النعل ، حديث ٦٥٣ .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، ٦٦ ـ باب الصلاة فى النعال ، حديث ١٠٣٨ (طبعتنا) .

وجمال فيها . قال الكيا الهراسى : ظاهر الآية الأمر بأخذ الزينة عند كل مسجد للفضل الذى يتعلق به تعظيماً للمسجد والفعل الواقع فيه ، مثل الاعتكاف والصلاة والطواف . وقال ابن الفرس : استدل مالك بالآية على كراهية الصلاة فى مساجد القبائل بغير أردية . واستدل بها قوم من السلف على أنه لا يجوز للمرأة أن تصلى بغير قلادة أو قرطين . كذا فى (الإكليل). والأخير من الغلو فى النزع . وقال ابن كثير : ولهذه الآية وما ورد فى معناها من السنة ، يستحب التجمل عند الصلاة ، ولاسيما يوم الجمعة ويوم العيد . والطيب لأنه من الزينة . والسواك لأنه من تمام ذلك . ومن أفضل اللباس البياض لما روى الإمام أحمد[١] وأبو داود[٢] والترمذى[٣] عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : البسوا من ثيابكم البياض فإنها من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم . وإن من خير أكحالكم الإثمد، يجلو البصر وينبت الشعر ولأحمد[٤] وأهل السنن ، عن سمُرة بن جندب قال: قال رسول الله ﷺ : عليكم بالثياب البيض فالبسوها فإنها أطهر وأطيب ، وكفنوا فيها موتاكم . وروى الطبرانى بسند صحيح عن قتادة عن محمد بن سيرين : أن تميماً الدارى اشترى رداء بألف ، وكان يصلى فيه .

الرابع : وجه تأثر الأمر بأخذ الزينة ، بالأمر بالأكل والشرب فى قوله تعالى (وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ) ما رواه الكلبى أن بنى عامر كانوا لا يأكلون فى أيام حجهم إلا قوتاً ، ولا يأكلون دسماً ، يعظمون بذلك حجهم . فقال المسلمون نحن أحق أن نفعل ذلك يارسول الله.

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢٤٧ من الجزء الأول (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٢٢١٩ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه أبو داود فى : ٢٧ ـ كتاب الطب ، ١٤ ـ باب فى الأمر بالكحل ، حديث ٣٨٧٨ .

(٣) أخرجه الترمذى فى : ٨ ـ كتاب الجنائز ، ١٨ ـ باب مايستحب من الأكفان.

(٤) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٣ من الجزء الخامس (طبعة الحلبى) .

obeikandi.com

فأنزل الله عز وجل (وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ) . وقال السدّىّ : كان الذين يطوفون بالبيت عراة يحرّمون عليهم الودك ماأقاموا فى الموسم . فقال الله تعالى لهم : وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ . . . الآية .

الخامس : فسر الإسراف بمجاوزة الحد فيما أحلّ ، وذلك بتحريمه ، وقال الجشمى اليمنىّ فى تفسيره (التهذيب) : تدل الآية على المنع من الإسراف . وذلك على وجهين : أولهما : إنفاق فى معصية كالفخار واللعب والزنى والخمر ونحوها . وثانيهما : أن يتعدى الحدود وذلك مختلف بحال اليسار والإعسار . لأن من له قدر يسير ، لو أنفقه فى ضيافة أو طيب أو ثياب خز ، وهو وعياله يحتاجون إليـــه ، فهو سرف محرم . ومثله فى الموسرين لايقبح ولا يكون سرفاً . وتدل على أن الأشياء على الإباحة . والعقل يدل على ذلك . لأنه تعالى خلقه لمنافعهم . والسمع ورد مؤكدا . ولذلك قال : (مَنْ حَرَّمَ) مطالبا بدليل سمعىّ اﻫ .

وقد روى الإمام أحمد [١] عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف ، فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده . وأخرج النسائى [٢] وابن ماجة [٣] نحوه .

وقال البخارىّ [٤] : قال ابن عباس : كل ماشئت والبس ماشئت ماأخطأتك اثنتان :

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٨١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) الحديث رقم ٦٦٩٥ (طبعة المعارف) .

(٢) أخرجه النسائى فى : ٢٣ ـ كتاب الزكاة ، ٦٦ ـ باب الاختيال فى الصدقة .

(٣) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٢ ـ كتاب اللباس ، ٢٣ ـ باب البس ماشئت ، ماأخطأك سرف أو مخيلة ، حديث رقم ٣٦٠٥ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه البخارىّ فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس ، ١ ـ باب قول الله تعالى : قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ

سرف أو مخيلة . ورواه ابن جرير [١] عنه أيضاً بلفظ : أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سَرَفاً أو مخيلة . قال الشهاب : هذا (أي ما قاله ابن عباس) لا ينافى ما ذكره الثعالبيّ وغيره من الأدباء ؛ أنه ينبغى للإنسان أن يأكل مايشتهى ، ويلبس مايشتهيه الناس ، كماقيل:

نصيحــة نصيحة قالت بها الأكياسُ

كل ما اشتهيت والبسـ نَّ ما اشتهته الناسُ

فإنه لِترْك ما لم يعتد بين الناس ، وهذا لإباحة كل ما اعتادوه . و (المخيلة : الـكبر) . و (ما) دواميــة زمانية . و (أخطأتك) من قولهم : أخطأ فلان كذا ، إذا عدمه . وفى الأساس: من المجاز لن يخطئك ما كُتِب لك ، وأخطأ المطر الأرض : لم يصبها ، وتَخَاطَأَتْهُ النبلُ: تجاوزته وَتَخَطَّأَتْه . انتهى .

وفى قوله تعالى : (إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ) وعيد وتهديد لمن أسرف فى هذه الأشياء . لأن من لم يحبه الله لم يرض عنه .

السادس ــ تناقل المفسرون وغيرهم ماقيل إن قوله تعالى (وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ) الآية ــ جمعَ الطب كله . وأصله ما حكاه الزمخشريّ والـكرمانىّ فى عجائبه ؛ أن الرشيد كان له طبيب نصرانىّ حاذق ، فقال لعلى بن الحسين بن واقد : ليس فى كتابكم من علم الطب شيء والعـلم علمان : علم الأبدان ، وعلم الأديان . فقال له : قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابه . قال : وما هى ؟ قال : قوله تعالى (وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُواْ) ، فقال النصرانىّ : ولا يؤثر من رسولـكم شيء فى الطب ! فقال : قد جمع رسولنا ﷺ الطب فى ألفاظ يسيرة . قال : وماهى ؟ قال قوله [٢]: المعدة بيت الداء ، والحمية

(١) الأثر رقم ١٤٥٢٩ من التفسير .

(٢) قال فى كشف الخفاء ، رقم ٢٣٢٠ مايأتى :

قال فى (المقاصد) : لا يصح رفعه إلى النبي ﷺ . بل هو من كلام الحارث بن كلدة طبيب العرب ، أو غيره .

obeikandl.com

رأس الدواء ، وأعط كل بدن ما عودته . فقال النصرانىّ : ما ترك كتابكم ولا نبيّكم لجالينوس طبًّا .

قال فى (العناية) : وترك بعضهم تمام القصة ، لأن فى ثبوت هذا الحديث كلاماً للمحدثين. وفى شعب الإيمان للبيهقىّ عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المعدة حوض البدن ، والعروق إليها واردة ، فإذا صحت المعدة ، صدرت العروق بالصحة ، وإذا فسدت المعدة ، صدرت العروق بالسقم . ـ انتهى ـ .

أقول : إن صحت هذه الحكاية ، فصواب جواب النصرانىّ فى سؤاله الثانى بالتفنيد والفِرْية ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أُثر عنه من بدائع الطب وأصناف العلاج ما لم يؤثر عن نبىّ قط. وللمحدّثين، فى عهد السلف، منه قسم كبير فى جوامعهم ومسانيدهم . وأما أعلام المتأخرين فقد اضطرهم وفرة ما روى فى ذلك إلى تدوينه فى أسفار مطولة ومختصرة بعنوان (الطب النبوىّ) . وقد بيّن الإمام ابن القيّم : عليه الرحمة ، اشتمال التنزيل العزيز على أصول الطب ، والسنة المطهرة على بدائعه ، فى كتابه (زاد المعاد) ، بياناً يدهش الألباب ، وفوق كل ذى علم عليم . قال ، عليه الرضوان ، فى كتابه (زاد المعاد ، فى هدى خير العباد) :

فصل

قد أتينا على جمل من هديه ﷺ فى المغازى والسير والبعوث والسرايا والرسائل والكتب التى كتب بها إلى الملوك ونوابهم، ونحن نتبع ذلك بذكر فصول نافعة فى هديه فى الطب الذى تطبب به ، ووصفه لغيره، ونبين ما فيه من الحكمة التى يعجز أكثر عقول أكثر الأطباء عن الوصول إليها، وأن نسبة طبهم إليها كنسبة طب العجائز إلى طبهم، فنحن نقول وبالله المستعان:

المرض نوعان : مرض القلوب ، ومرض الأبدان . وهما مذكوران فى القرآن . ومرض

القلب نوعان : مرض شبهة وشك ، ومرض شهوة وغيّ ؛ وكلاهما فى القرآن . قال تعالى فى مرض الشبهة : فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا(١) ، وقال تعالى : وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا(٢) . وقال تعالى فى حق من دعي إلى تحكيم القرآن والسنة فأبى وأعرض : وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ * وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ * أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ، بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ(٣) . فهذا مرض الشبهات والشكوك .

وأما مرض الشهوات فقال تعالى: يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ، إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا(٤) . فهذا مرض شهوة الزنى ـ والله أعلم .

وأما مرض الأبدان فقال تعالى(٥) : لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ . وذكر مرض البدن فى الحج والصوم والوضوء لسرّ بديع ، يبين

---

(١) [٢ / البقرة / ١٠] . . . وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ .

(٢) [٧٤ / المدثر / ٣١] ونصها: وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ، كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ، وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ، وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ .

(٣) [٢٤ / النور / ٤٨ ـ ٥٠] .

(٤) [٣٣ / الأحزاب / ٣٢] .

(٥) [٢٤ / النور / ٦١] . . . وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ =

ذلك عظمة القرآن والاستغناء به ، لمن فهمه وعقله ، عن سواه . وذلك أن قواعد طب الأبدان ثلاثة : حفظ الصحة ؛ والحِمْية عن المؤذى ، واستفراغ الموادّ الفاسدة . فذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة فى هذه المواضع الثلاثة . فقال فى آية الصوم: فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ(١) . فأباح الفطر للمريض لعذر المرض ؛ والمسافر، طلباً لحفظ صحته وقوته ، لئلا يذهبها الصوم فى السفر، لاجتماع شدة الحركة وما يوجبه من التحليل وعدم الغذاء الذى يخلف ما تحلّل ، فتخور القوة وتضعف ، فأباح للمسافر الفطر حفظاً لصحته وقوته عما يضعفها. وقال فى آية الحج: فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ(٢) . فأباح للمريض ، ومن به أذى من رأسه ، من قمل أو

= أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ، لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ، فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ .

(١) [٢ / البقرة / ١٨٤] أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ، . . . وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ، فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ، وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ، إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ .

(٢) [٢ / البقرة / ١٩٦] ونصها : وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ، وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ، . . . ، فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ، فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ، تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ، ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ، وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ .

حكّة أو غيرهما ، أن يحلق رأسه فى الإحرام استفراغاً لمادة الأبخرة الرديئة التى أوجبت له الأذى فى رأسه باحتقانها تحت الشعر، وإذا حلق رأسه تفتحت المسامات فخرجت تلك الأبخرة منها . فهذا الاستفراغ يقاس عليه كل استفراغ يؤذى انحباسه. والأشياء التى يؤذى انحباسها ومدافعتها عشرة : الدم إذا هاج ، والمنىّ إذا سبغ ، والبول والغائط والريح والقىء والعطاس والنوم والجوع والعطش . وكل واحد من هذه العشرة يوجب حبسه داء من الأدواء بحبسه. وقد نبه سبحانه، باستفراغ أدناها وهو البخار المحتقن فى الرأس، على استفراغ ماهو أصعب منه ، كما هى طريقة القرآن؛ التنبيه بالأدنى على الأعلى .

وأما الحِمْية ، فقال فى آية الوضوء : وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا(١) .فأباح للمريض العدول عن الماء إلى التراب حِمية له أن يصيب جسده ما يؤذيه . وهذا تنبيه على الحمية عن كل مؤذٍ له، من داخل أو خارج. فقد أرشد سبحانه عباده إلى أصول الطب، ومجامع قواعده ونحن نذكر هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، ونبين أن هديه فيه أكمل هدى .

فأما طب القلوب ، فسلّم إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، ولاسبيل إلى حصوله إلا من جهتهم ، وعلى أيديهم . فإن صلاح القلوب أن تكون عارفة بربها وفاطرها، وبأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه ، وأن تكون مُؤْثِرة لمرضاته ولمحابّه ، متجنبة لمناهيه ومساخطه . ولا صحة لها ولا حياة لها البتة إلا بذلك ، ولا سبيل إلى تلقيه إلا من جهة الرسل . وما يظن من حصول صحة القلب بدون اتباعهم ، فغلط ممن يظن ذلك . وإنما ذلك حياة نفسه

---

(١) [٤ / النساء / ٤٣] يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِى سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُوا۟ ، . . . فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ، إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا .

البهيمية الشهوانية وصحتها وقوتها . وحياة قلبه وصحته وقوته عن ذلك بمعزل . ومن لم يميز بين هذا وبين هذا ، فليبك على حياة قلبه ، فإنه من الأموات . وعلى نوره ، فإنه منغمس فى بحار الظلمات ـ انتهى ـ :

وقد قرر رحمه الله هذا المقام بأسلوب آخر فى كتابه (طريق الهجرتين) نورده أيضاً لبداعة أسلوبه . قال عليه الرحمة :

ولما كان مرض البدن خلاف صحته وصلاحه ، وهو خروجه عن اعتداله الطبيعىّ بفساد يعرض له ، يفسد به إدراكه وحركته الطبيعية ، فإما أن يذهب إدراكه بالكلية كالعمى والصمم والشلل ، وإما أن ينقص إدراكه لضعف فى آلات الإدراك مع استقامة إدراكه ، وإما أن يدرك الأشياء على خلاف ماهى عليه ، كما يدرك الحلو مرّاً ، والخبيث طيباً ، والطيّب خبيثاً . وأما فساد حركته الطبيعية ، فمثل أن تضعف قوته الهاضمة أو الماسكة أو الدافعة أو الجاذبة . فيحصل له من الألم بحسب خروجه عن الاعتدال ، ولكن مع ذلك لم يصل إلى حدّ الموت والهلاك ، بل فيه نوع قوة على الإدراك والحركة ؛ وسبب هذا الخروج عن الاعتدال ، إما فساد فى الكمية أو فى الكيفية فالأول إما نقص فى المادة فيحتاج إلى زيادتها ، وإما زيادة فيها فيحتاج إلى نقصانها . والثانى إما بزيادة الحرارة أو البرودة أو الرطوبة أو اليبوسة أو نقصانها عن القدر الطبيعىّ ، فيداوى بمقتضى ذلك . ومدار الصحة على حفظ القوة والحمية عن المؤذى ، واستفراغ الموادّ الفاسدة . ونظرُ الطبيب دائر على هذه الأصول الثلاثة . وقد تضمنها الكتاب العزيز ، وأرشد إليها من أنزله شفاء ورحمة . فأما حفظ القوة فإنه سبحانه أمر المسافر والمريض أن يفطرا فى رمضان ، ويقضى المسافر إذا قدم ، والمريض إذا برأ ، حفظاً لقوتهما عليهما . فإن الصوم يزيد المريض ضعفا ، والمسافر محتاج إلى توفير قوته عليه لمشقة السفر ، فالصوم يضعفها . فأما الحمية عن المؤذى ، فإنه سبحانه حمى المريض عن استعمال الماء البارد فى الوضوء والغسل إذا كان يضره ، وأمره بالعدول إلى التيمم ، حمية له

عن ورود المؤذِى عليه من ظاهر بدنه ، فكيف بالمؤذِى له فى باطنه ؟ وأما استفراغ المادة الفاسدة ، فإنه سبحانه أباح للمُحْرِم الذى به أذى من رأسه أن يحلقه ، فيستفرغ الحلق الأبخرة المؤذية له ، وهذا من أسهل أنواع الاستفراغ وأخفّها ، فنبّه به على ما هو أحوج إليه منه .

وذاكرت مرة بعض رؤساء الطب بمصر بهذا فقال : والله ! لو سافرت إلى الغرب فى معرفة هذه الفائدة ، لكان سفرًا قليلًا ـ أو كما قال ـ انتهى .

ثم ردّ تعالى على من حرّم شيئاً من المآكل والمشارب والملابس ، من تلقاء نفسه من غير شرع من الله ، تأكيداً لما سبق ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٢] (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ)

« قُلْ » أى لهؤلاء المشركين الذين يحرّمون ما يحرمون بآرائهم الفاسدة وابتداعهم « مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ » أى من الثياب وسائر ما يتجمّل به « ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ » من النبات كالقطن والكتان ، والحيوان كالحرير والصوف ، والمعادن كالدروع . هكذا عمم المفسرون هنا . ووجهه أن تخصيصه يغنى عنه ما مرّ « وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ » أى المستلذات من المآكل والمشارب .

قال المهايمىّ : يعنى إن زعموا أن التزين والتلذذ ينافيان التذلل الذى هو العبادة ، فيحرمان معها ، فأعلمهم أنه قد أخرجها لعباده الذين خلقهم لعبادته ليتزينوا بها حال العبادة، فعل عبيد الملوك إذا حضروا خدمتهم ، ولا ينافى ذلك تذللهم لهم ، وكذلك الطيبات التى خلقها لتطييب قلوب عباده ليشكروه ، والشكر عبادة ، فلا ينافى التلذذُ العبادة ، بل قد يكون داعية إليها . انتهى .

تنبيهات

الأول ـ فسرت (الطيبات) بـ (الحلال ، وفسرت بـ (اللحم والدسم) الذى كانوا يحرمونه أيام الحج كما تقدم ، وفسرت بـ (البحائر والسوائب) كما قال تعالى[١] : قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا . وظاهر أن لفظ الآية أعم من ذلك ، وإن كان يدخل فيه ما ذكر دخولاً أولياً ، لأنها إنما وردت نعياً عليهم فيه ، والعبرة بعموم اللفظ .

قال الرازى : لفظ (الزينة) يتناول جميع أنواع التزين ، ومنه تنظيف البدن ، ومنه المركوب ، ومنه أنواع الحلى (يعنى للنساء) . ثم قال : ويدخل تحت (الطيبات) كل ما يستلذ ويشتهى من أنواع المأكولات والمشروبات ، ويدخل تحته التمتع بالنساء والطيب . وقد رد النبيّ صلى الله عليه وسلم[٢] على عثمان بن مظعون ، ماهم به من الاختصاء والتبتل .

الثانى ـ دلت الآية على أن الأصل فى المطاعم والملابس وأنواع التجملات الإباحة ، لأن الاستفهام فى (مَنْ) لإنكار تحريمها على وجه بليغ ؛ لأن إنكار الفاعل يوجب إنكار الفعل لعدمه بدونه .

الثالث ـ فى الآية رد على من تورّع من أكل المستلذات ولبس الملابس الرقيقة ، لأنه لا زهد فى ترك الطيب منها ، ولهذا جاءت الآية معنونة بالاستفهام المتضمن للإنكار على من حرم ذلك على نفسه ، أو حرّمه على غيره . وما أحسن ماقال ابن جرير الطبرىّ : لقد أخطأ

---

(١) [١٠ / يونس / ٥٩] . . . قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ .

(٢) جاء فى طبقات ابن سعد (ج ٣ ص ٣٩٤ ، طبعة بيروت) قال : أخبرنا سليمان ابن داود الطيالسىّ قال : أخبرنا إبراهيم بن سعد عن الزهرىّ ، عن سعيد بن المسيّب ، عن سعد بن أبى وقاص قال : لقد ردَّ رسول الله ﷺ ، على عثمان بن مظعون ، التبتّلَ . ولو أذن له فى ذلك ، لاختصى .

من آثر لباس الشعر والصوف، على لباس القطن والكتان ، مع وجود السبيل إليه من حلّه، ومَنْ أكل البقول والعدس ، واختاره على خبز البُرّ ، ومن ترك أكل اللحم خوفاً من عارض الشهوة ـ انتهى ـ .

الرابع ـ قال ابن الفرس : واستدل بالآية من أجاز لبس الحرير والخزّ للرجال . وقد أخرج ابن أبي حاتم عن سنان بن سلمة أنه كان يلبس الخزّ ، فقال له الناس : مثلك يلبس هذا ؟ فقال لهم : من ذا الذي يحرم زينة الله التي أخرج لعباده ؟ ولكن أخرج عن طاووس أنه قرأ هذه الآية وقال : لم يأمرهم بالحرير ولا بالديباج، ولكنه كانوا إذا طاف أحدهم وعليه ثيابه ضرب وانتزعت عنه . كذا في (الإكليل) .

أقول : عدم شمول الآية للحرير غنيّ عن البيان ، لأن ما خصه الدليل لا يتناوله العامّ . والأحاديث في تحريم الحرير لا تحصى كثرةً ، فاستنباط حلّه منها مردود على زاعمه .

« قُلْ هِيَ » أي زينة الله والطيبات ، مخلوقة « لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا » بالأصالة ، والكفرةُ وإن شاركوهم فيها فتبع « خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ » أي : لا يشاركهم فيها غيرهم؛ لأن الله حرم الجنة على الكافرين . وانتصابها على الحالية . وقرئ بالرفع ، أي على أنه خبر بعد خبر .

لطيفة :

قال المهايمي : إنما خلقت للمؤمنين ليعلموا بها لذّات الآخرة ، فيرغبوا فيها مزيد رغبة ، لكن شاركهم الكفرة فيها لئلا يكون هذا الفرق ملجئاً لهم إلى الإيمان . فإذا ذهب هذا المعنى ، تصير خالصة لهم يوم القيامة ، فلو حرمت على المؤمنين لكانت مخلوقة للكافرين، وهو خلاف مقتضى الحكمة . وإن خلقت للمؤمنين فأولى أوقات الانتفاع بها وقت جريانهم على مقتضى الإيمان ، وهو العبادة والتقوى ، ولكن من غير انهماك في الشهوات .

« كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » أي الحكمةَ في خلق الأشياء ، واستعمال

الأشياء على نهج ينفع ولا يضر . فإن زعموا أنه يُخاف من التزين والتلذذ الوقوع فى الكبر ، والانهماك فى الشهوات ، فيحرمان على أهل العبادة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٣] (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« قُلْ » إنهما من المنافع الخالصة فى أنفسهما . والإفضاء احتمال غير محقق . فإذا أفضى، فالحرام هو المفضَى إليه بالذات لأنه « إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَاحِشَ » أى : ما تفاحش قبحه من الذنوب ، أى تزايد (وهى الكبائر) وهى مايتعلق بالفروج « مَاظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ » أى : ما جاهر به بعضهم بعضاً ، وما ستره بعضهم عن بعض ، وما ظهر من أفعال الجوارح ، وما بطن من أفعال القلوب « وَٱلْإِثْمَ » أى : ما يوجب الإثم ، وهو عامّ لكل ذنب ، وذكره للتعميم بعد التخصيص . ويقال : إن الإثم هو الخمر ، قال الشاعر[(١)] :

نهانا رسول الله أن نقربَ الزنى وأن نشرب الإثم الذى يُوجب الوِزْرَا

وأنشد الأخفش[(٢)] :

شربتُ الإثم حتى ضلَّ عقلى كذاك الإثم تذهبُ بالعقولِ

وهو منقول عن ابن عباس والحسن. وذكره أهل اللغة كالأصمعىّ وغيره . قال الحسن: ويصدقه قوله تعالى : قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ[(٣)] . وقال ابن الأنبارىّ : لم تسمّ العرب الخمر

---

(١) لم أقف على هذا البيت فى محل ما ، ولم أعرف اسم هذا الشاعر .

(٢) استشهد به فى اللسان ، مادة (ا ث م) بالصفحة رقم ٦ من المجلد الثانى عشر (طبعة بيروت) .

(٣) [٢/ البقرة/ ٢١٩] ونصها : يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ، قُلْ فِيهِمَآ =

إثماً فى جاهلية ولا إسلام ، والشعر المذكور موضوع . وردَّ بأنه مجاز ، لأنه سببه . وقال أبو حيان : هذا التفسير غير صحيح هنا ، لأن السورة مكية ، ولم تحرم الخمر إلا بالمدينة بعد أُحُد ، وقد سبقه إلى هذا غيره . وأيضاً ، الحصر يحتاج إلى دليل . كذا فى (العناية) « وَٱلْبَغْىَ » أى : الاستطالة على الناس وظلمهم . إنما أفرده بالذكر ، مع دخوله فيما قبله ، للمبالغة فى الزجر عنه . وذلك لأن تخصيصه بالذكر يقتضى أنه تميَّز من بينها حتى عدّ نوعاً مستقلًّا « بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » متعلق بـ (البغى) ، مؤكد له معنى . وقيل : البغى قد يخرج عن كونه ظلماً إذا كان بسبب جائز فى الشرع ، كالقصاص ، إلا أن مثله لا يسمى بغياً حقيقة ، بل مشاكلة « وَ » قد حرّم « أَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا » أى: برهاناً أى: ما لم يقم عليه حجة . قال الزمخشرىّ : فيه تهكم ، لأنه لا يجوز أن ينزل برهاناً بأن يشرك به غيره . وفى (العناية) : إنما جاء التهكم من حيث أنه يوهم أنه لو كان عليه سلطان لم يكن محرّماً ، دلالة على تقليدهم فى الغىّ . والمعنى على نفى الإنزال والسلطان معاً على الوجه الأبلغ ـ انتهى ـ قال الرازىّ : وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن القول بالتقليد باطل . وتبعه القاضى فقال : فى الآية تنبيه على تحريم اتباع ما لم يدل عليه برهان « وَ » قد حرّم عليكم « أَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : تتقوّلوا عليه ، وتفتروا الكذب فى التحليل والتحريم ، أو فى الشرك .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على تحريم جميع الذنوب ، لأن قوله (ٱلْفَوَٰحِشَ وَٱلْإِثْمَ) يشتمل على الصغير والكبير ، والأفعال القبيحة ، والعقود المخالفة للشرع ، والأقاويل الفاسدة ، والاعتقادات الباطلة . ودخل فى قوله (مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ) أفعال الجوارح ، وأفعال القلوب

= إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ، وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ، كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ .

والخيانات ، والمكر ، والخديعة . ودخل تحت قوله (وَٱلْبَغْىَ) كل ظلم يتعدى على الغير ، فيدخل فيه ما يفعله البغاة والخوارج ، والأمراء إذا انتصروا بغير حق . ودخل تحت قوله (وَأَن تُشْرِكُواْ) تحريم كل شرك وعبادة لغير الله . ودخل تحت قوله (وَأَن تَقُولُواْ) كل بدعة وضلالة وفتوى بغير حق ، وشهادة زور ونحوه . فالآية جامعة فى المحرمات ، كما أن ما قبلها جامعة فى المباحات . وفيه تعليم للآداب، ديناً ودنيا ، وتدل على بطلان التقليد، لأنه أوجب اتباع الحجة ، لقوله (مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا) ، والسلطان الحجة . وتدل على أن لكل أحد وقت حياة ، ووقت موت ، لايجوز فيه التقديم والتأخير ، فيبطل قول من يقول : المقتول مات قبل أجله. انتهى .

ثم أوعد تعالى أهل مكة بالعذاب النازل فى أجل معلوم عنده سبحانه ، كما نزل بالأمم ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٤] (وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ)

« وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ » أى : مدة أو وقت لنزول العذاب بهم « فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ » أى : ميقاتهم المقدر لهم « لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » أى : لايتركون بعد الأجل شيئاً قليلًا من الزمان ، ولا يهلكون قبله كذلك . والساعة مثل فى غاية القلة من الزمان .

لطائف

١ ــ وقع هذا التركيب فى موضع من التنزيل ، وفيه بحث مشهور : وهو أنه لما كان الظاهر عطف (لا يستقدمون) على (لا يستأخرون) كما أعربه الحوفىّ وغيره ، أُورِدَ عليه أنه فاسد ، لأن (إذا) إنما يترتب عليها الأمور المستقبلة لا الماضية، والاستقدام حينئذ بالنسبة إلى مَحِلّ الأجل متقدم عليه ، فكيف يترتب عليه ما تقدمه ؟ ويصير باب الإخبار

بالضروريّ الذى لافائدة فيــه ، كقولك : إذا قمت فيما يأتى ، لم يتقدم قيامك فيما مضى . وأجيب بأن المراد بالمجىء الدنوّ ، بحيث يمكن التقــدم فى الجملة ، كمجىء اليوم الذى ضرب لهلاكهم ساعة فيه . وقيل : إن جملة (لَا يَسْتَقْدِمُونَ) مستأنفة . وقيل : إنها معطوفة على الشرط وجوابه ، أو على القيد والمقيّد. أو أن مجموع (لايستأخرون ولايستقدمون) كناية عن أنهم لايستطيعون تغييره . والتحقيق أنه عطف على (يَسْتَأْخِرُونَ) لـكن لا لبيان انتفاء التقدم، مع إمكانه فى نفسه كالتأخر ، كما يتوهم ، بل للمبالغة فى انتفاء التأخر . يعنى أن التأخر مساوٍ للتقدم فى الاستحالة، ولذا نظمه معه فى سلك، كما فى قوله سبحانه(١): (وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ) فإن من مات كافراً مع ظهور أن لاتوبة له رأساً ، قد نظم فى عدم القبول، فى سلك من سوّفها إلى حضور الموت. إيذاناً بتساوى وجود التوبة حينئذ وعدمها بالمرة.

٢ ـ تقديم بيان انتفاء الاستئخار ، لما أن المقصود بالذات بيان عدم خلاصهم من العذاب. وأما (ما) فى قوله تعالى : (مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ)(٢) من سبق (السبق) فى الذكر ؛ فلما أن المراد هناك بيان سر تأخــير إهلاكهم مع استحقاقهم له ، حسبما ينبئ عنه قوله تعــالى : (ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ، فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ)(٣) . فالأهم هناك بيان انتفاء السبق .

٣ ـ صيغة الاستفعال للإشعار بعجزهم وحرمانهم عن ذلك، مع طلبهم له، أفاده أبو السعود.

ثم أنذر تعالى بنى آدم بأنه سيبعث إليهم رسلاً يهدونهم ، وبشّر وأنذر بقوله سبحانه:

---

(١) [٤ / النساء / ١٨] . . . أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا .

(٢) [١٥ / الحجر / ٥] .

و [٢٣ / المؤمنون / ٤٣] .

(٣) [١٥ / الحجر / ٣] .

obeikandi.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٥] (يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)

« يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى » شرط ذكره بحرف الشك ، للتنبيه على أن إتيان الرسل أمر جائز غير واجب . وضمت إليها (ما) لتأكيد معنى الشرط ، ولذلك أكد فعلها بالنون الثقيلة أو الخفيفة . والمراد ببنى آدم جميع الأمم ، وهو حكاية لما وقع مع كل قوم . وليس المراد بالرسل نبينا ﷺ وببنى آدم أمته، كما قيل، فإنه خلاف الظاهر ـ كذا فى (القاضى وحواشيه) ـ وجواب الشرط قوله تعالى «فَمَنِ ٱتَّقَىٰ» أى التكذيب « وَأَصْلَحَ » أى عمله « فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ »من العذاب «وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» فى الآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٦] (وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ)

« وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ » أى تكبروا « عَنْهَآ » فلم يؤمنوا بها أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ » :

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على وجوب اتباع الرسل ، وقبول ما يؤدّون . وتدل على أن الصلاح فى الرسل أن تكون من جملة من بعث إليهم ، لأنهم يكونون بطريقته أعرف، ومن النفار عنه أبعد ، وإلى السكون إليه أقرب. وتدل على أن الغرض بالرسول مايؤدى من الأدلة، فلذلك قلنا لا يجوز أن يكون رسولًا إلا ومعه ما يؤديه : وتدل على أن الجنة تنال بشيئين :

بالأعمال الصالحة ، واتقاء المعاصى ، فبطل قول المرجئة . وتدل على أن المؤمن فى الآخرة لا يخاف ولا يحزن، خلاف ما يقوله الأحسد به (كذا) والحشوية ـ هكذا قاله أكثر أصحابنا ـ.

وقال أبو بكر أحمد بن عليّ : قوله (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ) كقول الطبيب للمريض (لا بأس عليك) يعنى أن أمره يؤول إلى العافية . وليس هذا بالوجه لأنه نفى الخوف والحزن مطلقاً . وتدل على الوعيد للمكذبين ، كما تدل على الوعد للمطيعين ، ترغيباً وترهيباً . وتدل على أن التقوى والصلاح والتكذيب فعل العبد ، فبطل قولهم فى المخلوق والاستطاعة . انتهى كلامه رحمه الله .

ثم ذكر تعالى وعيد المكذبين الذين تقدم ذكرهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٧] (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ۚ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ)

« فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ » أى ممن تقوّل على الله كذباً بالتحليل والتحريم ، أو بنسبة الولد والشريك ، أو كذب بآياته المنزلة « أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ » أى يصيبهم حظهم مما كتب لهم من الرزق والعمر وغير ذلك . أى مع ظلمهم وافترائهم وتكذيبهم ، لا يُحْرَمون ما قدر لهم من العمر والرزق إلى انقضاء آجالهم. وفى الآية وجوه أخر ، هذا أظهرها وأقواها فى المعنى ، وتتمة الآية تدل عليه ، وحينئذ تتلاقى مع نظائرها ، كقوله تعالى : قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ(١) .

---

(١) [١٠ / يونس / ٦٩ و ٧٠] .

وقوله تعالى : وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ ، إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ * نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا . . .(١) الآية ـ « حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ » أى : ملائكة الموت تقبض أرواحهم « قَالُوٓاْ أَيْنَمَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى: أين الآلهة التى كنتم تعبدونها ليكونوا لكم شفعاء، فلا نراهم يخلّصونكم مما تحقق عليكم من هذه الشدائد . وفائدة السؤال وجهان : توبيخ وتبكيت لهم يزيدهم غمًّا إلى غم ، ولطف بالمكلف لأنه إذا تصور ذلك صرفه عن التكذيب . و (ما) وقعت موصولة بـ (أين) فى خط المصحف العثمانى، ومقتضى الاصطلاح الفصل لأنها موصولة « قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا » أى: غابوا عنا فلم يخلّصونا من شىء « وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ » أى : عابدين لما لا يستحق العبادة . اعترفوا بأنهم لم يكونوا على شىء فيما كانوا عليه ، وأنهم لم يحمدوه فى العاقبة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٨] (قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ، كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ، حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ، قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ)

« قَالَ » أى الله ، سبحانه، لهم فى الآخرة « ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ » أى فى جملة أمم قد مضت « مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ » يعنى كفار الأمم الماضية من النوعين « فِى ٱلنَّارِ » متعلق بـ (ادخلوا) « كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ » أى فى النار « لَّعَنَتْ أُخْتَهَا » أى التى

---

(١) [٣١ / لقمان / ٢٣و٢٤] . . . ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ .

قبلها لضلالها بها، كما قال الخليل عليه الصلاة والسلام(١) : ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ ... الآية ـ « إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعاً » أى تداركوا، بمعنى تلاحقوا واجتمعوا فى النار « قَالَتْ أُخْرَاهُمْ » وهم الأتباع « لِأُولَاهُمْ » أى : لأجل أولاهم، إذ الخطاب مع الله سبحانه ، لا معهم . قال ابن كثير : أى قالت أخراهم دخولاً وهم الأتباع ، لأولاهم وهم المتبعون، لأنهم أشد جرماً من أتباعهم، فدخلوا قبلهم، فيشكوهم الأتباع إلى الله يوم القيامة، لأنهم هم الذين أضلوهم عن سواء السبيل، فيقولون: « رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا » أى سنّوا لنا الضلال ، ودعوا إليه ، فاقتدينا بهم « فَـَٔاتِهِمْ عَذَاباً ضِعْفاً مِّنَ ٱلنَّارِ » أى مضاعفاً لأنهم ضلوا وأضلوا « قَالَ » أى تعالى « لِكُلٍّ ضِعْفٌ » أى عذاب مضاعف. أما القادة والرؤساء فبالضلال والإضلال . وأما الأتباع والسفلة ، فبالضلال وتقليد أهل الضلال ، مع وجود الهادين بالبراهين القاطعة « وَلَـٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ » أى ما لكم ، أو ما لكل فرقة . وقرئ بالياء . وعليها ، فهو تذييل لم يقصد إدراجه فى الجواب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٣٩] (وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ)

« وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ » أى لا فضل لكم علينا فى ترك الكفر والضلال حتى يكون عذابنا مضاعفاً دونكم ، فقد ضللتم كما ضللنا ، فنحن وإياكم متساوون فى الضلال واستحقاق العذاب. وقوله تعالى: « فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ » من قول القادة ، أو من قول الله تعالى للفريقين ، وهو أظهر .

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٢٥] ونصها : وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰناً مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا، ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ .

تنبيه :

قال الجشميّ : تدل الآية على أن الكفار والضلال والمبتدعة ، وإن تناصروا وتعاونوا على ضلالتهم ، وتوادّوا فى الدنيا ، فإنهم فى الآخرة يتلاعنون ويتقاطعون ويسألون العذاب لمن أضلهم . وتدل على فساد التقليد ، والاغترار بقول علماء السوء . وتدل على أن الداعى إلى الضلال مضلّ . وتدل على أن إضلال غيره إياه ليس بعذر له . وتدل على أن اشتراكهم فى العذاب لا يوجب لهم راحة ، بخلاف الاشتراك فى محن الدنيا . وتدل على أن ذلك الإضلال فعلهم ، فيبطل قول المجبرة فى المخلوق ، والهدى والضلال .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٠] (إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ، وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ » أى لا تفتح لأعمالهم ، ولا لدعائهم ، ولا لشىء مما يريدون به طاعة الله . أى لا يقبل ذلك منهم ، لأنه ليس صالحاً ولا طيّباً . وقد قال سبحانه : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ ، وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ)(١) قال ابن عباس : أى لا يرفع لهم منها عمل صالح ، ولا دعاء ـ رواه جماعة عنه . وقاله مجاهد وابن جبير . أو المعنى : لا تنزل عليهم البركة والرحمة ، ولا يغاثون ، لأنه أجرى العادة بإنزال الرحمة من السماء ، كما فى قوله : (فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ)(٢)

(١) [٣٥ / فاطر / ١٠] مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعاً . . . وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُوْلَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ .

(٢) [٥٤ / القمر / ١١] .

أو المعنى : لا يؤذن لهم فى صعود السماء ولا يطرق لهم إليها ليدخلوا الجنة ، على ماروى أن الجنة فى السماء . أو المعنى لا تفتح لأرواحهم، إذا ماتوا ، أبواب السماء ، كما تفتح لأرواح المؤمنين ـ رواه الضحاك عن ابن عباس ـ ورواه ابن جرير[١] عن البراء ؛ أن رسول الله ﷺ ذكر قبض روح الفاجر ، وأنه يصعد بها إلى السماء ، فيصعدون بها ، فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ماهـذا الروح الخبيث ؟ فيقولون فلان ! (بأقبح أسمائه التى كان يدعى بها فى الدنيا) حتى ينتهوا بها إلى السماء ، فيستفتحون له ، فلا يفتح له . ثم قرأ رسول الله ﷺ (لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ ٱلسَّمَآءِ . . .) الآية ـ قال ابن كثير : هكذا رواه . وهو قطعة من حديث طويل ، رواه الإمام أحمد[٢] مطولا وأبو داود والنسائىّ وابن ماجة من طرق .

(١) الأثر رقم ١٤٦١٤ من التفسير .

(٢) هأنذا أثبت هذا الحديث مطوّلا . فقد رواه فى المسند بالصفحتين ٢٨٧ و ٢٨٨ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) ونصه :

عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع النبىّ ﷺ فى جنازة رجل من الأنصار . فانتهينا إلى القبر ولمّا يلحد. فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن على رءوسنا الطير . وفى يده عود ينكت فى الأرض فرفع رأسه فقال « استعيذوا بالله من عذاب القبر » مرتين أو ثلاثا ثم قال « إن العبد المؤمن إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس . معهم كفن من أكفان الجنة ، وحنوط من حنوط الجنة ، حتى يجلسوا منه مدّ البصر . ثم يجىء ملك الموت ، عليه السلام ، حتى يجلس عند رأسه . فيقول : أيتها النفس الطيبة ! اخرجى إلى مغفرة من الله ورضوان . قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فى السقاء فيأخذها . فإذا أخذها ، لم يَدَعُوها فى يده طرفة عين حتى يأخذوها . فيجعلوها فى ذلك الكفن وفى ذلك الحنوط . ويخرج منها كأطيب =

تنبيهات :

الأول ـ قال الشهاب كون السماء لها أبواب ، وأنها تفتح للدعاء الصالح ، وللأعمال الصاعدة أو للأرواح ـ وارد فى النصوص القرآنية ، والأحاديث النبوية ، فلا حاجة إلى تأويل . انتهى .

= نفحة مسك وجدت على الأرض . قال فيصعدون بها . فلا يمرون (يعنى بها) على ملائكة من الملائكة إلا قالوا : ما هـذا الروح الطيب ؟ فيقولون : فلان بن فلان (بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا) حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا . فيستفتحون له فيفتح لهم . فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التى تليها، حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة . فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتاب عبدى فى علّيين ، وأعيدوه إلى الأرض . فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى .

قال فتعاد روحه فى جسده فيأتيه مَلَكان فيُجلسانه فيقولان له : من ربك ؟ فيقول : ربى الله . فيقولان له : ما دينك ؟ فيقول : دينى الإسلام . فيقولان له : ما هذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هو رسول الله ﷺ . فيقولان له : وما علمك ؟ فيقول : قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت .

فينادى مناد من السماء : أن صدق عبدى . فافرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة .

قال فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له فى قبره مدّ بصره .

قال ويأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول أبشر بالذى يسرك هذا يومك الذى كنت توعده . فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجىء بالخير . فيقول: أنا عملك الصالح . فيقول : رب ! أقم الساعةَ حتى أرجع إلى أهلى ومالى .

قال ، وإن العبد الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة ، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه ، معهم المسوح . فيجلسون منه مدّ البصر . ثم يجىء =

وهذا على قاعدة أهل الظاهر فى مثل ذلك ، إلا أن الإطلاق لا ينحصر فى الحقيقة . والتنزيل الكريم ، إنما ورد على مناحٍ للعرب معروفة فى لسانهم ـ والله أعلم.

= مَلَكُ الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة ! اخرجى إلى سخط من الله وغضب .

قال فتفرق فى جسده . فينتزعها كما ينتزع السّفود من الصوف المبلول . فيأخذها . فإذا أخذها لم يدَعُوها فى يده طرفة عين حتى يجعلوها فى تلك المسوح . ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض . فيصعدون بها . فلا يمرون بها على ملأٍ من الملائكة إلا قالوا : ماهذا الروح الخبيث ؟ فيقولون : فلان بن فلان (بأقبح أسمائه التى كان يسمى بها فى الدنيا) حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا . فيستفتح له فلا يفتح له » .

ثم قرأ رسول الله ﷺ «لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِى سَمِّ الْخِيَاطِ . » فيقول الله عزوجل : اكتبوا كتابه فى سجّين ، فى الأرض السفلى . فتطرح روحه طرحا .

ثم قرأ : وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ الرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ . « فتعاد روحه فى جسده . ويأتيه ملكان فيجلسانه ويقولان له: من ربك ؟ فيقول : هاهاه . لا أدرى . فيقولان له مادينك ؟ فيقول : هاهاه . لا أدرى . فيقولان له : ماهذا الرجل الذى بعث فيكم ؟ فيقول : هاه هاه . لا أدرى . فينادى منادٍ من السماء : أن كذب . فافرشوا له من النار . وافتحوا له باباً إلى النار . فيأتيه من حرّها وسمومها . ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه . ويأتيه رجل قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذى يسوءك . هذا يومك الذى كنتَ توعد . فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه يجىء بالشر . فيقول : أنا عملك الخبيث . فيقول : رب ! لا تُقم الساعةَ ».

وأخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السّنة ، ٢٤ ـ باب فى المسألة فى القبر وعذاب القبر، حديث ٤٧٥٣ .

الثانى ـ التضعيف فى (تفتح) لتكثير المفعول ، لا الفعل لعدم مناسبة المقام .

الثالث ـ قرئ بالتخفيف فى (تفتح) وبالتخفيف ، والياء . وقرىء على البناء للفاعل ، ونصب الأبواب ، على أن الفعل للآيات مجازاً ، وبالياء على أنه لله تعالى .

« وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ » أى يدخل « ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ » أى ثقب الإبرة ، وهو غير ممكن ، فكذا دخولهم .

لطائف

الأولى ـ قرأ الجمهور (الجمل) بفتح الجيم والميم ، وفسروه : بأنه الجمل المعروف وهو البعير قال الفراء : الجمل زوج الناقة . وقال شمر : البكر والبكرة بمنزلة الغلام والجارية ، والجمل والناقة بمنزلة الرجل والمرأة . وقرئ فى الشواذ (الجُمَّل) كسكَّر وصُرَد وقُفْل وعُنُق وجَبْل بمعنى حبل السفينة الغليظ الذى يقال له (القَلْس) .

وقال أبو البقاء : يقرأ فى الشاذ بسكون الميم ، والأحسن أن يكون لغة ، لأن تخفيف المفتوح ضعيف ؛ ويقرأ بضم الجيم وفتح الميم وتشديدها ، وهو الحبل الغليظ ، وهو جمع مثل صُوَّم وقُوَّم ؛ ويقرأ بضم الجيم والميم مع التخفيف وهو جمع مثل أَسَد وأُسُد ؛ ويقرأ كذلك إلا أن الميم ساكنة ، وذلك على تخفيف المضموم ـ انتهى ـ .

وذكر الكواشىّ أن القراءات المذكورة كلها لغات فى البعير ما عدا « جُمَّلًا » كسكّر وقفل ، ونوقش فى ذلك ـ انتهى ـ .

وقراءته (كسكّر) على معنى الحبل المذكور ، رواها مجاهد وعكرمة عن ابن عباس ، واختارها سعيد بن جبير .

قال الزمخشرىّ : وعن ابن عباس رضى الله عنه ، أن الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجمل ، أن الحبل مناسب للخيط الذى يسلك فى سم الإبرة ، والبعير لا يناسبه . إلا أن قراءة العامة أوقع ، لأن سمّ الإبرة مثل فى ضيق المسلك ، يقال : أضيق من خَرْتِ الإبرة.

obeikandl.com

وقالوا للدليل الماهر (خِرِّيت) للابتداء به فى المضايق المشبهة بأَخْرات الإبر ؛ والجملُ مثل فى عظم الجرم ، قال [١] :

* جسم الجمال وأحلام العصافير *

إن الرجال ليسوا بجزَرَ تراد منهم الأجسام ، فقيـــل : لا يدخلون الجنة حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان ، الذى لا يلج إلا فى باب واسع ، فى ثقب الإبرة .

وعن ابن مسعود : أنه سئل عن الجمل؟ فقال : زوج الناقة، استجهالًا للسائل ، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تـكلّفٌ ـ انتهى ـ .

وحاصله أن الجمل لما كان مثلًا فى عظم الجسم ، لأنه أكبر الحيوانات جسما عند العرب، وخرق الإبرة مثلًا فى الضيق ، ظهر التناسب . على أن فى إيثار الجمل ، وهو مما ليس من شأنه الولوج فى سم الإبرة ، مبالغة فى استبعاد دخولهم الجنة .

الثانية ـ (السَّم) : الثقب الضيق . قال أبو البقاء : بفتح السين وضمها، لغتان ـ انتهى وصرح بالتثليث فيه ، وفى القاتل المعروف ، صاحبُ القاموس وغيره ، إلا أنهم قالوا : المشهور فى الثقب الفتح كما فى التنزيل . والأفصح فى القاتل الضم .

---

(١) صدر البيت :

* لا بَأْسَ بالقوم من طُولٍ ومن عِظَم *

وقائله حسان بن ثابت الأنصارىّ ، ورواية العجز فى الديوان :

* جسمُ البغالِ وأحلامُ العَصَافِيرِ *

قاله من قصيدة يهجو بها النجاشى الشاعرَ ومطلعها :

حارِ بنَ كعب ألَا الأحلام تزجُرُكُمْ عنـــا وأنتم من الجُوفِ الجَمَاخِيرِ

قوله : تزجركم عنا ، أى عن هجائنا . والجوف ، جمع أجوف ، وهو واسع الجوف . والجماهير جمع جمخور ، وهو الواسع الجوف أيضاً . والمراد الضعفاء المستريحون .

قال العلامة الفاسيّ : قال الزبيديّ : لم أر من تعرض لكسرها ، وكأنها عامية .

قلت : قال الزمخشريّ : وقرئ (فِي سَمِّ ٱلْخِيَاطِ) بالحركات الثلاث ، وكفى به مرجعاً.

الثالثة ـ (الخياط) ككتاب ومنبر ، ماخيط به الثوب ، والإبرة ـ كذا في القاموس ـ قال الزمخشريّ : وقرأ عبد الله (في سم المخيط) . قال الشهاب : بكسر الميم وفتحها ، كما ذكره المُعْرِب ، وهي قراءة شاذة .

الرابعة ـ قال السيوطيّ في (الإكليل): في قوله تعالى (حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ ... الخ) جواز فرض المحال ، والتعليق عليه كما يقع كثيراً للفقهاء ـ انتهى ـ .

والتعليق على المحال معروف في كلام العرب ، كقوله :

إذا شابَ الغرابُ أتيتُ أهلي ... وصار القارُ كاللَّبَنِ الحليبِ

وقوله تعالى « وَكَذَٰلِكَ » أي مثل ذلك الجزاء الفظيع « نَجْزِي ٱلْمُجْرِمِينَ » .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٤١] (لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ)

« لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ » أي : فرش من تحتهم « وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ » أي أغطية ، إذ أحاطت بهم الخطيئة « وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلظَّٰلِمِينَ » أي بالكفر ، وإنما عبر عنهم بالمجرمين تارة ، وبالظالمين أخرى ، إشعاراً بأنهم بتكذيبهم الآيات ، اتصفوا بكل واحد من ذينك الوصفين القبيحين . وذكر الجرم مع الحرمان من دخول الجنة ، والظلم مع التعذيب بالنار الذي هو أشد من الحرمان المذكور ـ تنبيهاً على أنه أعظم الجرائم .

ثم تأثر تعالى وعيده بوعده ، على سنته في تنزيله الكريم ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٢] (وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ)

« وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » قال أبوالبقاء : والذين آمنوا مبتدأ، وفى الخبر وجهان : أحدهما ـ (لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا) ، والتقدير (منهم) ، فحذف العائد ، كما حذف فى قوله : وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ [(١)] .

والثانى ـ أن الخبر (أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ) و (لَا نُكَلِّفُ) معترض بينهما ـ انتهى ـ وعلى الثانى اقتصر غير واحد من المحققين . قالوا : وسر الاعتراض ، الترغيبُ فى اكتساب ما يؤدى إلى النعيم المقيم ببيان سهولة مناله ، وتيسير تحصيله . والذى حسّنه سبق العمل الصالح قبله . أى وإذا علم أن مبنى التكليف على الوسع ، زادت الرغبة فى ذلك الاكتساب ، لحصوله بما فيه يسر لا عسر .

لطيفة :

الوسع : ما يقدر عليه الإنسان بسهولة ويستمرّ . قاله الرازىّ ، أخذاً من قول معاذ فى الآية (يسرها لا عسرها) قال : وأما أقصى الطاقة فيسمى جهداً لا وسعاً . وغلط من ظن أن الوسع بذل المجهود .

قلت : فى القاموس : الوسع (مثلثة) الجدة والطاقة كالسعة . وفيه : الجهد الطاقة (ويضم) والمشقة ـ انتهى ـ .

قال ابن الأثير : الجهد (بالفتح) المشقة ، وقيل: المبالغة والغاية ، وبالضم الوسع والطاقة،

---

(١) [٤٢ / الشورى / ٤٣] .

وقيل : هما لغتان فى الوسع والطاقة ، فأما فى المشقة والغاية ، فالفتح لا غير ـ انتهى ـ وبه يعلم أن ما جرى عليه الرازىّ قول للغويين ، ليس وفاقاً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٣] (وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ)

« وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ » أى : نخرج من قلوبهم أسباب الحقد والحسد والعداوة، أو نطهرّها منها، حتى لا يكون بينهم إلا التوادّ والتعاطف. وصيغة الماضى للإيذان بتحققه وتقرره «تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا» أى لِمَا جزاؤه هذا ، أى : لأسباب هذا العلوّ ، بإرسال الرسل والتوفيق للعمل « وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ » أى ما كنا لنرشد لذلك العمل الذى هـذا ثوابه ، لولا أن وفقنا الله بدلائله وألطافه وعنايته «لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ »أى : فاهتدينا بإرشادهم قال الزمخشرىّ : يقولون ذلك ، أى (ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ... الخ) سرورًا واغتباطاً بما نالوا، وتلذّذا بالتكلم به ، لا تقرّباً ولا تعبدًا ، كما ترى من رزق خيرًا فى الدنيا يتكلم بنحو ذلك ، ولا يتمالك أن لا يقوله ، للفرح والتوبة « وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ » أى : أعطيتموها بسبب أعمالكم فى الدنيا . فالميراث مجاز عن الإعطاء ، تجوّز به عنه إشارة إلى أن السبب فيه ليس موجباً ، وإن كان سبباً بحسب الظاهر ، كما أن الإرث ملك بدون كسب ، وإن كان النسب مثلًا سبباً له . وعلى ما تقرر ، فلا يقال إنه معارض لما ثبت فى الصحيحين (١) من قوله ﷺ : واعلموا أن أحدكم لن يدخله عمله الجنة ! قالوا

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ـ كتاب الرقاق، ١٨ ـ باب القصد والمداومة على العمل، حديث ٢٤٢٧ ونصه :

=

ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل . ولا يحتاج إلى الجواب عنه ، ولا أن يقال الباء للعوض لا للسبب . وهذا تنجيز للوعد بإثابة المطيع ، لا بالاستحقاق والاستيجاب ، بل هو بمحض فضله تعالى ، كالإرث ـ كذا فى العناية ـ .

روى الإمام مسلم[(١)] عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما ؛ أن رسول الله ﷺ قال : إذا دخل أهل الجنة الجنةَ نادى منادٍ إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإنّ لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبداً ، وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبداً ، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً . فذلك قوله عز وجل (وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ ...) الآية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٤] (وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ، قَالُواْ نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ)

« وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ » أى إذا استقروا فى منازلهم « أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ » توبيخاً

= عن عائشة عن النبىّ ﷺ قال « سدّدوا وقاربوا وأبشروا ، فإنه لا يُدخل أحداً الجنةَ عملُهُ » قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال « ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله بمغفرة ورحمة » .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٧٨ (طبعتنا) .

(١) أخرجه مسلم فى : ٥١ ـ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث ٢٢ (طبعتنا) ونصه :
عن أبى سعيد الخدرىّ وأبى هريرة ، عن النبىّ ﷺ قال « ينادى منادٍ : إن لكم أن تصحّوا فلا تسقموا أبدا . وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا . وإن لكم أن تشبّوا فلا تهرموا أبدا . وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدا » .
فذلك قوله عز وجل : وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ .

وتحسيراً لهم « أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا » حيث نلنا هذه المراتب العالية « فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا » من تنزيلكم إلى أسفل سافلين ، لاستكباركم على الآيات والرسل « قَالُواْ نَعَمْ » أى وجدناه حقاً « فَأَذَّنَ » أى نادى « مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ » أى بين الفريقين ليسمعهم ، زيادة فى شماتة أحد الفريقين وندامة الآخر « أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٥] (ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ كَـٰفِرُونَ)

« ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ » أى : يمنعون أنفسهم وغيرهم عن دينه القويم الذى بيّنه على ألسنة رسله لمعرفته وعمارة الدارين « وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى : يبغون لها زيغاً وميلاً عما هى عليه ، حتى لا يتبعها أحد « وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ كَـٰفِرُونَ » أى وهم بلقاء الله فى الدار الآخرة جاحدون لا يؤمنون به ، فلهذا لا يبالون ، فيأتون المنكر من القول والعمل ، لأنهم لا يرجون حساباً عليه ولا عقاباً ، فهم شر الناس .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٦] (وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ، وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَـٰهُمْ ، وَنَادَوْاْ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ)

« وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ » أى : بين الفريقين سور وستر ، أو بين الجنة والنار ، ليمنع وصول أثر إحداهما إلى الأخرى . وقد سمى هذا الحجاب سوراً فى آية[1] (فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ) وقوله تعالى « وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ

(١) [٥٧ / الحديد / ١٣] ونصها : يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُواْ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُواْ نُورًا . . .

رِجَالٌ » أى على أعراف الحجاب وشرفاته وأعاليه ، وهو السور المضروب بينهما ، جمع عَرْف ، مستعار من عرف الفرس ، وعرف الديك . وكل ما ارتفع من الأرض عرف ، فإنه بظهوره أعرف مما انخفض .

وقد حكى المفسرون أقوالًا كثيرة فى رجال الأعراف، عن التابعين وغيرهم ، أنهم فضلاء المؤمنين ، أوهم الشهداء ، أو الأنبياء ، أو قوم أوذوا فى سبيل الله ، فاطلعوا على أعدائهم ليشمتوا بهم ، فعرفوهم بسيماهم ، وسلّموا على أهل الجنة . واللفظ ، لإبهامه ، يحتمل ذلك ، لأن السياق يدل على سمّو قدرهم ، لا سيما بجعل منازلهم الأعراف ، وهى الأعالى ، والشرف، كما تقدم ومن ذكر كلهم جديرون بذلك ـ والله أعلم ـ .

« يَعْرِفُونَ كُلًّا » أى من أهل الجنة والنار « بِسِيمَٰهُمْ » أى بعلامتهم التى أعلمهم الله بها ، كبياض الوجه وسواده .

فائدة

السيما مقصورة وممدودة ، والسيمة والسيمياء بكسرهن العلامة . قال القاضى : السيمى فِعْلى مِنْ (سام إبله) إذا أرسلها فى المرعى معلمة . أو من (وسم) على القلب (كالجاه) من (الوجه). انتهى . وعلى الثانى اقتصر ابن دريد « وَنَادَوْاْ » أى رجالُ الأعراف « أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ » أى حين رأوهم من أعرافهم ، وقد عرفوهم من سيماهم أنهم أهل الجنة « أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ » بطريق الدعاء والتحية ، أو بطريق الإخبار بنجاتهم من المكاره . والوجه الأول هو المأثور عن ابن عباس رضى الله عنه فيما رواه عنه العوفىّ . قال رضى الله عنه : أنزلهم الله بتلك المنزلة ليعرفوا مَن فى الجنة والنار ، وليعرفوا أهل النار بسواد الوجوه ، ويتعوذوا بالله أن يجعلهم مع القوم الظالمين ، وهم فى ذلك يحيون أهل الجنة بالسلام « لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ » الضميران فى الجملتين لأصحاب الأعراف ، والأولى حال من الواو ، والثانية حال من فاعل (يَدْخُلُوهَا) ، أى نادوْهم وهم لم يدخلوا الجنة بعدُ ، حال كونهم طامعين فى دخولها ، مترقبين .

قال الجشميّ رحمه الله: قيل: إذا كان أصحاب الأعراف أفاضل المؤمنين، فلِمَ تأخر دخولهم؟ قلنا : هم تعجلوا اللذة بالشماتة من الأعـــداء ، وإن تأخر دخولهم ، لظهور فضلهم ، وجلالة طريقهم إلى منازلهم اهـ .

ولا يبعد عندى أن يكون جملة (لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ) حالًا من (أصحٰب الجنة) أى نادوهم بالسلام وهم فى الموقف على طمع دخول الجنة يبشرونهم بالأمان والفوز من العذاب، إشارة إلى سبق أهـــل الأعراف على غيرهم فى دخول الجنة ، وعلوّ منازلهم على سواهم ـ والله أعلم ـ .

وذهب أبو مجلز إلى أن الضميرين لأصحاب الجنة ، أى: نادى أهلُ الأعراف أصحابَ الجنة بالسلام، حال كون أصحاب الجنة لم يدخلوها وهم يطمعون فى دخولها. وهو وجه جيّد . فالجملة الأولى حال من المفعول وهو (أصحٰب الجنة) والثانية حال من فاعل (يدخلوها) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٧] (وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)

« وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ » أى : أبصار أهل الأعراف أو أهل الجنة .

قال الجشميّ : وإنما قال (صُرِفَتْ) لأن نظرهم إلى أهل النار نظر عداوة . فلا ينظرون إلا أن تصرف وجوههم إليهم . فأما أهل الجنة فوجوههم إليهم سرورًا بهم ، فلا يحتاج إلى تكلف . وقيل: لأنهم مع أهل الجنة بُعَدَاء من أهل النار، فيحتاجون إلى صرف أبصارهم تلقاء أصحاب النار. ثم قال الجشميّ : تدل الآية على وجوب الاجتناب من الظلمة فى الدنيا، كيلا يكون معهم فى الآخرة ـ انتهى ـ .

« تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ » أى: إلى جهتهم « قَالُواْ » من شدة خوفهم تعوّذًا بالله « رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ » أى : فى النار . وقال أبو السعود : فى وصفهم

بالظلم ـ دون ما هم عليه حينئذ من العذاب وسوء الحال الذى هو الموجب للدعاء ـ إشعار بأن المحذور عندهم ليس نفس العذاب فقط ، بل ما يوجبه ويؤدى إليه من الظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٤٨] ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾

«وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا» يعنى من عظماء أهل الضلالة «يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ» أى : التى تدل على أعيانهم ، وإن تغيرت صورهم « قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ » أى: كثرتكم أو جمعكم للأموال التى تدفع بها الآفات « وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ» عن الحق، أو على الخلق . وقرئ (تَسْتَكْثِرُونَ) من الكثرة ، أى : من الأتباع الذين يستعان بهم فى دفع الملمات .

قال ابن القيّم : يعنى ما نفعكم جمعكم وعشيرتكم وتجرؤكم على الحق ولا استكباركم . وهذا إما نفى وإما استفهام وتوبيخ ، وهو أبلغ وأفخم. ثم نظروا إلى الجنة فرأوا من الضعفاء الذين كان الكفار يسترذلونهم فى الدنيا ، ويزعمون أن الله لا يختصهم دونهم فى الدنيا ، فيقول لهم أهل الأعراف .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٤٩] ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ، ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾

« أَهَٰٓؤُلَآءِ » الضعفاء من المؤمنين « ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ » برفع درجاتهم فى الآخرة ، فهاهم فى الجنة يتمتعون ويتنعمون، وفى رياضها يُحْبَرون. وقوله تعالى: « ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ » أى : لا خوف عليكم من

العذاب النازل بالكفار ، ولا تحزنون كحزن الكفار على فوات النعيم ، وهذا إما من قول أصحاب الأعراف ، يتآمرون بينهم بدخول الجنة بعد تبكيت أهل النار، فيقول بعضهم لبعض: ادخلوا الجنة ؛ وإما من كلام أهل الأعراف للمؤمنين ، أى يقولون لهم : ادخلوا الجنة ، أو من تتمة مخاطبة أهل الأعراف للرجال ، كأنه قيل لهم : انظروا إلى هؤلاء الذين أقسمتم لاينالهم الله برحمته ، كيف نالوها ، حيث قيل لهم من قِبَلِهِ تعالى : ادخلوا الجنة. وعلى كلٍّ فالجملة مبنية على قول محذوف إيجازاً ، للعلم به .

لطيفة :

بيّن الزمخشرىّ سرّ حبسهم على الأعراف ، ثم إدخالهم الجنة أبدع بيان، فقال رحمه الله: يقال لأصحاب الأعراف : ادْخُلُوا الْجَنَّةَ ، وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف، وينظروا إلى الفريقين ، ويعرفوهم بسيماهم، ويقولوا مايقولون. وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال، وأن التقدم والتأخر على حسبها ، وأن أحداً لايسبق عند الله إلا بسبْقه فى العمل ، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه ، وليرغب السامعون فى حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم ، وليتصوروا أن كل أحد يُعرف ذلك اليوم بسيماه التى استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر ، فيرتدع المسىء عن إساءته ، ويزيد المحسن فى إحسانه ، وليعلم أن العصاة يوبخهم كل أحد، حتى أقصر الناس عملاً ـ انتهى ـ .

ثم بيّن تعالى ذلّة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم ، بعد التكبر عليهم ، وبعد ما أقسموا لا ينالهم الله برحمة ، وأنهم لايجابون إلى ذلك ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٠] (وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ، قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ)

« وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ » أى : الذى

رحمكم الله به ليسكن حرارة النار والعطش . قال الجشميّ : وذكروا لفظ (الإفاضة) لأن أهل الجنة أعلى مكانا . « أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ » أى : من الأطعمة والفواكه « قَالُوٓا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ » أى : منعهما عنهم ، لأنه أنعم عليهم فى الدنيا ، فلم يشكروه ، فمنعهم نعمه فى الآخرة . فالتحريم تحريم منع ، لا تحريم تعبد . ثم وصف الكافرين بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥١] (الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ)

« الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا » أى : مما زينه لهم الشيطان . واللهو : كل ما صدّ عن الحق . واللعب : كل أمر باطل . أى : ليس دينهم فى الحقيقة إلا ذلك ، إذ هو دأبهم وديدنهم « وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا » بزخارفها العاجلة ، فلم يعملوا « فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ » أى : نتركهم ترك المنسيّ ، فلا نرحمهم بما نرحم به من عمل للآخرة « كَمَا نَسُوا لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا » أى : كما فعلوا بلقائه ، فعل الناسين ، فلم يُخطروه ببالهم ، ولم يهتموا به .

لطيفة :

قال الشهاب : (نَنسَاهُمْ) تمثيل . شبه معاملته تعالى مع هؤلاء بالمعاملة مع من لا يعتدّ به ، ويلتفت إليه ، فينسى . لأن النسيان لا يجوز على الله تعالى ، أى لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ، كما قال[1] : (فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى) والنسيان يستعمل بمعنى الترك كثيراً فى لسان العرب . ويصح هنا أيضاً ، فيكون استعارة تحقيقية ، أو مجازاً مرسلاً ؛ وكذا نسيانهم لقاء الله أيضاً ، لأنهم لم يكونوا ذاكرى الله حتى ينسوه ، فشبه عدم إخطارهم لقاء الله والقيامة ببالهم ، وقلة مبالاتهم ـ بحال من عرف شيئاً ، ثم نسيه . وليست الكاف للتشبيه ، بل للتعليل ، ولا مانع من التشبيه أيضاً ـ انتهى ـ .

(١) [٢٠ / طه / ٥٢] قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى . . .

وقال تعالى: « وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ » أى وكما كانوا منكرين أنها من عند الله تعالى . روى الترمذىّ(١) عن أبى سعيد وأبى هريرة رضى الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ: يؤتى بالعبد يوم القيامة ، فيقول الله : ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالًا وولداً ، وسخرت لك الأنعام والحرث ، وتركتك ترأس وتربع ، فكنت تظن أنك ملاقى يومك هذا ؟ قال فيقول : لا ! فيقول له : اليوم أنساك كما نسيتنى .

وفى حديث أبى هريرة عند مسلم (٢) : فيلقى العبد ربه ، فيقول : أى فلْ ! ألم أكرمك

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ٣٥ ـ كتاب القيامة ، ٦ ـ باب منه ، حدثنا سويد بن نصر .

(٢) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ١٦ (طبعتنا) ونصه :

عن أبى هريرة قال : قالوا : يارسول الله ! هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ قال «هل تضارّون فى رؤية الشمس فى الظهيرة ، ليست فى سحابة » ؟ قالوا : لا . قال « فهل تضارّون فى رؤية القمر ليلة البدر ، ليس فى سحابة » ؟ قالوا : لا . قال « فو الذى نفسى بيده ! لا تضارون فى رؤية ربكم إلا كما تضارون فى رؤية أحدهما . قال فيلقى العبد، فيقول: أىْ فُلْ ! ألم أكرمك وأسوّدك ، وأزوجك ، وأسخّر لك الخيل والإبل ، وأذرْكَ ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى . قال أظننت أنك ملاقىّ ؟ فيقول : لا . فيقول : فإنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثانى فيقول : أىْ فُلْ ! ألم أكرمك ، وأسودك ، وأزوجك ، وأسخّر لك الخيل والإبل ، وأذرك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى . أىْ ربِّ ! فيقول : أفظننت أنك ملاقىّ ؟ فيقول : لا . فيقول: فإنى أنساك كما نسيتنى . ثم يلقى الثالث فيقول له مثل ذلك . فيقول : يارب ! آمنت بك وبكتابك وبرسلك وصليت وصمت وتصدقت . ويثنى بخيرٍ ما استطاع . فيقول : ههنا إذاً . قال ثم يقال له : الآن نبعث شاهدنا عليك . ويتفكر فى نفسه : من ذا الذى يشهد علىّ ؟ فيختم على فيه . ويقال لفخذه ولحمه وعظامه : انطِق . فتنطق فخذه ولحمه وعظامه بعمله . وذلك لِيُعْذِرَ من نفسه .

وذلك المنافق ، وذلك الذى يسخط الله عليه » .

وأسوّدك وأزوجك وأسخر لك الخيل والإبل وأتركك ترأس وتربع ؟ فيقول : بلى يا رب ! فيقول : أظننت أنك ملاقيّ ؟ فيقول : إني أنساك كما نسيتني !

ولما أخبر تعالى عن خسارتهم في الآخرة ذكر أنه أزاح عللهم في الدنيا بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب ، فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٢] ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

«وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ» أي بينا فيه الاعتقادات والأحكام والأمور الأخروية تفصيلاً مبيّنا « عَلَىٰ عِلْمٍ » أي عالمين كيف نفصل أحكامه ومواعظه وقصصه وسائر معانيه ، حتى جاء محكماً قيّما غير ذي عوج ، وهذا كقوله تعالى: أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ (١). «هُدًى» أي دلالة ترشدهم إلى الحق ، وتنجيهم من الضلالة « وَرَحْمَةً » أي ينجيهم من العذاب لما فيه من الدلائل ورفع الشبه « لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » لأنهم المغتنمون لفوائده .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٣] ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

« هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ » أي ما ينتظرون إلا ما يؤول إليه أمره ، من تبيّن صدقه ، بظهور ما نطق به من الوعد والوعيد . قال الشهاب : (فالنظر) هنا بمعنى (الانتظار)

(١) [٤/ النساء / ١٦٦] لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ، أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ، وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا .

لا بمعنى الرؤية . والتأويل بمعنى العاقبة ، وما يقع فى الخارج ، وهو أصل معناه ، ويطلق على التفسير أيضاً . والمعنى : أنهم قبل وقوع ما هو محقق ، كالمنتظرين له ، لأن كل آت قريب ، فهم على شرف ملاقاة ما وعدوا به . فلا يقال : كيف ينتظرونه مع جحدهم ؟ فإنهم وإن جحدوه ، إلا أنهم بمنزلة المنتظرين وفى حكمهم ، من حيث إن تلك الأحوال تأتيهم لامحالة « يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ » يعنى يوم القيامة، لأنه يوم الجزاء ، وماتؤول إليه أمورهم « يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ » أى تركوه ترك المنسىّ ، حين كان ينفعهم الذكر ، فلم يؤمنوا به عند معاينة العذاب « قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ » أى بما هو واقع من الاعتقادات والوعد والوعيد « فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُوا۟ لَنَآ » فى إزالة العذاب « أَوْ نُرَدُّ » إلى مكان العمل « فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ » من الجحود واللهو واللعب وأعمال الدنيا. قال عزوجل: « قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ » بصرف أعمالهم فى الكفر « وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ » أى ذهب عنهم ما كانوا يفترون من أن معبوديهم شفعاؤهم عند الله ، وعلموا أنهم كانوا فى دعواهم كاذبين .

ولما قدم سبحانه ذكر الكفار وعبادتهم غيره ، سبحانه ، احتج عليهم ، مبيناً بأفعاله أنه لا معبود سواه بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٤] ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

« إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ » أى إن سيدكم ومالككم ومدبركم الذى يجب أن تعبدوه أيها الناس ، الذى أنشأ أعيان السموات والأرض فى مقدار ستة أيام .

وفى هذه الآية مسائل :

الأولى : قال الشهاب : اليوم فى اللغة مطلق الوقت ، فإن أريد هذا ، فالمعنى فى ستة أوقات ، كقوله تعالى : وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ (١) . وإن أريد المتعارف ، وهو زمان طلوع الشمس إلى غروبها ، فالمعنى فى مقدار ستة أيام ، لأن اليوم إنما كان بعد خلق الشمس والسموات ، فيقدر فيه مضاف ـ انتهى ـ .

وفى شرح القاموس : إن اليوم من طلوع الشمس إلى غروبها ، أو من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس ، وإن الثانى تعريف شرعىّ عند الأكثر . ونقل عن الفاسى شارحه : أن اليوم عند المنجمين من الطلوع إلى الطلوع ، أو من الغروب إلى الغروب .

ثم قال الزبيدىّ : ويستعمل بمعنى مطلق الزمان ، نقله عن ابن هشام ، وحكاه عن سيبويه فى قولهم : (أنا ، اليوم ، أفعل كذا) فإنهم لا يريدون يوماً بعينه ، ولكنهم يريدون الوقت الحاضر . قال : وبه فسروا قوله تعالى (ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ)(٢)

---

(١) [٨/ الأنفال/ ١٦] . . . إِلَّا مُتَحَرِّفاً لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ، وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ .

(٢) [٥/ المائدة/ ٣] ونصها : حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ، ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ، ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ، ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِيناً ، فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ .

ثم قال : وقد يراد باليوم الوقت مطلقاً ، ومنه والحديث[1] : تلك أيام الهرج . أى وقته ولا يختص بالنهار دون الليل ـ انتهى ـ .

وإرادة الوقت مطلقاً منه ، عين إرادة مطلق الزمان قبله ، كما يتبادر . والظاهر أن إطلاقه على المتعارف والوقت مطلقا ، لغوىّ فيهما ـ كما نقله شارح القاموس ـ خلافاً لظاهر كلام الشهاب السابق ، فتثبتْ هذا .

الثانية ـ قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه خلق العالم ، سماواته وأرضه وما بين ذلك فى ستة أيام ، كما أخبر بذلك فى غير ما آية من القرآن ؛ والستة الأيام : الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، وفيه اجتمع الخلق كله ، وفيه خلق آدم عليه السلام . واختلفوا فى هذه الأيام : هل كل يوم منها كهذه الأيام ، كما هو المتبادر إلى الأذهان ، أو كل يوم كألف سنة ، كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل ؟ ويروى من رواية الضحاك عن ابن عباس .

فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق ، لأنه اليوم السابع ، ومنه سمى السبت ، وهو القطع . فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد[2] فى مسنده عن أبى هريرة قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدى فقال : خلق الله التربة يوم السبت ، وخلق الجبال فيها يوم الأحد ، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين ، وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس ، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر يوم الجمعة ، آخر الخلق فى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٩٢ ـ كتاب الفتن ، ٥ ـ باب ظهور الفتن ، حديث رقم ٢٥٤٨ ونصه :

عن أبى وائل ، عن عبد الله (وأحسبه رفعه) قال : بين يدى الساعة أيام الهَرْج . يزول العلم ويظهر فيها الجهل .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٢٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

آخر ساعة من ساعات الجمعة ، فيما بين العصر إلى الليل ـ فقد رواه مسلم[١] بن الحجاج فى (صحيحه) والنسائىّ ، من غير وجه . وفيه استيعاب الأيام السبعة ، والله تعالى قد قال : فى ستة أيام ، ولهذا تكلم البخارىّ وغير واحد من الحفاظ فى هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبى هريرة عن كعب الأحبار ، ليس مرفوعاً ـ والله أعلم ـ انتهى .

وقد بسطت الكلام فيه فى شرحى على (الأربعين العجلونية) .

الثالثة ـ قال القاضى : فى خلق الأشياء مدرّجاً ، مع القدرة على إيجادها دفعة ـ دليل للاختيار . أى لأنه لو كان بالإيجاب ، لصدر دفعة واحدة . وفيه حث على التأنى فى الأمور.

وقوله تعالى : « ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ » اعلم أن الاستواء ورد على معان اشترك لفظه فيها ، فجاء بمعنى الاستقرار ومنه: ٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ[٢] ، وبمعنى القصد ومنه[٣] : ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ؛ وكل من فرغ من أمر وقصد لغيره فقد استوى له وإليه. قال الفرّاء: تقول العرب : استوى إلىّ يخاصمنى ، أى أقبل علىّ . ويأتى بمعنى الاستيلاء قال الشاعر[٤] :

* قد استوى بشر على العراق *

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٢٧ (طبعتنا).

(٢) [١١ / هود / ٤٤] ونصها : وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ .

(٣) [٢ / البقرة / ٢٩] ونصها : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

و [٤١ / فصلت / ١١] ونصها : ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً ، قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ .

(٤) عجزه : * من غير سيفٍ ودمٍ مُهْرَاقِ *

استشهد به فى اللسان ص ٤١٤ من المجلد الرابع عشر (طبعة بيروت) .

ويقينى أن هذا البيت مصنوع مصنوع .

وقال آخر (١) :

فلما علونا واستوينا عليهم ... تركناهم صرعى لنسرٍ وكاسرِ

ويأتى بمعنى العلوّ ، ومنه آية : فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ (٢) : ومنه هذه الآية .

قال البخاريّ فى آخر (صحيحه) ، فى كتاب الردّ على الجهمية ، فى باب قوله تعالى : (وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ) (٣) : قال مجاهد : استوى ، علا على العرش ـ انتهى ـ .

وفى كتاب (العلوّ) للحافظ الذهبيّ : قال إسحق بن راهويه : سمعت غير واحد من المفسرين يقول : (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) (٤) أى ارتفع . ونقل ابن جرير (٥) عن الربيع بن أنس أنه بمعنى ارتفع . وقال : إنه فى كل مواضعه بمعنى علا وارتفع ، وأقول : لا حاجة إلى الاستكثار من ذلك ، فإن الاستواء غير مجهول ، وإن كان الكيف مجهولاً .

روى الإمام أحمد بن حنبل فى كتابه (الرد على الجهمية) عن شريح بن النعمان ، عن عبد الله بن نافع قال : قال مالك بن أنس : الله فى السماء ، وعلمه فى كل مكان ، لا يخلو منه شىء .

---

(١) لم أعرف قائله ولم أجده فى مكان .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٢٨] ونصها : فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ .

(٣) [١١ / هود / ٧] ونصها : وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ، وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ .

(٤) [٢٠ / طه / ٥] .

(٥) الأثر رقم ٥٨٨ من التفسير (طبعة المعارف) .

obeikandl.com

وروى البيهقيّ عن ابن وهب قال : كنت عند مالك ، فدخل رجل فقال : ياأبا عبد الله! (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) كيف استوى ؟ فأطرق مالك ، وأخذته الرُّحضاء ، ثم رفع رأسه فقال : (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) كما وصف نفسه ، ولا يقال : كيف . و(كيف) عنه مرفوع. وأنت صاحب بدعة . وفى رواية قال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

قال الحافظ الذهبيّ فى كتاب (العلوّ) ـ بعد ما ساق هذا ـ ما نصه :

وهو قول أهل السنة قاطبة ، أن كيفية الاستواء لا نعقلها بل نجهلها ، وأن استواءه معلوم ، كما أخبر فى كتابه ، وأنه كما يليق به ، لا نتعمق ولا نتحذلق ، ولا نخوض فى لوازم ذلك نفياً ولا إثباتاً ، بل نسكت ونقف ، كما وقف السلف ، ونعلم أنه لو كان له تأويل، لبادر إلى بيانه الصحابة والتابعون ، ولما وسعهم إقراره وإمراره ، والسكوت عنه . ونعلم يقيناً مع ذلك أن الله جل جلاله ، لا مثل له فى صفاته، ولا فى استوائه ، ولا فى نزوله ، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا .

ثم قال الذهبيّ : قال الإمام العلم ، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوريّ صاحب التصانيف الشهيرة، فى كتابه (مختلف الحديث) : نحن نقول فى قول الله تعالى : (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)[1] أنه معهم ، يعلم ما هم عليه ، كما تقول للرجل وجّهته إلى بلد شاسع : احذر التقصير فإنى معك ، يريد أنه لا يخفى علىّ تقصيرك . وكيف يسوغ لأحد أن يقول : إن الله سبحانه بكل مكان، على الحلول فيه، مع قوله: (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ

(١) [٥٨/ المجادلة/ ٧] ونصها: أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

ٱسْتَوَىٰ)(١) ومع قوله : (إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ)(٢) كيف يصعد إليه شيء هو معه، وكيف تعرج الملائكة والروح إليه وهي معه ؟ قال : ولو أن هؤلاء رجعوا إلى فطرتهم، وما ركبت عليه ذواتهم ، من معرفة الخالق ، لعلموا أن الله عز وجل هو العليّ وهو الأعلى ، وأن الأيدي ترفع بالدعاء إليه ، والأمم كلها عجميّها وعربيّها يقول : إن الله في السماء ، ما تركت على فطرها ـ انتهى ـ .

ثم قال الذهبيّ أيضاً : عن يزيد بن هرون شيخ الإسلام ، أنه قيل له : من الجهمية ؟ قال : من زعم أن (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) على خلاف ما يقرّ في قلوب العامة ، فهو جهميّ .

قال الذهبيّ : والعامة ، مراده بهم ، جمهور الأمة وأهل العلم ، والذي وقر في قلوبهم من الآية ، هو ما دل عليه الخطاب ، مع يقينهم بأن المستوى (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ)(٣) هذا هو الذي وقر في فطرهم السليمة ، وأذهانهم الصحيحة . ولو كان له معنى وراء ذلك ، لتفوّهوا به ، ولما أهملوه . ولو تأول أحدٌ منهم الاستواء ، لتوفرت الهمم على نقله ، ولو نقل لاشتهر . فإن كان في بعض جهلة الأغبياء من يفهم من (الاستواء) ما يوجب نقصاً أو قياساً للشاهد على الغائب ، وللمخلوق على الخالق ـ فهذا نادر . فمن نطق بذلك زُجر وعُلّم ، وما أظن أن أحداً من العامة يقرّ في نفسه ذلك ـ والله أعلم ـ انتهى .

---

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٣٥ / فاطر / ١٠] ونصها : مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ، إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ، وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ، وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ .

(٣) [٤٢ / الشورى / ١١] ونصها : فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ، يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ، لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ .

وقال الشيخ الإمام العارف قدوة العارفين ، الشيخ عبدالقادر الجيلانى قدس الله روحه فى كتابه (تحفة المتقين وسبيل العارفين) فى باب اختلاف المذاهب فى صفات الله عز وجل ، وفى ذكر اختلاف الناس فى الوقف عند قوله : (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ)(١) : قال إسحاق : فى العلم . إلى أن قال : والله تعالى بذاته على العرش ، علمه محيط بكل مكان والوقف عند أهل الحق على قوله (إِلَّا ٱللَّهُ) . وقد روى ذلك عن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهذا الوقف حسن لمن اعتقد أن الله بذاته على العرش ، ويعلم ما فى السموات والأرض . إلى أن قال : ووقف جماعة من منكرى استواء الرب عز وجل على قوله (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ) وابتدأوا بقوله (ٱسْتَوَىٰ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ) يريدون بذلك نفى الاستواء الذى وصف به نفسه ، وهذا خطأ منهم ، لأن الله تعالى استوى على العرش بذاته .

وقال فى كتابه (الغنية) : أما معرفة الصانع بالآيات والدلالات على وجه الاختصار ، فهو أن تعرف وتتيقن أن الله واحد أحد . إلى أن قال : لا يخلو من علمه مكان ، ولا يجوز وصفه بأنه فى كل مكان ، بل يقال إنه فى السماء على العرش ، كما قال جل ثناؤه (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ)(٢) وقوله (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ)(٣) وقال تعالى :

---

(١) [٣ / آل عمران / ٧] ونصها : هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ، فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ . وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ .

(٢) [٢٠ / طه / ٥] .

(٣) [٢٥ / الفرقان / ٥٩] ونصها : ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ، ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا .

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)[(١)] والنبيّ صلى الله عليه وسلم[(٢)] حكم بإسلام الأَمَةِ لما قال لها : أين الله ؟ فأشارت إلى السماء . وقال النبي ﷺ[(٣)] (في حديث أبي هريرة رضي الله عنه) : لما خلق الله الخلق ، كتب كتاباً على نفسه ، وهو عنده فوق العرش ، إن رحمتي غلبت غضبي . وفي لفظ آخر : لما قضى الله سبحانه الخلق ، كتب على نفسه في كتاب ، فهو عنده فوق العرش : أن رحمتي سبقت غضبي . وينبغي إطلاق صفة الاستواء من غير تأويل ، وأنه استواء الذات على العرش ، لا على معنى القعود والمماسة ، كما قالت المجسمة والكرامية ، ولا على معنى العلوّ والرفعة ، كما قالت الأشعرية ، ولا على الاستيلاء والغلبة ، كما قالت المعتزلة ، لأن الشرع لم يرد بذلك ، ولا نقل عن أحد من الصحابة والتابعين من السلف الصالح من أصحاب الحديث ، ذلك ، بل المنقول عنهم حمله

---

(١) [٣٥ / فاطر / ١٠] .

(٢) من حديث طويل أخرجه مسلم في : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣٣ (طبعتنا) .

عن معاوية بن الحكم السلميّ . ونص هذه القصة ، قال :

وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قِبَلَ أُحُدٍ والجوّانية (موضع في شمال المدينة) فاطلعتُ ذات يوم فإذا الذئب قد ذهب بشاة من غنمها . وأنا رجل من بني آدم . آسف كما يأسفون . لكني صككتها صكة . فأتيت رسول الله ﷺ . فعظّمَ ذلك عليّ . قلت : يارسول الله ! أفلا أعتقها ؟ قال « ائتني بها » فأتيته بها . فقال لها « أين الله » ؟ قالت : في السماء . قال « من أنا » قالت : أنت رسول الله . قال « أعتقها فإنها مؤمنة » .

(٣) أخرجه البخاريّ في : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ٥٥ ـ باب قول الله تعالى : بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ، حديث ١٥٠٩ .

على الإطلاق . وقد روى عن أم سلمة (١) زوج النبيّ ﷺ فى قوله عزوجل (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) (٢) : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقرار به واجب ، والجحود به كفر . وقد أسنده مسلم بن الحجاج عنها عن النبيّ ﷺ فى (صحيحه)، وكذلك فى حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . وقال أحمد بن حنبل رحمه الله قبل موته بقريب : أخبار الصفات تُمَرُّ كما جاءت ، بلا تشبيه ولا تعطيل . وقال أيضاً (فى رواية بعضهم) : لست بصاحب كلام ، ولا أرى الكلام فى شىء من هذه الأماكن ، فى كتاب الله عز وجل ، أو حديث عن النبيّ ﷺ ، أو عن أصحابه رضى الله عنهم ، أو عن التابعين . فأما غير ذلك ، فإن الكلام فيه غير محمود ، فلا يقال فى صفات الرب عزوجل (كيف) ؟ و (لِمَ) ؟ لا يقول ذلك إلا شكّاك . وقال أحمد رضى الله عنه (فى فى رواية عنه، فى موضع آخر) : نحن نؤمن بأن الله عز وجل على العرش كيف شاء ، وكما شاء ، بلا حدّ ولا صفة يبلغها واصف ويحدها حاد ، لما روى عن سعيد بن المسيّب ، عن كعب الأخبار ، قال ، قال الله تعالى فى (التوراة) : أنا الله فوق عبادى ، وعرشى فوق جميع خلقى ، وأنا على عرشى ، عليه أدبر عبادى ، ولا يخفى علىّ شىء من عبادى . وكونه عزوجل على العرش مذكور فى كل كتاب أنزل على كل نبيّ أرسل ، بلا كيف ، ولأن الله تعالى ـ فيما لم يزل ـ موصوف بالعلوّ والقدرة والاستيلاء والغلبة على جميع خلقه ، من العرش وغيره . فلا يحمل الاستواء على ذلك. فالاستواء من صفات الذات ، بعد ما أخبرنا به ، ونص عليه وأكده فى سبع آيات من كتابه، والسنة المأثورة به، وهو صفة لازمة له، ولائقة به ، كاليد والوجه والعين والسمع والبصر والحياة والقدرة ، وكونه خالقاً ورازقاً ومحيياً ومميتاً ، موصوف بها ، ولا نخرج من الكتاب والسنة، نقرأ الآية والخبر ، ونؤمن بما فيهما ، ونكل الكيفية فى الصفات إلى علم الله عزوجل ،

(١) لم أجد هذا الحديث .

(٢) [٢٠ / طه / ٥] .

كما قال سفيان بن عيينة رحمه الله : كما وصف الله تعالى نفسه فى كتابه ، فتفسيره قراءته . لا تفسير له غيرها ، ولم نتكلف غير ذلك ، فإنه غيب لا مجال للعقل فى إدراكه ، ونسأل الله تعالى العفو والعافية ، ونعوذ به من أن نقول فيه وفى صفاته مالم يخبرنا به هو أو رسوله عليه السلام ــ انتهى كلام الجيلانىّ قدس سره ــ .

وروى أبو إسماعيل الأنصارىّ فى (ذم الكلام وأهله) عن أبى زرعة الرازىّ : أنه سئل عن تفسير (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) فغضب وقال: تفسيره كما تقرأ ، هو على عرشه، وعلمه فى كل مكان ، من قال غير هذا فعليه لعنة الله .

وأسند عن عبد الرحمن بن أبى حاتم قال : سألت أبى وأبا زرعة عن مذهب أهل السنة فى أصول الدين ، وما أدركا عليه العلماء فى جميع الأمصار ، وما يعتقدان من ذلك ؟ فقالا : أدركنا العلماء فى جميع الأمصار، حجازاً وعراقاً، ومصراً وشاماً ويمناً . فكان من مذهبهم أن الله تبارك وتعالى على عرشه ، بائنٌ من خلقه ، كما وصف نفسه ، بلا كيف ، أحاط بكل شيء علماً .

تنبيهات

الأول ــ فى بطلان تأويل (استوى) بـ (استولى) :

قال الإمام عبد العزيز بن يحيي الكنانىّ ، صاحب الشافعىّ رحمهما الله تعالى ، فى كتاب (الرد على الجهمية) : زعمت الجهمية أن معنى استوى (استولى) من قول العرب : استوى فلان على مصر ، يريدون استولى عليها . قال : فيقال له : هل يكون خلقٌ من خلق الله أتت عليه مدة ليس بمستول عليه ؟ فإذا قال لا ، قيل له : فمن زعم ذلك فهو كافر ، فيقال له : يلزمك أن تقول : إن العرش أتت عليه مدة ليس الله بمستول عليه ، وذلك لأنه أخبر أنه سبحانه خلق العرش قبل السموات والأرض ، ثم استولى عليه بعد خلقهن ، فيلزمك أن تقول : المدة التى كان العرش قبل خلق السموات والأرض ليس الله بمستولٍ عليه فيها . ثم ذكر كلاماً طويلا فى تقرير العلوّ والاحتجاج عليه .

وقال ابن عرفة فى كتاب (الرد على الجهمية) : حدثنا داود بن علىّ قال : كنا عندابن الأعرابىّ ، فأتاه رجل فقال : مامعنى قوله تعالى (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ)؟ قال: هو على عرشه كما أخبر . فقال : يا أبا عبد الله ! إنما معناه استولى . فقال : اسكت . لا يقال : استولى على الشىء حتى يكون له فيه مضادّ ، فأيهما غلب، قيل: استولى . والله تعالى لامضادّ له ، وهو على عرشه كما أخبر . ثم قال : الاستيلاء بعد المغالبة ، كما قال النابغة (١) :

إلا لمثلك أو مَنْ أنت سابِقُهُ ... سَبْقَ الجوادِ إذا استولى على الأَمَدِ

وروى الخطيب البغدادىّ عن محمدبن أحمدبن النضر قال : كان ابن الأعرابىّ جارنا، وكان ليله أحسن ليل ، وذكر لنا أن ابن أبى دؤاد سأله : أتعرف فى اللغة استوى بمعنى استولى ؟ فقال لا أعرفه ! وفى رواية . أرادنى ابن أبى دؤاد أن أطلب له فى بعض لغات العرب ومعانيها

---

(١) قاله من قصيدته التى مطلعها :

يا دارَ ميَّة بالعلياء فالسَّنَدِ ... أَقْوَتْ وطال عليها سالف الأَبَدِ

مية ، اسم امرأة . والعلياء مكان مرتفع من الأرض . والسند سند الوادى فى الجبل ، وهو ارتفاعه حيث يسند فيه ، أى يصعد . وأقوت خَلَتْ . والسالف الماضى . والأبد الدهر، وجمعه آباد .

(معنى البيت) إنه لما وقف على الدار وتذكر من كان فيها من أحبة ، أقبل عليها يخاطبها استراحة منه إليها ، وتوجُّعاً على من ذهب عنها . ثم تحوّل من مخاطبة الحاضر إلى مخاطبة الغائب اتساعاً ومجازاً . وكذلك تفعل العرب ، تحوّل مخاطبة الحاضر إلى مخاطبة الغائب . قال الله عز وجل : حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ . إنما الكلام : حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بكم بريح طيبة . وكذلك البيت إنما كان : يادار مية أقويت وطال عليك سالف الأبد .

وفى البيت المستشهد به : استولى : غلب . والأمد : الغاية التى تجرى إليها .

(ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) استوى بمعنى استولى ، فقلت له : والله ما يكون هذا ، ولا وجدته . وابن الأعرابىّ أبو عبد الله كان لغوىّ زمانه ـ كما قال الذهبىّ ـ .

وقال الإمام أبو الحسن الأشعرىّ فى كتابه الذى سماه (الإبانة فى أصول الديانة)، وقد ذكر أصحابه أنه آخر كتاب صنفه ، وعليه يعتمدون فى الذب عنه ، عنـد من يطعن عليه ، فقال :

فصل

فى إبانة قول أهل الحق والسنة

فإن قال قائل: قد أنـكرتم قول المعتزلة والقدرية والجهمية والحرورية والرافضة والمرجئة، فعرفونا قولـكم الذى به تقولون . قيل له : قولنا الذى نقول به التمسك بكتاب ربنا ، وسنة نبينا ، وما روى عن الصحابة والتابعين ، وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون ، وبما كان يقول أبو عبد الله احمد بن حنبل ، نضر الله وجهه ، ورفع درجته ، وأجزل مثوبته، قائلون، ولما خالف قوله مخالفون ، لأنه الإمام الفاضل ، والرئيس الـكامل ، الذى أبان الله به الحق ، ودفع به الضلال ، وقمع به بدع المبتدعين ، وزيغ الزائغين .

ثم قال فى (باب الاستواء على العرش) : إن قال قائل : ماتقولون فى الاستواء؟ قيل له: نقول : إن الله مستو على عرشه ، كما قال (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) وقد قال الله (إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ)(٢) وقال(بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ)(٣)

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٣٥ / فاطر / ١٠] .

(٣) [٤ النساء / ١٥٨] . . . وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً .

وقال (يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ)(١) وقال حكاية عن فرعون (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ * أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا)(٢). كذَّب موسى فى قوله: إن الله فوق السموات. وقال (ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ)(٣) فالسموات فوقها العرش ، فلما كان العرش فوق السموات قال : ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ، لأنه مستوٍ على العرش الذى هو فوق السموات ، وكل ما علا فهو سماء ، والعرش أعلى السموات ، وليس إذا قال : ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ، يعنى جميع السماء ، وإنما أراد العرش الذى هو أعلى السموات . ألا ترى أن الله ذكر السموات فقال (وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا)(٤) فلم يرد أن القمر يملؤهن ، وأنه فيهن جميعاً . ورأينا المسلمين جميعاً يرفعون أيديهم، إذا دعوا، نحو السماء، لأن الله على العرش الذى هو فوق السموات ، فلولا أن الله على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش ، كما لا يحطونها ، إذا دعوا، إلى الأرض .

ثم قال :

فصل

وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية : إن معنى قوله (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) أنه استولى وملك وقهر ، وأن الله عز وجل فى كل مكان ،

(١) [٣٢ / السجدة / ٥] . . . فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ .

(٢) [٤٠ / غافر / ٣٦و٣٧] . . . وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ .

(٣) [٦٧ / الملك / ١٦] . . . فَإِذَا هِىَ تَمُورُ .

(٤) [٧١ / نوح / ١٦] . . . وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا .

وجحدوا أن يكون الله على عرشه ، كما قال أهل الحق . وذهبوا فى الاستواء إلى (القدرة) ، فلو كان هذا كما ذكروه ، كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة ، لأن الله قادر على كل شيء ، فالله قادر على الأرض ، وعلى الحشوش ، وعلى كل مافى العالم. فلو كان الله مستوياً على العرش بمعنى (الاستيلاء) ، وهو عز وجل مستولٍ على الأشياء كلها ، لكان مستوياً على العرش ، وعلى الأرض ، وعلى السماء ، وعلى الحشوش والأقذار لأنه قادر على الأشياء ، مستولٍ عليها ، وإذا كان قادراً على الأشياء كلها ، ولم يجز عند أحد من المسلمين أن يقول إن الله مستوٍ على الحشوش والأخلية ، لم يجز أن يكون الاستواء على العرش (الاستيلاء) ، الذى هو عامّ فى الأشياء كلها ، ووجب أن يكون معنى الاستواء يختص العرش دون الأشياء كلها . وذكر دلالات من القرآن والحديث والإجماع والعقل ـ انتهى ـ .

قلت: وكلام أبي الحسن الأشعريّ الأخير مأخوذ من كتاب ردّ الإمام أحمد على الجهمية، حيث قال فى كتابه المذكور :

ومما أنكرت الجهمية الضُّلَّال أن يكون الله سبحانه على العرش ، فقلنا : لِمَ أنكرتم ذلك ؟ إن الله سبحانه على العرش ، وقد قال سبحانه (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ)(١) وقال : (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا)(٢) قالوا: هو تحت الأرضين السابعة كما هو على العرش ، فهو على العرش، وفى السموات ، وفى الأرض، وفى كل مكان، لا يخلو منه مكان ، ولا يكون فى مكان دون مكان . وتلوا آيات من القرآن (وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ)(٣) فقلنا : قد عرف المسلمون أماكن كثيرة، وليس فيها من عظمة

---

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٢٥ / الفرقان / ٥٩] ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ . . .

(٣) [٦ / الأنعام / ٣] . . . يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

الله شيء ، فقالوا : أي مكان ؟ فقلنا: أحشاؤكم وأجواف الخنازير والحشوش والأماكن القذرة ليس فيها من عظمة الرب سبحانه شيء ؛ وقد أخبرنا أنه في السماء ، فقال سبحانه : (ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ...)(١) الآية ـ وقال (إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ)(٢) وقال (وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُۥ)(٣) وقال : (إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ)(٤) وقال : (بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ)(٥) وقال : (يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ)(٦) وقال : (تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ)(٧) وقال: (وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ)(٨) ـ فهذا أخبر الله أنه في السماء ، ووجدنا كل شيء أسفل مذموماً . قال الله تعالى: (إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ)(٩). (وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ)(١٠) وقلنا لهم: أليس تعلمون أن إبليس كان مكانه،

---

(١) [٦٧ / الملك / ١٦] . (٢) [٣٥ / فاطر / ١٠] .

(٣) [٢١ / الأنبياء / ١٩] . . . لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ.

(٤) [٣ / آل عمران / ٥٥] ونصها : إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

(٥) [٤ / النساء / ١٥٨] . . . وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

(٦) [١٦ / النحل / ٥٠] . . . وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ .

(٧) [٧٠ / المعارج / ٤] . . . فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ .

(٨) [٦ / الأنعام / ١٨] .

(٩) [٤ / النساء / ١٤٥] . . . وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا .

(١٠) [٤١ / فصلت / ٢٩] .

والشياطين مكانهم ؟ فلم يكن الله ليجتمع هو وإبليس ، ولكن إنما معنى قوله تبارك وتعالى: (وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ)(١) يقول : هو إله مَن في السموات، وإله مَن في الأرض، وهو على العرش ! وقد أحاط بعلمه ما دون العرش ، لا يخلو من علم الله مكان، ولا يكون علم الله في مكان دون مكان ، وذلك قوله : (لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا)(٢) .

قال : ومن الاعتبار في ذلك : لو أن رجلاً كان في يده قدح من قوارير صافٍ ، وفيه شيء ، كان بصر ابن آدم قد أحاط بالقدح من غير أن يكون ابن آدم في القدح، فالله سبحانه ـ وله المثل الأعلى ـ قد أحاط بجميع خلقه ، من غير أن يكون في شيء من خلقه . وخصلة أخرى : لو أن رجلًا بنى داراً بجميع مرافقها ، ثم أغلق بابها وخرج منها ، كان ابن آدم لا يخفى عليه كم بيتاً في داره ، وكم سعة كل بيت ، من غير أن يكون صاحب الدار في جوف الدار . فالله سبحانه ـ وله المثل الأعلى ـ قد أحاط بجميع ما خلق ، وقد علم كيف هو ، وما هو ، من غير أن يكون في شيء مما خلق .

قال أحمد رضي الله عنه : ومما تأول الجهمية من قول الله سبحانه : (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ . . .) إلى أن قال: (.. إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ) قالوا : إن الله عز وجل معنا وفينا . فقلنا : لِمَ قطعتم الخبر من أوله ؟ إن الله يقول (أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ) يعني أن الله بعلمه رابعهم ، ولا خمسة إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم بعلمه فيهم ، يفتح الخبر بعلمه ، ويختمه بعلمه ـ انتهى ـ .

---

(١) [٦ / الأنعام / ٣] . . . يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

(٢) [٦٥ / الطلاق / ١٢] ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ . . .

ثم قال الإمام أحمد فى آخر كتابه المذكور : وقلنا للجهمية : زعمتم أن الله فى كل مكان، لا يخلو منه مكان ، فقلنا لهم : أخبرونا عن قول الله جل ثناؤه : فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا[1] . لِمَ تجلى ، إذا كان فيه بزعمكم ؟ ولو كان فيه، كما تزعمون، لم يكن يتجلى لشيء . لكن الله تعالى على العرش ، وتجلى لشيء لم يكن فيه، ورأى الجبل شيئاً لم يكن يراه قط قبل ذلك .

وقلنا للجهمية : الله نور ؟ فقالوا : نور كله . فقلنا : قال الله عز وجل : وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا[2]. فقد أخبر جل ثناؤه أن له نورًا ، قلنا: أخبرونا، حين زعمتم أن الله فى كل مكان ، وهو نور ، فلم لا يضيء البيت المظلم من النور الذى هو فيه إذا زعمتم أن الله فى كل مكان ؟ وما بال السراج إذا أدخل البيت المظلم يضيء ؟ فعند ذلك تبين كذبهم على الله . فرحم الله من عقل عن الله ، ورجع عن القول الذى يخالف الكتاب والسنة ، وقال بقول العلماء ، وهو قول المهاجرين والأنصار ، وَتَرَكَ دين الشيطان، ودين جهم وشيعته ـ انتهى ـ.

وقال الإمام الحافظ ابن عبد البر فى كتاب (التمهيد) فى شرح حديث[3] (ينزل ربنا

---

(١) [٧/ الأعراف / ١٤٣] ونصها: وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا، فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٦٩] . . . وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ١٤ ـ باب الدعاء نصف الليل ، حديث رقم ٦٢٩ ونصه : عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « يتنزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر . يقول : من يدعونى فأستجيب له ، من يسألنى فأعطيه ، ومن يستغفرنى فأغفر له؟ » .

وأخرجه مسلم فى : ٦ ـ كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، حديث ١٦٨ (طبعتنا) .

كل ليلة . . .) الحديث ـ ما نصه : هـذا الحديث ثابت من جهة النقل، صحيح الإسناد، لا يختلف أهل الحديث فى صحته ، وفيه دليل على أن الله تعالى فى السماء ، على العرش من فوق سبع سموات ، كما قالت الجماعة . وهو حجتهم على المعتزلة والجهمية فى قولهم : (إن الله فى كل مكان ، وليس على العرش) والدليل على صحة ما قاله أهل الحق فى ذلك قوله تعالى : (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) (١) ثم ساق عدة آيات فى ذلك ـ وقال : هذه الآيات كلها واضحات فى إبطال قول المعتزلة . وأما ادعاؤهم المجاز فى الاستواء ، وقولهم فى تأويل (ٱسْتَوَىٰ) استولى ، فلا معنى له ، لأنه غير ظاهر فى اللغة . ومعنى الاستيلاء فى اللغة المغالبة، والله تعالى لايغالبه أحد ، وهو الواحد الصمد . ومن حق الكلام أن يحمل على حقيقته ، حتى تتفق الأمة أنه أريد به المجاز ، إذ لا سبيل إلى اتباع ما أنزل إلينا من ربنا تعالى ، إلا على ذلك ، وإنما يوجه كلام الله عزوجل على الأشهر والأظهر من وجوهه ، مالم يمنع من ذلك ما يجب له التسليم . ولوساغ ادعاء المجاز لكل مدع، ماثبت شيء من العبادات . وجَلَّ اللهُ أن يخاطب إلا بما تفهمه العرب من معهود مخاطباتها مما يصح معناه عند السامعين. والاستواء معلوم فى اللغة مفهوم ، وهو العلوّ والارتفاع على الشيء ، والاستقرار والتمكن فيه . قال أبو عبيدة فى قوله (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ) (٢) قال : علا ، قال : تقول العرب : استويت فوق الدابة واستويت فوق البيت . وقال غيره : استوى أى استقر ، واحتج بقوله تعالى : (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ)(٣) انتهى شبابه واستقر ، فلم يكن فى شبابه مزيد .

قال ابن عبد البر : الاستواء : الاستقرار فى العلوّ ، وبهذا خاطبنا الله تعالى فى كتابه فقال:

---

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٢٠ / طه / ٥] .

(٣) [٢٨ / القصص / ١٤] . . . ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ

(لِتَسْتَوُواْ عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُواْ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ)(١) وقال تعالى : (وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ)(٢) وقال تعالى : (فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ)(٣) وقال الشاعر(٤) :

فأوردتُهم ماءً بفيفاءَ قَفْرَةٍ وقد حلَّق النجم اليمانيُّ فاستوىٰ

وهذا لا يجوز أن يتأوَّل فيه أحد (استولى) ، لأن النجم لا يستولى . وقد ذكر النضر ابن شميل ـ وكان ثقة مأموناً جليلاً فى علم الديانة واللغة ـ قال : حدثنى الخليل ـ وحسبك بالخليل ـ قال : أتيت أبا ربيعة الأعرابىّ ، وكان من أعلم ما رأيت ، فإذا هو على سطح ، فسلمنا ، فرد علينا السلام ، وقال : (استووا) فبقينا متحيرين ولم ندر ما قال ، فقال لنا أعرابىّ إلى جانبه : إنه أمركم أن ترفَّعوا ، فقال الخليل: هو من قول الله (ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ)(٥) فصعدنا إليه . قال: وأما من نزع منهم بحديث يرويه عبدالله بن داود الواسطىّ

---

(١) [٤٣/ الزخرف / ١٣] . . . وَتَقُولُواْ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ .

(٢) [١١ / هود / ٤٤] ونصها : وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ .

(٣) [٢٣/ المؤمنون/ ٢٨] . . . فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ .

(٤) لم أعرف اسم الشاعر ولم أهتد إلى هذا البيت فى موضع .

والفيف والفيفاء : المفازة لا ماء فيها .

(٥) [٢ / البقرة / ٢٩] ونصها : هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

و [٤١ / فصلت / ١١] ونصها : ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ، قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ .

عن إبراهيم بن عبد الصمد عن عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن ابن عباس رضى الله عنهما في قوله (ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ)(١) قال : استولى على جميع بريته ، فلا يخلو منه مكان ـ فالجواب : أن هـذا حديث منـكر على ابن عباس رضى الله عنهما ، ونَقَلَتُهُ مجهولة وضعفاء ؛ فأما عبد الله بن داود الواسطىّ وعبد الوهاب بن مجاهـد فضعيفان . وإبراهيم بن عبد الصمد مجهول لا يعرف . وهم لا يقبلون أخبار الآحاد ، فـكيف يسوغ لهم الاحتجاج بمثل هذا الحديث، لوعقلوا وأنصفوا؟ أما سمعوا الله سبحانه حيث يقول: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا(٢) ؟ فدل على أن موسى عليه الصلاة السلام كان يقول : إلٰهى فى السماء وفرعون يظنه كاذباً . قال الشاعر :

فسبحان من لا يَقْدِرُ الخلقُ قدرَهُ ... ومن هو فوق العرش فَرْدٌ مُوَحَّدُ

مليكٌ على عرش السماء مُهَيْمِنٌ ... لِعِزَّتِهِ تَعْنُو الوجوهُ وَتَسْجُدُ

وهذا الشعر لأميّة بن أبى الصَّلت . وفيه يقول فى وصف الملائـكة :

وَسَاجِدُهُمْ لا يرفع الدهرَ رأسَهُ ... يعظِّمُ رَبًّا فوقه وَيُمَجِّدُ

قال : فإن احتجوا بقوله تعالى : (وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ)(٣) وبقوله تعالى: (وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ)(٤) وبقوله تعالى : (مَا يَكُونُ مِن

---

(١) [٢٠ / طه / ٥] .

(٢) [٤٠ / غافر / ٣٦ و ٣٧] . . . وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ، وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ .

(٣) [٤٣ / الزخرف / ٨٤] . . . وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ .

(٤) [٦ / الأنعام / ٣] . . . يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ .

نَّجْوَى ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ)[(١)] ، وزعموا أن الله سبحانه في كل مكان بنفسه وذاته ـ تبارك وتعالى جدّه ـ قيل : لا خلاف بيننا وبينكم وبين سائر الأمة أنه ليس فى الأرض دون السماء بذاته ، فوجب حمل هذه الآيات على المعنى الصحيح المجمع عليه ، وذلك أنه فى السماء إله معبود من أهل السماء ، وفى الأرض إله معبود من أهل الأرض، وكذا قال أهل العلم بالتفسير. وظاهر هذا التنزيل يشهد أنه على العرش، فالاختلاف فى ذلك ساقط ، وأسعد الناس به من ساعده الظاهر . وأما قوله فى الآية الأخرى : (وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ) فالإجماع والاتفاق قد بيّن أن المراد أنه معبود من أهل الأرض . فتدبر هذا فإنه قاطع .

ومن الحجة أيضاً فى أنه عز وجل على العرش فوق السموات السبع، أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم ، إذا كَرَبَهُمْ أمر ، أو نزلت بهم شدة ، رفعوا وجوههم إلى السماء ، ونصبوا أيديهم رافعين مشيرين بها إلى السماء ، يستغيثون الله ربهم تبارك وتعالى ، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته . لأنه اضطرارىّ لم يخالفهم عليه أحد ، ولا أنكره عليهم مسلم، وقد قال ﷺ للأمة التى أراد مولاها عتقها[(٢)]،

---

(١) [٥٨ / المجادلة / ٧] ونصها : أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ، مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ، إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث ٣٣ (طبعتنا) وهو قطعة من حديث طويل ونصها :

عن معاوية بن الحكم السُّلَمِىّ قال : وكانت لى جارية ترعى غنما لى قِبَل أُحُد والجوّانية (موضع فى شمال المدينة) فاطلعتُ ذات يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاة من غنمها . وأنا رجل =

إن كانت مؤمنة . فاختبرها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأن قال لها : أين الله ؟ فأشارت إلى السماء . ثم قال لها : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله . قال : أعتقها فإنها مؤمنة . فاكتفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها برفع رأسها إلى السماء ، واستغنى بذلك عما سواه .

قال : وأما احتجاجهم بقوله تعالى (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)(١) فلا حجة لهم فى ظاهر هذه الآية ، لأن علماء الصحابة والتابعين الذين حمل عنهم التأويل فى القرآن قالوا تأويل هذه الآية : هو على العرش ، وعلمه فى كل مكان ، وما خالفهم فى ذلك أحد يحتج بقوله . وذكر سنيد عن مقاتل بن حيان عن الضحاك بن مزاحم فى قوله تعالى (مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ)(٢) قال : هو على عرشه ، وعلمه معهم أينما كانوا . قال : وبلغنى عن سفيان الثورىّ مثله . قال سنيد : حدثنا حماد بن زيد عن عاصم ابن بهدلة عن زرّ بن حبيش عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : الله فوق العرش ، وعلمه فى كل مكان ، لا يخفى عليه شىء من أعمالكم . ثم ساق من طريق يزيد بن هرون عن حماد ابن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زر عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام ، وما بين كل سماء إلى الأخرى خمسمائة عام ، وما بين السماء السابعة إلى الكرسىّ مسيرة خمسمائة عام ، وما بين الكرسىّ إلى الماء مسيرة خمسمائة عام ،

= من بنى آدم . آسف كما يأسفون . لكنى صككتها صكة . فأتيت رسول الله ﷺ فعظَّم ذلك علىّ . قلت : يارسول الله ! أفلا أُعتقها ؟ قال « ائتنى بها » فأتيته بها فقال لها « أين الله » ؟ قالت : فى السماء . قال « من أنا » ! قالت أنت رسول الله . قال « أعتقها فإنها مؤمنة » .

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٧٢٠ .

(٢) انظر الحاشية رقم ١ ص ١٧٢٠ .

والعرش على الماء ، والله على العرش ، ويعلم أعمالكم . وذكر هذا الكلام أو قريباً منه في كتاب (الاستذكار) .

وقال شيخ الإسلام تقيّ الدين بن تيمية رحمه الله تعالى في (الرسالة المدنية): إذا وصف الله نفسه بصفة أو وصفه بها رسوله ﷺ ، أو وصفه بها المؤمنون الذين اتفق المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ـ فصرفُها عن ظاهرها اللائق بجلاله سبحانه ، وحقيقتها المفهومة منها ، إلى باطن يخالف الظاهر ، ومجاز يخالف الحقيقة ، لابد فيه من أربعة أشياء :

أحدها : أن ذلك اللفظ مستعمل بالمعنى المجازي ، لأن الكتاب والسنة وكلام السلف جاءوا باللسان العربيّ ، ولا يجوز أن يراد منه خلاف لسان العرب ، أو خلاف الألسنة كلها ، فلا بد أن يكون ذلك المعنى المجازيّ مما يراد به اللفظ ، وإلا فيمكن كل مُبْطِل أن يفسر أي لفظ بأي معنى ناسخ له ، وإن لم يكن له أصل في اللغة .

الثاني : أن يكون معه دليل يوجب صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه ، وإلا فإذا كان يستعمل في معنى بطريق الحقيقة ، وفي معنى بطريق المجاز ، لم يجز حمله على المجازيّ بغير دليل يوجب الصرف بإجماع العقلاء، ثم ادعى وجوب صرفه عن الحقيقة فلابدّ من دليل قاطع عقليّ أو سمعيّ يوجب الصرف . وإن ادعى ظهور صرفه عن الحقيقة ـ فلابد من دليل مرجح للحمل على المجاز .

الثالث : أنه لا بد من أن يسلم ذلك الدليل الصارف عن معارض . وإلا فإذا قام دليل قرآني أو إيمانيّ يبيّن أن الحقيقة مرادة ، امتنع تركها . ثم إن كان هذا الدليل لم يلتفت إلى نقيضه وإن كان ظاهراً فلابد من الترجيح .

الرابع : أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إذا تكلم بكلام وأراد به خلاف ظاهره ، وضد حقيقته فلابد أن يبين للأمة أنه لم يرد حقيقته وإنما أراد مجازه ، سواء عيّنه أو لم يعيّنه ، لا سيما في الخطاب العلميّ الذي أريد منهم فيه الاعتقاد والعلم ، دون عمل الجوارح ، فإنه سبحانه جعل القرآن نورًا وهدًى وبياناً للناس وشفاءً لما في الصدور ، وأرسل الرسول

ليبيّن للناس ما نُزِّل إليهم[١] ، وليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه[٢] ، ولئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل[٣] . ثم هذا الرسول الأمىّ العربىّ بعث بأفصح اللغات ، وأبين الألسنة والعبارات . ثم الأمّة الذين أخذوا عنه كانوا أعمق الناس علماً ، وأنصحهم للأمة ، وأبينهم للسنة ، فلا يجوز أن يتكلم هو وهؤلاء بكلام يريدون به خلاف ظاهره ، إلا وقد نصب دليلًا يمنع من حمله على ظاهره ، إما بأن يكون عقلياً ظاهراً مثل قوله (وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ)[٤] فإن كل أحد يعلم بعقله أن المراد (أوتيت من جنس ما يؤتاه مثلها) . وكذلك قوله (خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ)[٥] يعلم المستمع أن المراد أن الخالق لا يدخل فى هذا العموم . أو سمعياً ظاهراً مثل الدلالات فى الكتاب والسنة التى تصرف بعضها الظواهر .

---

(١) يشير إلى [١٦ / النحل / ٤٤] ونصها : بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَٱلزُّبُرِ ، وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

(٢) يشير إلى [٢ / البقرة / ٢١٣] ونصها : كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ، وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ، فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ، وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

(٣) [٤ / النساء / ١٦٥] ونصها : رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ، وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا .

(٤) [٢٧ / النمل / ٢٣] ونصها : إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ .

(٥) [٦ / الأنعام / ١٠٢] ونصها : ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ، لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ، خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ، وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ .

ولا يجوز أن يحيلهم على دليل خفيّ لا يستنبطه إلا أفراد الناس، سواء كان سمعيًّا أو عقليًّا، لأنه إذا تكلم بالكلام الذى يفهم منه معنى ، وأعاده مرات كثيرة ، وخاطب به الخلق كلهم، وفيهم الذكىّ والبليد ، والفقيه وغير الفقيه ، وقد أوجب عليهم أن يتدبروا ذلك الخطاب ، ويعقلوه ويتفكروا فيه ، ويعتقدوا موجبه ، ثم أوجب أن لا يقصدوا بهذا الخطاب شيئًا من ظاهره ، لأن هناك دليلًا خفيًّا يستنبطه أفراد الناس يدل على أنه لم يرد ظاهره ـ كان تدليسًا أو تلبيسًا ، وكان نقيض البيان ، وضد الهدى . وهو بالألغاز والأحاجىّ أشبه منه بالهدى والبيان . فكيف إذا كانت دلالة ذلك الخطاب على ظاهره ، أقوى بدرجات كثيرة من دلالة ذلك الدليل الخفىّ على أن الظاهر غير مراد ، كيف إذا كان ذلك الخفىّ شبهة ليس لها حقيقة؟ ـ انتهى ـ .

الثانى ـ يتوهم كثير أن القول بالعلوّ والاستواء يلزم منهما القول بالتجسيم ، وقد رمى بذلك كثير من المحدِّثين ، وممن رماهم بذلك الجلال الدوانى فى شرح العقائد العضدية حيث قال ـ عفا الله عنه ـ : وأكثر المجسمة هم الظاهريون المتبعون لظاهر الكتاب والسنة ، وأكثرهم المحدّثون . ولا بن تيمية أبى العباس وأصحابه ميل عظيم إلى إثبات الجهة، ومبالغة فى القدح فى نفيها . ورأيت فى بعض تصانيفه أنه لا فرق عند بديهة العقل بين أن يقال :هو معدوم ، أو يقال : طلبته فى جميع الأمكنة فلم أجده ، ونسب النافين إلى التعطيل . هذا مع علوّ كعبه فى العلوم العقلية والنقلية ، كما يشهد به من تتبع تصانيفه .

ومحصل كلام بعضهم فى بعض المواضع ؛ أن الشرع ورد بتخصيصه تعالى بجهة (الفوق) ، كما خصص الكعبة بكونها بيت الله تعالى ، ولذلك يتوجه إليها فى الدعاء . ولا يخفى أنه ليس فى هذا القدر غائلة أصلًا ، لكن بعض أصحاب الحديث من المتأخرين لم يرض بهذا القول ، وأنكر كون (الفوق) قبلة الدعاء ، بل قال : قبلة الدعاء هو نفسه ، كما أن نفس الكعبة قبلة الصلاة ، وقد صرح بكونه جهة الله تعالى حقيقة من غير تجوّز انتهى كلام الدوانىّ ـ .

وتعقبه غير واحد :

منهم : الشيخ إبراهيم الكورانيّ فى حاشيته عليه المسماة (بمجلى المعانىّ) قال : إن ابن تيمية ليس قائلًا بالتجسيم ، فقد صرح بأن الله تعالى ليس جسماً ، فى رسالة تكلم فيها على حديث النزول . وقال فى رسالة أخرى : من قال إن الله تعالى مثل بدن الإنسان ، أو إن الله تعالى يماثل شيئاً من المخلوقات فهو مفترٍ على الله سبحانه . بل هو على مذهب السلف قائل بأن الله تعالى فوق العرش حقيقة ، مع نفى اللوازم ، ونقل عليه إجماع السلف ، صرح به فى الرسالة القدرية ـ انتهى ـ .

ومنهم : ولىّ الله الدهلوىّ قدس سره ، قال فى كتابه (حجة الله البالغة) : واستطال هؤلاء الخائضون على معشر أهل الحديث ، وسموهم مجسمة ومشبهة ، وقالوا : هم المتسترون بالبلكفة ، وقد وضح علىّ وضوحًا بيّناً أن استطالتهم هذه ليست بشىء ، وأنهم مخطئون فى مقالتهم رواية ودراية ، وخاطئون فى طعنهم أئمة الهدى ـ انتهى ـ .

ومنهم : الشهاب الألوسىّ المفسر ، فإنه كتب على كلام الدوانىّ ما نصه : حاشا لله تعالى أن يكون ـ يعنى ابن تيمية ـ من المجسمة ، بل هو أبرأ الناس منهم . نعم يقول بالفوقية ، وذلك مذهب السلف ، وهو بمعزل عن التجسيم . وجلال الدين وأضرابه أجهل الناس بالأحاديث ، وكلام السلف الصالح ، كما لا يخفى على العارف المنصف . نقله عنه ابنه فى (محاكمة الأحمدين) .

وأقول . إن كل من رمى مثل هذا الإمام بالتجسيم فقد افترى وما درى ، إلا أن عذره أنه لم ينقب عن غرر كلامه فى فتاويه التى أوضح فيها الحق ، وأنار بها مذهب السلف قاطبة . وهاك شذرة من درره . قال رحمه الله فى بعض فتاويه :

والأصل فى هذا الباب أن كل ما ثبت فى كتاب الله تعالى أو سنة رسوله ﷺ وجب التصديق به ، مثل علوّ الرب ، واستوائه على عرشه ، ونحو ذلك . وأما الألفاظ المبتدعة

فى النفى والإثبات ، مثل قول القائل : هو فى جهة ، أو ليس فى جهة، وهو متحيز، أو ليس بمتحيز ، ونحو ذلك من الألفاظ التى تنازع فيها الناس ، وليس مع أحدهم نص ، لا عن الرسول ﷺ ، ولا عن الصحابة رضى الله عنهم والتابعين لهم بإحسان، ولا أئمة المسلمين ـ هؤلاء لم يقل أحد منهم إن الله تعالى فى جهة ، ولا قال ليس هو فى جهة، ولا قال هو متحيز، ولا قال ليس بمتحيز ، بل ولا قال هو جسم أو جوهر ، ولا قال ليس بجسم ولا بجوهر . فهذه الألفاظ ليست منصوصة فى الكتاب ولا السنة ولا الإجماع ؛ والناطقون بها قد يريدون معنى صحيحاً . فإن يريدوا معنى صحيحاً يوافق الكتاب والسنة كان ذلك مقبولا منهم . وإن أرادوا معنى فاسدا يخالف الكتاب والسنة كان ذلك المعنى مردوداً عليهم. فإذا قال القائل : إن الله تعالى فى جهة ، قيل : ما تريد بذلك ؟ أتريد بذلك أنه سبحانه فى جهة موجودة تحصره وتحيط به ، مثل أن يكون فى جوف السموات ، أم تريد بالجهة أمرًا عدميًّا ، وهو ما فوق العالم شىء من المخلوقات . فإن أردت الجهة الوجودية، وجعلت الله تعالى محصوراً فى المخلوقات، فهذا باطل ، وإن أردت الجهة العدمية ، وأردت الله تعالى وحده فوق المخلوقات ، بائن عنها ، فهذا حق ، وليس فى ذلك أن شيئاً من المخلوقات حَصَرَهُ ، ولا أحاط به ، ولا علا عليه ، بل هو العالى عليها ، المحيط بها ، وقد قال تعالى : (وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ...)(١) الآية ـ وقد ثبت فى الصحيح(٢) عن النبى ﷺ أن الله عز وجل يقبض الأرض يوم القيامة ، ويطوى

(١) [٣٩ / الزمر / ٦٧] . . . سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٤٤ ـ باب يقبض الله الأرض ، حديث ٢٠٣٩ ونصه :

عن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « يقبض الله الأرض ويطوى السماء بيمينه . ثم يقول . أنا الملك . أين ملوك الأرض ؟ » .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٢٣ (طبعتنا) .

السموات بيمينه ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، أين ملوك الأرض ؟ وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : ماالسموات السبع ، والأرضون السبع ، وما فيهن ، ومابينهن ، فى يد الرحمن إلا كخردلة فى يد أحدكم . وفى حديث آخر أنه يرميها كما يرمى الصبيان الكرة . فمن يكون جميع المخلوقات بالنسبة إلى قبضته تعالى ، إلى هذا الحقر والصغار ، كيف تحيط به وتحصره ؟ ومن قال إن الله تعالى ليس فى جهة ، قيل له : ما تريد بذلك ؟ فإن أراد بذلك أنه ليس فوق السموات ربٌّ يعبد ، ولا على عرشٍ إله ، ونبينا محمد ﷺ لم يعرج به إلى الله تعالى ، والأيدى لا ترفع إلى الله تعالى فى الدعاء ، ولا تتوجه القلوب إليه ـ فهذا فرعونىٌّ معطل ، جاحد لرب العالمين . وإن كان يعتقد أنه مقرٌّ به فهو جاهل متناقض فى كلامه . ومن هنا دخل أهل الحلول والاتحاد وقالوا : إن الله تعالى بذاته فى كل مكان ، وإن وجود المخلوقات هو وجود الخالق . وإن قال : مرادى بقولى (ليس فى جهة) أنه لا تحيط به المخلوقات فقد أصاب فى هذا المعنى . وكذلك من قال إن الله تعالى متحيز أو قال ليس بمتحيز : إن أراد بقوله (متحيز) أن المخلوقات تحوزه وتحيط به فقد أخطأ ، وإن أراد به منحاز عن المخلوقات ، بائن عنها ، عال عليها ، فقد أصاب . ومن قال : (ليس بمتحيز) ، إن أراد المخلوقات لا تحوزه فقد أصاب ، وإن أراد ليس ببائن عنها ، بل هو لا داخل فيها ، ولا خارج عنها ، فقد أخطأ . والناس فى هذا الباب ثلاثة أصناف : أهل الحلول والاتحاد ، وأهل النفى والجحود ، وأهل الإيمان والتوحيد والسنة .

فأهل الحلول يقولون : إنه بذاته فى كل مكان ، وقد يقولون بالاتحاد والوحدة ، فيقولون : وجود المخلوقات وجود الخالق .

وأما أهل النفى والجحود فيقولون : لا هو داخل العالم ، ولا خارج ، ولا مباين له ،

ولا حالٌّ فيه ، ولا فوق العالم ولا فيه ، ولا ينزل منه شىء ، ولا يصعد إليه شىء ، ولا يتقرب إليه بشىء ، ولا يدنو إليه شىء ، ولا يتجلى لشىء ، ولا يراه أحد ، ونحو ذلك .

وهـذا قول متكلمة الجهمية المعطلة ، كما أن الأول قول عباد الجهمية . فمتكلمة الجهمية لا يعبدون شيئاً ، ومتعبّدة الجهمية يعبدون كل شيء ، وكلامهم يرجع إلى التعطيل والجحود ، الذى هو قول فرعون . وقد علم أن الله تعالى كان قبل أن يخلق السموات والأرض ، ثم خلقهما ، فإما أن يكون دخل فيهما ، وهذا حلول باطل ، وإما أن يكونا دخلا فيه ، وهو أبطل وأبطل ، وإما أن يكون الله سبحانه بائناً عنهما ، لم يدخل فيهما ، ولم يدخلا فيـه ، وهذا قول أهل الحق والتوحيد والسنة .

ولأهل الجحود والتعطيل فى هذا الباب شبهات يعارضون بها كتاب الله عزوجل وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام وما أجمع عليه سلف الأمة وأئمتها ، وما فطر الله تعالى عليه عباده ، وما دلت عليه الدلائل العقلية الصحيحة ، فإن هذه الأدلة كلها متفقة على أن الله تعالى فوق مخلوقاته ، عال عليها ، قد فطر الله تعالى على ذلك العجائز والأعراب والصبيان فى الكتاب ، كما فطرهم على الإقرار بالخالق تعالى . وقد قال النبى ﷺ فى الحديث الصحيح(١) : كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجّسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء ، هل تحسون فيها من جدعاء ؟ ثم قال أبو هريرة رضى الله عنه : اقرؤوا إن شئتم (فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٧٩ ـ باب إذا أسلم الصبىّ فمات هل يصلّى عليه ، حديث ٧١٦ ونصه :

أن أبا هريرة رضى الله عنه قال : قال رسـول الله ﷺ « ما من مولود إلا يولد على الفطرة . فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه . كما تنتج البهيمة بهيمةً جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء » ؟

ثم يقول أبو هريرة رضى الله عنه : فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث رقم ٢٢ (طبعتنا) .

فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ)(١) وهذا معنى قول عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى : عليك بدين الأعراب والصبيان فى الكتّاب ، عليك بما فطرهم الله تعالى عليه ، فإن الله سبحانه فطر عباده على الحق ، والرسل بعثوا بتكميل الفطرة وتقريرها ، لا بتحويل الفطرة وتغييرها . وأما أعداء الرسل كالجهمية الفرعونية ونحوهم، فيريدون أن يغيروا فطرة الله تعالى ، ودينه عز وجل ، ويوردون على الناس شبهات بكلمات مشتبهات ، لا يفهم كثير من الناس مقصودهم بها ، ولا يحسن أن يجيبهم . وقد بسط الكلام عليهم فى غير هذا الموضع. وأصلُ ضلالهم تكلمهم بكلمات مجملة لا أصل لها فى كتاب الله تعالى ، ولا سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، ولا قالها أحد من أئمة المسلمين . كلفظ : التحيز والجسم والجهة ونحو ذلك. فمن كان عارفاً بحال شبهاتهم بيّنها، ومن لم يكن عارفاً بذلك فليعرض عن كلامهم ، ولا يقبل إلا ما جاء به الكتاب والسنة ، كما قال تعالى : (وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ)(٢) . ومن تكلم فى الله تعالى وأسمائه وصفاته بما يخالف الكتاب والسنة ، فهو من الخائضين فى آيات الله تعالى بالباطل ، وكثير من هؤلاء ينسب إلى أئمة المسلمين مالم يقولوه . وكثير منهم قرؤوا كتباً من كتب الكلام، فيها شبهات أضلتهم ، ولم يهتدوا لجوابهم، فإنهم يجدون فى تلك الكتب أنه لو كان الله تعالى فوق الخلق للزم التجسيم والتحيز والجهة ، وهم لا يعرفون حقائق هذه الألفاظ ، ولا ما أراد بها

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] ونصها : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ، ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) [٦ / الأنعام / ٦٨] ونصها : وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ .

أصحابها ، فإن ذكر لفظ (الجسم) فى أسماء الله تعالى وصفاته ، بدعة لم ينطق بها كتاب ولا سنة ، ولا قالها أحد من سلف الأمة وأئمتها ، ولم يقل أحد منهم إن الله تعالى جسم ، ولا أن الله تعالى ليس بجسم ، ولا أن الله تعالى جوهر ، ولا أن الله تعالى ليس بجوهر . ولفظ الجسم لفظ مجمل ، فمعناه فى اللغة هو البدن . ومن قال إن الله تعالى مثل بدن الإنسان فهو مفتر على الله عز وجل ، بل من قال إن الله تعالى يماثل شيئاً من مخلوقاته فهو مفتر على الله ضال ، ومن قال إن الله تعالى ليس بجسم ، وأراد بذلك أنه لا يماثل شيئاً من المخلوقات ، فالمعنى صحيح ، وإن كان اللفظ بدعة . وأما من قال إن الله تعالى ليس بجسم ، وأراد بذلك أنه لا يُرى فى الآخرة ، وأنه لم يتكلم بالقرآن العربىّ ، بل القرآن العربى مخلوق ، أو هو تصنيف جبريل عليه السلام ، أو نحو ذلك ، فهو مفتر على الله تعالى فيما نفاه عنه . وهذا أصل ضلال الجهمية من المعتزلة ، ومن وافقهم على مذهبهم ، فإنهم يظهرون للناس التنزيه ، وحقيقةُ كلامهم التعطيل ، فيقولون : نحن لا نُجسّم ، بل نقول : الله ليس بجسم ، ومرادهم بذلك نفى حقيقة أسمائه وصفاته .

إلى أن قال : فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال ، منزه عن كل نقص وعيب ، ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها أنهم يصفون الله تعالى بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ، ومن غير تكييف ولا تمثيل ، فيثبتون ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات ، وينزهونه عما نزه عنه نفسه من مماثلة المخلوقات ، إثبات بلا تمثيل ، وتنزيه بلا تعطيل . قال عز شأنه : (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ)(١) فقوله (لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ) رد على الممثلة . وقوله تعالى : (وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ) رد على المعطلة ـ انتهى ملخصاً ـ .

وقال رضى الله عنه (فى جواب على سؤال رفع إليه نصه : الاستواء هل هو حقيقة أو مجاز ؟) : ما نصه ملخصاً :

(١) [٤٢ / الشورى / ١١] .

القول فى الاستواء والنزول كالقول فى سائر الصفات التى وصف بها نفسه فى كتابه ، وعلى لسان رسوله صلى الله عليـــه وسلم ، فإن الله تعالى سمى نفسه بأسماء ، ووصف نفسه بصفات ، فالقول فى بعض هذه الصفات ، كالقول فى بعض. ومذهب سلف الأمة وأئمتها أَنْ نَصِفَ الله تعالى بما وصف به نفسه ، وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل ، فلا يجوز نفى صفات الله تعـالى التى وصف بها نفسه ، ولا يجوز تمثيلها بصفات المخلوقين . ومعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أنه لايجوز إطلاق النفى على ما أثبته الله تعالى لنفسه من الأسماء الحسنى والصفات ، بل هذا جحد للخالق ، وتمثيل له بالمعدومات . وقد قال ابن عبد البر : أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها فى القرآن والسنة والإيمان بها ، وحملها على الحقيقة لاعلى المجاز ، لأنهم لاينفون شيئاً من ذلك، ولا يجدون فيه صفة محصورة . وأما أهل البدع من الجهمية والمعتزلة والخوارج، فينكرونها ولا يحملونها على الحقيقة ، ويزعمون أن من أقرّ بها مشبه ، وهم عنـد من أقرَّ بها ، نافون للمعبود ، لامثبتون . والحق فيما قاله القائلون ، مما نطق به الكتاب والسنة، وهم أئمة الجماعة. هذا الذى حكاه ابن عبد البر .

ومن أنـكر أن يكون شيء من هذه الأسماء والصفات حقيقة، فإنما أنـكر، لجهله لمسمى الحقيقة ، أو لـكفره وتعطيله لمـا يستحقه رب العالمين . وذلك أنه قد يظن أن إطلاق ذلك يقتضي أن يكون المخلوق مماثلاً للخالق، فيقال له: هذا باطل ، فإن الله موجود حقيقة، والعبد موجود حقيقة ، وله تعالى ذات حقيقة ، والعبـد له ذات حقيقة ، وليس ذاته تعالى كذات المخلوقات ، وكذلك له علم وسمع وبصر حقيقة ، وللعبد سمع وبصر وعلم حقيقة ، وليس علمه وسمعه وبصره مثل عـلم العبد وسمعه وبصره . ولله كلام حقيقة ، وليس كلام الخالق مثل كلام المخلوقين . والله استوى على عرشه حقيقة ، وللعبد استواء على الفُلْك حقيقة ، وليس استواء الخالق كاستواء المخلوق . فإن الله لايفتقر إلى شيء ، ولا يحتاج إلى شيء ، بل هو

الغنىّ عن كل شىء، والله تعالى يحمل العرش وحملته، بقدرته[1] وَ: ﴿يُمسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ . فمن ظن أن معنى قول الأئمة (الله مستوٍ على عرشه حقيقة) يقتضى أن يكون استواؤه مثل استواء العبد على الفُلْك والأنعام ، لزمه أن يكون قولهم : إن الله له علم حقيقة وسمع وبصر حقيقة وكلام حقيقة ، يقتضى أن يكون علمه وسمعه وبصره وكلامه مثل علم المخلوقين وسمعهم وبصرهم وكلامهم ، فمن ظن أن الحقيقة إنما تتناول صفة العبد المخلوقة دون صفة الخالق ، كان فى غاية الجهل ، فإن صفة الله أكمل وأتم وأحق بهذه الأسماء الحسنى ، فلا نسبة بين صفة العبد وصفة الرب ، كما لا نسبة بين ذاته وذاته . فكيف يكون العبد مستحقاً للأسماء الحسنى حقيقة ، والرب لا يستحق ذلك إلا مجازا ؟ ومعلوم أن كل كمال حصل للمخلوق فهو من الخالق سبحانه وتعالى ، فله المثل الأعلى . فكل كمال حصل للمخلوق ، فالخالق أحق به ، وكل نقص ينزه عنه مخلوق ، فالحق أحق أن ينزه عنه ، ولهذا كان لله المثل الأعلى ، فإنه لا يقاس بخلقه ، ولا يمثل بهم ، ولا تضرب به الأمثال ، فلا يشترك هو والمخلوق بمثل ولا فى قياس. ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات الصفات لله تبارك وتعالى، بل صفات الكمال لازمة لذاته، يمتنع ثبوت ذاته بدون صفات الكمال اللازمة له، بل يمتنع تحقق ذات من الذات عريةً عن جميع الصفات، وهذا كله مبسوط فى غير هذا الموضع. فإذا قال : وجود الله ، وذات الله ، وعلم الله ، وقدرة الله ، وسمع الله ، وبصر الله ، وكلام الله ، ورحمة الله ، وغضب الله ، واستواء الله ، ونزول الله، ومحبة الله ، ونحو ذلك، كانت هذه الأسماء كلها حقيقة لله تعالى من غير أن يدخل فيها شىء من المخلوقات ، ومن غير أن يماثله فيها شىء من المخلوقات . وإذا قال. وجود العبد وذاته وماهيته وعلمه وقدرته وسمعه وبصره وكلامه واستواؤه ونزوله ، كان هذا حقيقة للعبد مختصة به ، من غير أن تماثل صفاته صفات

(١) [٣٥ / فاطر / ٤١] ونصها : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ .

الله تعالى . بل أبلغ من ذلك؛ أن الله أخبر أن في الجنة من المطاعم والمشارب والملابس والمناكح والمساكن ماذكره في كتابه . كما ذكر أن فيها لبنا وعسلا وخمرا ولحما وحريرا وذهباً وفضة وحورا وقصورا وغير ذلك . وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الدنيا مما في الآخرة إلا الأسماء . فتلك الحقائق التي في الجنة ليست مماثلة لهذه الحقائق التي في الدنيا ، وإن كانت مشابهة لها من بعض الوجوه، والاسم يتناولهما حقيقة، ومعلوم أن الخالق أبعد عن مشابهة المخلوق ، والمخلوق عن مشابهة الخالق . فكيف يجوز أن يظن أن فيما أثبته الله تعالى من أسمائه وصفاته مماثلا لمخلوقاته ، وأن يقال ليس ذلك بحقيقة ! وهل يكون أحق بهذا الأسماء الحسنى والصفات العليا من رب السموات والأرض، مع أن مباينتهما للمخلوقات أعظم من مباينة كل مخلوق لكل مخلوق ؟ والجاهل يضل بأن يقول : العرب إنما وضعوا لفظ (الاستواء) لاستواء الإنسان على السرير أو الفُلْك ، أو استواء السفينة على الجوديّ ، ولنحو ذلك من استواء بعض المخلوقات . فهو كما يقول القائل : إنما وضعوا لفظ السمع والبصر والكلام لما يكون محله حدقة وأجفاناً ، وأصمخة وآذاناً ، وشفتين ولساناً ، وإنما وضعوا لفظ العلم والرحمة والإرادة لما يكون محله مضغة لحم وفؤاد ، وهذا كله جهل منه . فإن العرب إنما وضعت للإنسان ما أضافت إليه ، فإذا قالت سمع العبد وبصره وكلامه وعلمه وإرادته ورحمته مما يختص به ، يتناول ذلك خصائص العبد . وإذا قيل سَمْعُ الله وبصره وكلامه وعلمه وإرادته ورحمته ، كان هذا متناولا لما يختص به الرب، لا يدخل في ذلك شيء من خصائص المخلوقين . وكذلك إذا قيل استواء الرب ، فهذا الاستواء المضاف إلى الله كالعلم والسمع والبصر المضاف إلى الله . لا يجوز أن يتناول ذلك شيئاً من خصائص المخلوقين وهؤلاء الجهال يمثلون في ابتداء فهمهم صفات الخالق بصفات المخلوق ، ثم ينفون ذلك ويعطلونه ، فلا يفهمون من ذلك إلا ما يختص بالمخلوق ، وينفون مضمون ذلك ، فيكونون قد جحدوا ما يستحقه الرب من خصائصه وصفاته ، وألحدوا في أسماء الله تعالى وآياته ،

وخرجوا عن القياس العقلىّ ، والنص الشرعى ، فلا يبقى بأيديهم لامعقول صريح ، ولامنقول صحيح . ثم لا بد لهم من إثبات بعض مايثبته أهل الإثبات من الأسماء والصفات : فإذا أثبتوا البعض ، ونفوا البعض ، قيل لهم : ماالفرق بين ما أثبتموه ومانفيتموه؟ ولم كان هذا حقيقة، ولم يكن هذا حقيقة؟ لم يكن لهم جواب أصلا ، وظهر بذلك جهلهم وضلالهم شرعا وعقلا . ونظائر هذا كثيرة ، فمن ظن أن أسماء الله تعالى وأسماء صفاته ، إذا كانت حقيقة لزم أن يكون مماثلا للمخلوقين ، وأن تكون صفاته مماثلة لصفاتهم ، كان من أجهل الناس ، وكان أول كلامه سفسطة ، وآخره زندقة لأنه يقتضى نفى جميع أسماء الله وصفاته ، وهذا هو غاية الزندقة والإلحاد . وإن فرق بين صفة وصفة ، مع تساويهما فى أسباب الحقيقة والمجاز ، كان متناقضاً فى قوله ، متهافتاً فى مذهبه مشابهاً لمن آمن ببعض الكتاب ، وكفر ببعض .

وإذا تأمل اللبيب الفاضل هـذه الأمور ، تبين له أن مذهب السلف والأئمة فى غاية الاستقامة والسداد والصحة والاطّراد، وأنه مقتضى المعقول الصريح ، والمنقول الصحيح. وأن من خالفه ، كان مع تناقض قوله المختلف الذى يؤفك عنه من أفك ، خارجاً عن موجب العقل والسمع ، مخالفاً للفطرة والشرع ، والله يتم نعمته علينا وعلى سائر إخواننا المسلمين المؤمنين ، ويجمع لنا ولهم خير الدنيا والآخرة ـ انتهى ـ .

فائدة

فى منشأ هذا التعطيل

وبيّن رضى الله عنه ، فى فتوى أخرى له فى الصفات ، مورد هذا التعطيل . حيث قال رضى الله عنه :

ثم أصل هذه المقالة إنما هو مأخوذ عن تلامذة اليهود والمشركين ، وضلّال الصابئين، فإن أول من حفظ عنه أنه قال هذه المقالة ـ أعنى أن الله ليس على العرش حقيقة وإنما (استوى)

استولى ونحو ذلك ـ أول ماظهرت هذه المقالة من جعد بن درهم وأخذهاعنه الجهم بن صفوان وأظهرها . فتنسب مقالة الجهمية إليه، والجعد أخذ مقالته عن أبان بن سمعان وأخذها أبان من طالوت ابن أخت لبيد بن أعصم ، وأخذها طالوت من لبيد بن أعصم اليهودىّ الساحر الذى سحر النبىّ ﷺ . وكان الجعد هذا ـ فيما قيل ـ من أهل حرّان ، وكان فيهم خلق كثير من الصابئة والفلاسفة ، بقايا أهل دين النمروذ الكنعانيين ، الذين صنف بعض المتأخرين فى سحرهم وكانوا يعبدون الكواكب ، ويبنون لها الهياكل ، ومذهبهم فى الرب أنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية ، أو مركبة منهما ، وهم الذين بُعث إبراهيم الخليل ﷺ إليهم ، فيكون الجعد قد أخذها عن الصابئة الفلاسفة ، وأخذها الجهم أيضاً ـ فيما ذكره الإمام أحمد وغيره ـ من السمنية بعض فلاسفة الهند ، وهم الذين يجحدون من العلوم ما سوى الحسِّيات ، فهذه أسانيد الجهم ترجع إلى اليهود والصائبين والمشركين . والفلاسفة الضالون هم إما من الصابئين ، وإما من المشركين . ثم لما عرِّبت الكتب الرومية فى حدود المئة الثانية ، زاد البلاء مع ما ألقى الشيطان فى قلوب الضلال ، ابتداء من جنس ما ألقاه فى قلوب أشباههم . ولما كان فى حدود المئة الثانية ، انتشرت هذه المقالة التى كان السلف يسمونها مقالة الجهمية ، بسبب بشر بن غياث المريسى وطبقته ، وكلام الأئمة ـ مثل مالك رضى الله عنه وسفيان بن عيينة وأبى يوسف والشافعىّ وأحمد وإسحق والفضيل بن عياض وبشر الحافى وغيرهم ـ فى بشر المريسىّ هذا كثيرٌ فى ذمه وتضليله . وهذه التأويلات الموجودة اليوم بأيدى الناس ، مثل أكثر التأويلات التى ذكرها أبو بكر بن فورك فى كتاب (التأويلات) وذكرها أبو عبد الله محمد بن عمر الرازىّ فى كتابه الذى سماه (تأسيس التقديس) ويوجد كثير منها فى كلام خلق غير هؤلاء ، مثل أبى على الجبائى وعبد الجبار بن أحمد الهمدانىّ وأبى الحسين البصرىّ وابن عقيل وأبى حامد الغزالىّ وغيرهم . وهى بعينها التأويلات التى ذكرها بشر المريسىّ فى كتابه . وإن كان قد يوجد فى كلام بعض هؤلاء رد التأويل وإبطاله أيضاً ، ولهم كلام حسن فى أشياء ، فإنما بَيَّنْتُ أن عين

تأويلاتهم هى عين تأويلات المريسى . وعلمنا ذلك بكتاب (الرد) الذى صنفه عثمان بن سعيد الدارمىّ أحد الأئمة المشاهير فى زمن البخارىّ ، صنف كتاباً سماه (نقض عثمان بن سعيد ، على الكاذب العنيد ، فيما افترى على الله فى التوحيد) حكى فيه هذه التأويلات بأعيانها عن بشر المريسىّ ، بكلام يقتضى أن المريسىّ أقعد بها ، وأعلم بالمعقول والمنقول من هؤلاء المتأخرين الذين اتصلت إليهم من جهته ، ثم ردها عثمان بن سعيد بكلام ، إذا طالعه العاقل الذكىّ ، علم حقيقة ما كان عليه السلف فتبين له ظهور الحجة لطريقهم ، وضعف حجة من خالفهم . ثم إذا رأى الأئمة ـ أئمة الهدى ـ قد أجمعوا على ذم المريسية ، وأكثرهم كفّروهم، أوضللوهم ، وعلم أن هذا القول السارى فى هؤلاء المتأخرين ، هو مذهب المريسىّ ـ تبين له الهدى لمن يريد الله هدايته ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم قال رضى الله عنه :

ومذهب السلف بين التعطيل وبين التمثيل ، فلا يمثلون صفات الله بصفات خلقه ، كما لا يمثلون ذاته بذات خلقه ، ولا ينفون عنه ماوصف به نفسه ، أووصفه به رسوله ، فيعطلون أسماءه الحسنى ، وصفاته العليا ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، ويلحدون فى أسماء الله وآياته . وكل واحد من فريقى التعطيل والتمثيل ، فهو جامع بين التعطيل والتمثيل . أما المعطلون ، فإنهم لم يفهموا من أسماء الله وصفاته إلا ماهو اللائق بالمخلوق . ثم شرعوا فى نفى تلك المفهومات ، فقد جمعوا بين التمثيل والتعطيل ، مثلوا أولًا ، وعطلوا آخراً ، وهذا تشبيه وتمثيل منهم للمفهوم من أسمائه وصفاته ، بالمفهوم من أسماء خلقه وصفاتهم ، وتعطيل لما يستحقه هو سبحانه من الأسماء والصفات اللائقة بالله سبحانه وتعالى . فإنه إذا قال القائل : لو كان الله فوق العرش للزم إما أن يكون أكبر من العرش أو أصغر أو مساوياً ، وكل ذلك محال ، ونحو ذلك من الكلام ، فإنه لم يفهم من كون الله على العرش إلا ما يثبت لأى جسم كان ، على أى جسم كان ، وهذا اللازم تابع لهذا المفهوم ، أما استواء يليق بجلال الله ، ويختص به ، فلا يلزمه

شىء من اللوازم الثلاثة ، كما يلزم سائر الأجسام . وصار هذا مثل قول الممثل : إذا كان للعالم صانع ، فإما أن يكون جوهراً أو عرضاً ، إذ لا يعقل موجود إلا هذان . أو قوله : إذا كان مستوياً على العرش ، فهو مماثل لاستواء الإنسان على السرير أو الفُلْك ، إذ لا يعلم الاستواء إلا هكذا . فإن كليهما مثّل ، وكلاهما عطّل حقيقة ما وصف الله به نفسه ، وامتاز الأول بتعطيل كل مسمى للاستواء الحقيقىّ ، وامتاز الثانى بإثبات (استواء) هو من خصائص المخلوقين ، والقول الفاصل هو ما عليه الأمة الوسط ، من أن الله مستو على عرشه استواءً يليق بجلاله ويختص به ، فكما أنه موصوف بأنه بكل شىء عليم ، وعلى كل شىء قدير ، وأنه سميع بصير ، ونحو ذلك ، ولا يجوز أن نثبت للعلم والقدرة خصائص الأعراض التى لعلم المخلوقين وقُدَرهم ، فكذلك هو سبحانه فوق العرش ، ولا نثبت لفوقيته خصائص فوقية المخلوق على المخلوق ولوازمها .

واعلم أنه ليس فى العقل الصحيح ، ولا فى النقل الصريح ، ما يوجب مخالفة الطريقة السلفية أصلًا ، لكن هذا الموضع لا يتسع للجواب عن الشبهات الواردة عن الحق ، فمن كان فى قلبه شبهة وأحبّ حلها ، فذلك سهل يسير ـ انتهى كلامه ـ .

ومن أحاط عقله بهذه الغرر ، علم براءة ساحة السلف مما رموا به من التجسيم . وفى هذه النفائس من الفوائد ما يشفع لدى الواقف بطوله .

الثالث : يطلق العرش على معانٍ : السرير ، ومنه آية (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)(١) . والملك ، يقال : ثل عرشهم . وسقف البيت ، ومنه آية : (وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا)(٢)

---

(١) [٢٧ / النمل / ٢٣] ونصها : إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ .

(٢) [٢ / البقرة / ٢٥٩] ونصها : أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ، =

obeikandl.com

وحديث (كالقنديل المعلق بالعرش) . أو البناء ، ومنـــه : (وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ)[1] أي يبنون . ومنه : العريش ، وهو ما يستظل به . والعرش المضاف إلى الله تعالى لا يحدّ .

قال فى القاموس : العرش ، عرش الله تعالى ، ولا يحدّ ـ انتهى ـ .

وقال الراغب : عرش الله عز وجل مما لا يعلمه البشر إلا بالاسم على الحقيقة ، ولذا لم يصح فى صفته حديث ، وكل ما روى فى ذلك فليس من مرويات الصحاح .

قال البيهقيّ فى كتاب (الأسماء والصفات) : وأقاويل أهل التفسير على أن العرش هو السرير ، وأنه جسم مجسم ، خلقه الله تعالى ، وأمر ملائكته بحمله ، وتعبّدهم بتعظيمه والطواف به ، كما خلق فى الأرض بيتاً ، وأمر بنى آدم بالطواف به واستقباله فى الصلاة ، وفى أكثر الآيات دلالة على صحة ما ذهبوا إليه ، وفى الأخبار والآثار الواردة فى معناه دليل على صحة ذلك ـ انتهى ـ .

وقال الحافظ الذهبيّ فى كتاب (العلوّ) : اعلم أن الله عز وجل ، قد أخبرنا ، وهو

= قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ، قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ، وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ، وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

و [١٨ / الكهف / ٤٢] ونصها : وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا .

(١) [٧ / الأعراف / ١٣٧] ونصها : وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ الْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا الَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ، وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ، وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ .

أصدق القائلين ، بأن عرش بلقيس عرش عظيم ، فقال : (وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ)(١) ثم ختم الآية بقوله: (اللَّهُ لَآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ)(٢)، فكان عرشها عظيما بالنسبة إليها ، وما نحيط الآن علماً بتفاصيل عرشها ولا بمقداره ولا بماهيته . ثم قال : فما الظن بما أعد الله تعالى من السُّرُرِ والقصور فى الجنة لعباده ، فما الظن بالعرش العظيم الذى اتخذه العلىّ العظيم لنفسه فى ارتفاعه وسعته وقوائمه وماهيته وحملته الحافِّين من حوله ، وحسنه ورونقه وقيمته ؟ اسمع وتعقل ما يقال ، والجأ إلى الإيمان بالغيب ، فليس الخبر كالمعاينة ، فالقرآن مشحون ، بذكر العرش ، وكذلك الآثار ، بما يمتنع أن يكون المراد به (الملك) . فدع المكابرة والمراءَ ، فإن المراءَ فى القرآن كفر . آمنا بالله واشهد بأنّا مسلمون . لا إله إلا الله الحليم الكريم . لا إله إلا الله رب العرش العظيم . لا إله إلا الله رب السموات السبع ورب العرش الكريم . الحمد لله رب العالمين . انتهى كلام الذهبىّ رحمه الله تعالى ـ .

الرابع ـ سئل الشيخ تقىّ الدين بن تيمية، عليه الرحمة والرضوان ، عن العرش : هل هو كرى أم لا ، فإذا كان كريًّا والله من ورائه محيط به بائن عنه ، فما فائدة توجه العبد إلى الله سبحانه حين الدعاء والعبادة، فيقصد العلوّ دون غيره ، إذ لافرق حينئذ بين قصد جهة العلوّ وغيرها من الجهات التى تحيط بالداعى ، ومع هذا نجد فى قلوبنا قصداً يطلب العلوّ ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة . فأخبرنا عن هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا وقد فطرنا عليها .

فأجاب رحمه الله بقوله :

إنّ لقائل أن يقول : لم يثبت بدليل يعتمد عليه أن العرش فلك من الأفلاك المستديرة الكرّية، وإنما ذكره طائفة من المتأخرين الذين نظروا فى علم الهيأة، فرأوا أن الأفلاك تسعة، وأن التاسع ، وهو الأطلس، محيط بها، وهو الذى يحركها الحركة الشرقية، وإن كان لكل

(١) انظر الحاشية رقم ١ ص ٢٧٣٧ .

(٢) [٢٧ / النمل / ٢٦] .

فلك حركة تخصه ، ثم سمعوا فى أخبار الأنبياء ذكر عرش الله سبحانه وكرسيّه والسموات السبع ، فقالوا (بطريق الظن) : إن العرش هو الفلك التاسع ، لا عتقادهم أنه ليس وراء ذلك شيء ، إما مطلقاً وإما أنه ليس وراءه مخلوق . ثم إن منهم من رأى أنه هو الذى يحرك الأفلاك كلها ، فجعلوه مبدأ الحوادث ، وربما سماه بعضهم الروح أو النفس . وجعله بعضهم هو اللوح المحفوظ ، وبعض الناس ادعى أنه علم ذلك بطريق الكشف ، وذلك غير صحيح ، بل أخذه من هؤلاء المتفلسفة ، كما فعل أصحاب (رسائل إخوان الصفاء) . والأخبار تدل على أن العرش مباين لغيره من المخلوقات ، وأنه قبل السموات والأرض . فقد ثبت فى صحيح البخارىّ[1] أنه ﷺ قال : كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء ، وكتب فى الذكر كل شيء ، وخلق السموات والأرض ، وأن له قوائم ـ كما فى حديث[2] أبى سعيد : فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش . وقد استدل من قال إنه مقبب ، بما رواه أبو داود[3] من قوله عليه الصلاة والسلام (وإن الله تعالى على عرشه ، وإن عرشه على سمواته ،

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٥٩ ـ كتاب بدء الخلق ، ١ ـ باب ما جاء فى قول الله تعالى: وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ، حديث ١٥٠٦ عن عمران بن حصين .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ٢٥ ـ باب قول الله تعالى: وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، حديث رقم ١١٩٣ ونصه ، عن أبى سعيد الخدرىّ عن النبىّ ﷺ قال « الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش . فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور » .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنّة ، ١٨ ـ باب فى الجهمية ، حديث رقم ٤٧٢٦ ونصه : عن جبير بن مطعم قال : أتى رسولَ الله ﷺ أعرابىٌّ فقال : يا رسول الله ! جهدت الأنفس وضاعت العيال ونهكت الأموال وهلكت الأنعام ، فاستسق الله لنا =

وسمواته فوق أرضه هكذا ـ وقال بأصابعه مثل القبة ـ) . وهـــذا لا يدل على أنه فلك من الأفلاك ، ولا مستدير مثل ذلك، لـكن لفظ (القبة) يستلزم استدارة من العلوّ، لا من جميع الجوانب، إلا بدليل منفصل. ولفظ (الفلك) يستدل به على الاستدارة مطلقاً، كما قال ابن عباس فى : (كُلٌّ فِى فَلَكٍ)(١) : فى فلـكة مثل فلـكة المغزل. وأما لفظ (القبة) فإنه لا يتعرض لهذا المعنى ، لا بنفى ولا إثبات ، لـكن يدل على الاستدارة من العلوّ .

واعلم أن العرش ، سواء كان هذا الفلك التاسع ، أو جسماً محيطاً به ، أو كان فوقه من جهة وجه الأرض ، محيط به، أو قيل فيه غير ذلك، فيجب أن يعلم أن العالم العلوىّ والسفلىّ بالنسبة إلى الخالق تعـالى فى غاية الصغر ، كما قال تعالى : وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّـهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ، سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٢) .

وفى الصحيحين(٣) عن النبىّ ﷺ أنه قال: يقبض الله تبارك وتعالى الأرض يوم القيامة

= فإنا نستشفع بك على الله ونستشفع بالله عليك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ويحك! أتدرى ما تقول » ؟ وسبّح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما زال يسبح حتى عرف ذلك فى وجوه أصحابه . ثم قال « ويحك ! إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه . شأن الله أعظم من ذلك. ويحك ! أتدرى ما الله؟ إن عرشه على سمواته لهـكذا » وقال بأصابعه مثل القبة عليه « وإنه ليئطّ أطيط الرحْل بالراكب » .

(١) [٢١ / الأنبياء / ٣٣] ونصها : وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ، كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

(٢) [٣٩ / الزمر / ٦٧] .

(٣) أخرجه البخـارىّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٣٩ ـ سورة الزمر ، ٢ ـ باب وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّـهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ، حديث رقم ٢٠٣٩ عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، حديث ٢٣ (طبعتنا) .

ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك . أين ملوك الأرض ؟ وفى الصحيحين[١] عن عبد الله بن عمر ، عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: يطوى الله عز وجل السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أنا الملك . أين الجبارون ، أين المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرضين بشماله ، ثم يقول : أنا الملك. أين الجبارون، أين المتكبرون؟ وفى لفظ[٢]: ويتميل رسول الله ﷺ على يمينه وعلى شماله ، حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفله شيء .

وفى رواية أخرى قال: قرأ على المنبر: وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ... الآية ـ قال : مطوية فى كفه ، يرمى بها كما يرمى الغلام بالكرة . ففى هذه الأحاديث وغيرها ، المتفق على صحتها ، ما يبيّن أن السموات والأرض وما بينهما بالنسبة إلى عظمته عز وجل ، أصغر من أن تكون ، مع قبضه لها ، إلا كالشيء الصغير فى يد أحدنا ، حتى يدحوها كما تدحى الكرة .

ثم قال فى الجواب: فما وصف الله تعالى من نفسه وأسمائه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم سميناه كما سماه ، ولم نتكلف علم ما سواه ، فلا نجحد ما وصف ، ولا نتكلف معرفة مالم يصف . وإذ كان كذلك، فهو قادر على أن يقبضها ويدحوها كالكرة. وفى ذلك من الإحاطة بها ما لا يخفى ، وإن شاء لم يفعل . وبكل حال فهو مباين لها ، ليس بمجانب لها . ومن

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١٩ ـ باب قول الله تعالى : لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ، حديث رقم ٢٦٠٠ .

وأخرجه مسلم فى : ٥٠ ـ كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، حديث ٢٤و٢٥(طبعتنا) وهذا لفظ مسلم .

(٢) نصه فى مسلم : حتى نظرت إلى المنبر يتحرك من أسفله شيء منه، حتى إنى لأقول : أساقط هو برسول الله ؟

وليس فيه (ويتميل رسول الله ﷺ على يمينه وعلى شماله) .

المعلوم أن الواحد منا ـ ولله المثل الأعلى ـ إذا كان عنده خردلة ؛ إن شاء قبضها ، فأحاطت بها قبضته ، وإن شاء لم يقبضها ، بل جعلها تحته ، فهو فى الحالين مباين لهـا ، وسواء قدر أن العرش هو محيط بالمخلوقات ، كإحاطة الكرة بما فيها أم قيل إنه فوقها وليس محيطاً بها كوجه الأرض الذى نحن عليها بالنسبة إلى جوفها ، وكالقبة بالنسبة إلى ماتحتها،أوغير ذلك ـ فعلى التقدير يكون العرش فوق المخلوقات ، والخالق سبحانه فوقه ، والعبد فى توجهه إليه عز وجل ، يقصد العلوّ ، دون التحت .

وتمام هـذا البحث بأن يقال : لا يخلو إما أن يكون العرش كريا كالأفلاك ، ويكون محيطاً بها ، وإما أن يكون فوقها ، وليس بكرىّ . فإن كان الأول ، فمن المعلوم ـ باتفاق من يعلم هذا ـ أن الأفلاك مستديرة كرية ، وأن الجهة العليا هى جهة المحيط ، وهو المحدود؛ وأن الجهة السفلى هى المركز ، وليس للأفلاك إلا جهتان : العلوّ والسفل فقط . وأما الجهات الست فهى للحيوان ، فإن له ست جوانب : يؤم جهة فتكون أمامه ، ويخلف أخرى فتكون خلفه ، وجهة تحاذى شماله ، وجهة تحاذى يمينه، وجهة تحاذى رأسه ، وجهة تحاذى رجليه . وليس لهذه الجهات فى نفسها صفة لازمة ، بل هى بحسب النسبة والإضافة ، فيكون يمين هذا ما يكون يسار هذا ، ويكون فوق هذا ما يكون تحت هذا ، لـكن جهة العلو والسفل للأفلاك لا تتغير ، فالمحيط هو للعلوّ ، والمركز هو السفل ، مع أن وجه الأرض التى وضعها الله تعالى للأنام، وأرساها بالجبال ، هو الذى عليه الناس والبهائم وغيرهما . فأما الناحية الأخرى منها فالبحر محيط بها ، وليس هناك شىء من الآدميين ومايتبعهم . ولو قدر أن هناك أحداً ، لـكان على ظهر الأرض ، ولم يكن مَن فى هذه الجهة تحت مَن فى هذه الجهة ، ولا مَن فى هذه تحت مَن فى هذه . كما أن الأفلاك محيطة بالمركز ، وليس أحـد جانبى الفلك تحت الآخر، ولا القطب الشمالىّ تحت الجنوبىّ ، ولا بالعكس، وإن كان الشمالىّ هو الظاهر لنا بحسب بعد الناس عن خط الاستواء ، فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلا ، كان ارتفاع القطب عنده

ثلاثين درجة ، وهو الذى يسمى عرض البلد . فكما أن جوانب الأرض المحيطة بها ، وجوانب الفلك المستدير ليس بعضها فوق بعض ولا تحته ، فكذلك من يكون على الأرض لا يقال إنه تحت أولئك ، وإنما هذا خيال يتخيله الإنسان ، وهو (تحتٌ) إضافىّ . كما لو كانت نملة تمشى تحت سقف ، فالسقف فوقها ، وإن كانت رجلاها تحاذيانه ، وكذلك من عُلق منكوسا ، فإنه تحت السماء ، وإن كانت رجلاه تلى السماء وكذلك قد يتوهم الإنسان إذا كان فى أحد جانبى الأرض أو الفلك ، أن الجانب الآخر تحته . وهذا أمر لا يتنازع فيه اثنان ممن يقول إن الأفلاك مستديرة . وهذا كما أنه قول أهل الهيأة والحساب ، فهو الذى عليه علماء المسلمين ، كما ذكره أبو الحسين المناوىّ وأبو محمد بن حزم وأبو الفرج ابن الجوزىّ وغيرهم . وهو المأخوذ من قول ابن عباس وغيره . ومن ظن أن من يكون فى الفلك من ناحية يكون تحته مَن فى الفلك من الناحية الأخرى فى نفس الأمر ، فهو متوهم عندهم . فإذا كان الأمر كذلك ، فإذا قدر أن العرش مستدير محيط بالمخلوقات كان هو أعلاها وسقفها وهو فوقها مطلقاً ، فلا يتوجه إليه وإلى ما فوقه الإنسان إلا من العلوّ . ومن توجه إلى الفلك الثامن أو التاسع مثلا من غير جهة العلوّ ، كان جاهلا باتفاق العقلاء ، فكيف بالتوجه إلى العرش أو إلى مافوقه ! وغايةمايقدرأن يكون كرىّ الشكل ،والله تعالى محيط بالمخلوقات كلها إحاطة تليق بجلاله ، فإن السموات السبع والأرض فى يده أصغر من الحمصة فى يد أحدنا . وأما قول القائل : إذا كان كريًّا ، والله من ورائه محيط بائن عنه ، فما الفائدة فى التوجه إلى العلوّ دون التحت ، ومع هذا نجد فى قلوبنا قصد العلوّ ؟ فيقال : هذا إنما ورد لتوهم أن نصف الفلك يكون تحت الأرض ، وتحت ما على وجه الأرض ، من الآدميين والبهائم ، وهذا غلط . فلو كان الفلك تحت الأرض من جهة ، لكان تحتها من كل جهة ، فكان يلزم أن يكون الفلك تحت الأرض مطلقاً ، وهذا قلب للحقائق إذ الفلك هو فوق الأرض مطلقاً ؛ وأهل الهيأة يقولون : لو أن الأرض مخروقة إلى ناحية

أرجلنا ، وألقى فى الخرق شىء ثقيل كالحجر ونحوه ، لكان ينتهى إلى المركز ، حتى لو ألقى من تلك الناحية حجر آخر ، لا لتقيا جميعاً فى المركز ، الذى هو النقطة المتوسطة فى كرة الأرض . ولو قدر أن إنسانين التقيا فى المركز بدل الحجر، لالتقت رجلاهما، ولم يكن أحدهما تحت الآخر ، بل كلاهما فوق المركز ، وكلاهما تحت الفلك . وإذا كان مطلوب أحدٍ ما فوق الفلك لم يطلبه إلا من الجهة العليا ، لأن مطلوبه من تلك الجهة أقرب ، لأنه لو قدر أن رجلا أو ملكا يصعد إلى السماء ، كان صعوده مما يلى رأسه ، ولا يقول عاقل إنه يخرق الأرض ثم يصعد من تلك الناحية ، أو يذهب يميناً أو شمالا ثم يصعد. ولو أن رجلا أراد مخاطبة القمر، فإنه لا يخاطبه إلا من الجهة العليا ، مع أنه قد يشرق ويغرب ، فكيف بما هو فوق كل شىء لا يأفل ولا يغيب سبحانه وتعالى . وكما أن حركة الحجر تطلب مركزها بأقصر طريق ، وهو الخط المستقيم ، فالطلب الإرادىّ الذى يقوم بقلوب العباد ، كيف يعدل عن الصراط المستقيم ؟

مطاب فى حديث الإدلاء

إلى أن قال :

وحديث الإدلاء ، الذى رواه أبو هريرة وأبو ذر ،قد رواه الترمذىّ[1] وغيره من حديث

(١) رواه الترمذىّ فى : ٤٤ ـ كتاب التفسير ، ٥٧ ـ سورة الحديد ، ونصه : عن قتادة ، حدثنا الحسن عن أبى هريرة قال : بينما نبىّ الله صلى الله عليه وسلم جالس وأصحابه إذ أتى عليهم سحاب . فقال نبىّ الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون ما هذا» ؟ فقالوا : الله ورسوله أعلم . قال « هذا العنان ، هذه روايا الأرض ، يسوقه الله تبارك وتعالى إلى قوم لا يشكرونه ولا يدعونه » قال « هل تدرون ما فوقكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإنها الرقيع ، سقف محفوظ وموج مكفوف » ثم قال « هل تدرون كم بينكم وبينها » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال « بينكم وبينها مسير خمسمائة سنة » ثم قال « هل تدرون =

الحسن عن أبي هريرة ، وهو منقطع ، فإن الحسن لم يسمع من أبي هريرة ، ولكن يقوّيه حديث أبي ذر المرفوع . فإن كان ثابتاً ، فمعناه موافق لهذا . فإن قوله عليه الصلاة والسلام : لو أدلى أحدكم بحبل لهبط على الله ، إنما هو تقدير مفروض ، أي لو وقع الإدلاء لوقع عليه ، لكن لا يمكن أن يدلى أحد على الله عز وجل شيئاً ، لأنه عال بالذات ، وإذا أُهْبط شيء إلى جهة الأرض وقف في المركز . والمقصود بيان إحاطة الخالق سبحانه ، كما بيّن أنه يقبض السموات ، ويطوى الأرض ، ونحو ذلك مما فيه بيان إحاطته تعالى ، ولهذا قرأ في تمام الحديث : هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ[1] . وهـذا كله على

= ما فوق ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن فوق ذلك سماءين ، ما بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عدّد سبع سموات ، ما بين كل سماءين كما بين السماء والأرض . ثم قال « هل تدرون ما فوق ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم قال « فإن فوق ذلك العرش . وبينه وبين السماء بُعْدَ مثل ما بين السماءين » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحتكم » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . فإنها الأرض » ثم قال « هل تدرون ما الذى تحت ذلك » ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم . قال « فإن تحتها الأرض الأخرى ، بينهما مسيرة خمسمائة سنة » حتى عدّد سبع أرضين ، بين كل أرضين مسيرة خمسمائة سنة . ثم قال « والذى نفس محمد بيده ! لو أنكم دليتم رجلا بحبل إلى الأرض السفلى ، لهبط على الله » .

ثم قرأ : هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ، وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ .

(قال أبو عيسى) : هذا حديث غريب من هذا الوجه .

قال : ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلىّ بن زيد قالوا : لم يسمع الحسن من أبي هريرة

(أقول) في سماع الحسن من أبي هريرة ، انظر تعليق السيد أحمد محمد شاكر على الحديث رقم ٧١٣٨ من مسند أحمد (طبعة المعارف) .

(١) [٥٧ / الحديد / ٣] .

تقدير صحته، فإن الترمذيّ لما رواه قال: وفسره بعض أهل العلم بأنه هبط على علم الله. وبعضُ الحلوليه والاتحادية يظن أن فيه ما يدل على زعمه الباطل من أنه سبحانه حالٌّ بذاته فى كل مكان ، أو أن وجوده وجود الأمكنة ونحو ذلك . وكذلك تأويله بالعلم غير مستقيم ، بل على تقدير ثبوته ، فالمراد به الإحاطة ، ونحن لا نتكلم إلا بما نعلم ، وما لم نعلمه أمسكنا عنه .

وقد فطر الله تعالى الناس على التوجه فى الدعاء إلى جهة العلوّ ، وقال تعالى : فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً، فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا[1]. فجاءت الشريعة بالعبادة والدعاء بما يوافق الفطرة. وقد ثبت فى الصحيحين[2] أنه ﷺ قال: إذا قام أحدكم إلى الصلاة فلا يبصق قبل وجهه ، فإن الله تعالى قبل وجهه ، ولا عن يمينه فإن عن يمينه ملكاً ، وليبصق عن يساره أو تحت رجله . وفى رواية : إنه أذن أن يبصق فى ثوبه . وفى حديث[3] أبى رزين

---

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] . . . لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٨ كتاب الصلاة ، ٣٣ ـ باب حك البزاق باليد من المسجد ، حديث ١٨٠ عن أنس .

و ٣٦ ـ باب ليبزق عن يساره أو تحت قدمه اليسرى ، حديث ٢٧٢ عن أبى سعيد الخدرىّ.

و ٣٨ ـ باب كفارة البزاق فى المسجد ، حديث ٢٧١ عن أبى هريرة .

وأخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث رقم ٧٤ (طبعتنا) من حديث طويل فى عدة معانٍ ، عن جابر بن عبد الله .

(٣) أخرجه أبو داود فى : ٣٩ ـ كتاب السنة ، ١٩ ـ باب فى الرؤية ، حديث ٤٧٣١

وأخرجه ابن ماجة فى المقدمة ، ١٣ ـ باب فيما أنكرت الجهمية ، حديث رقم ١٨٠ (طبعتنا) ونصه : عن أبى رزين قال : قلت : يا رسول الله ! أنرى الله يوم القيامة ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال « يا أبا رزين ! أليس كلكم يرى القمر مُخْلِياً به » ؟ قال قلت : بلى . قال « فالله أعظم ، وذلك آية فى خلقه » . وكذا فى أبى داود .

المشهور : لما أخبر ﷺ أنه ما من أحد إلا سيخلو به ربه ، فقال له أبو رزين : كيف يسعنا يا رسول الله وهو واحد ونحن جمع ؟ فقال : سأنبئك بمثل ذلك فى آلاء الله تعالى : هذا القمر آية من آيات الله تعالى ، كلكم يراه مخلياً به ، فالله أكبر . وفى الصحيحين[١] : لينتهين أقوام عن رفع أبصارهم فى الصلاة ، أو لا ترجع إليهم أبصارهم . واتفق العلماء على أن رفع المصلّى بصره إلى السماء منهىّ عنه . وروى محمد بن سيرين أن النبىّ ﷺ كان يرفع بصره فى الصلاة إلى السماء ، حتى نزل : ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَـٰشِعُونَ﴾[٢] : فكان بصره لا يجاوز موضع سجوده . فهذا مما جاءت به الشريعة تكميلا للفطرة ، لأن الداعى المأمور بالذل، لا يناسب حاله أن ينظر إلى ناحية من يدعوه . خلافاً للجهمية الذين لا يفرقون بين العرش وقعر البحر، وقد قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾[٣] . الآية ـ ثم بين تأويل[٤] (الحجرُ الأسود يمين الله فى الأرض فمن صافحه وقبله فكأنما صافح الله تعالى وقبل يمينه) وقال: قد ظنوا[٥] أن هذا وأمثاله محتاج إلى التأويل ، وهذا وهم ، لأنه لو كان هذا اللفظ ثابتاً عن

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ١٠ ـ كتاب الأذان ، ٩٢ ـ باب رفع البصر إلى السماء فى الصلاة ، حديث رقم ٥٤٧ عن أنس . وليس فى مسلم .

(٢) [٢٣ / المؤمنون / ٢] .

(٣) [٢ / البقرة / ١٤٤] ونصها : ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ، وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ، وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ، وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ .

(٤) نصه : الحجر يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده .

قال فى الجامع الصغير : خط (أى الخطيب) وابن عساكر عن جابر بإسناد ضعيف .

(٥) فى هامش المخطوطة : (أقول ممن ظنه الغزالىّ فى (فيصل التفرقة) اهـ . ق) .

النبيّ ﷺ فإنه صريح فى أن الحجرَ ليس هو من صفاته تعالى، وتقييده بالأرض يدل على أنه ليس هو يدَه على الإطلاق ، فلا تكون اليد حقيقة . وقوله:(فكأنما صافح الله تعالى) الخ صريح فى أن المصافح ليس مصافحًا له تعالى ، لأن المشبَّه ليس هو المشبه به .

إلى أن قال : فهذا كله بتقدير كرّية العرش ، وأما إذا قدر أنه ليس بكرىّ الشكل ، بل هو فوق العالم من الجهة التى هى وجه الأرض، وأنه فوق الأفلاك الكرية ، كما أن وجه الأرض الموضوع للأنام ، فوق نصف الأرض الكرىّ ، أو غير ذلك من المقادير التى يقدر فيها أن العرش فوق ما سواه ـ فعلى كل تقدير لايتوجه إلى الله تعالى إلا إلى العلوّ ، مع كونه على عرشه مباينًا لخلقه . وعلى ما ذكرناه لا يلزم شىء من المحذور والتناقض . وهذا يزيل كل شبهة تنشأ من اعتقاد فاسد ، وهو أن يظن أن العرش إذا كان كريًّا ، والله تعالى فوقه كما تقتضيه ذاته ، سبحانه عن مشابهة المخلوقين ـ وجب (فيما عند الزاعم) أن يكون سبحانه كريًّا ، ثم يعتقد أنه إذا كان كريًّا فيصح التوجه إلى ما هو كرى كالفلك التاسع من جميع الجهات ، وهذا خطأ ، فإن القول بأن العرش كرىّ لا يجوز أن يظن أنه مشابه للأفلاك فى أشكالها وأقدارها أو فى صفاتها ، بل قد تبين أنه سبحانه أعظم وأكبر من أن تكون المخلوقات عنده أصغر من الحمصة فى يد أحدنا . فإذا كانت الحمصة مثلا فى يد الإنسان أو تحته أو نحو ذلك ، هل يتصور عاقل ، إذا استشعر علوّ الإنسان على ذلك وإحاطته ، بأن يكون الإنسان كالفلك ؟ فالله تعالى ـ وله المثل الأعلى ـ أعظم من أن يظن به ذلك . وإنما يظنه الذين لم يقدروا الله (١) حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ . وإذا لم يكن كريًّا . فالأمر ظاهر مما تقدم ، وبهذا يظهر الجواب عن السؤال من وجوه متعددة ، والله تعالى أعلم .

---

(١) يشير إلى الآية [٣٩/الزمر/٦٧] ونصها: وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

وإنما أشبعنا الكلام ، فى هذا المقام ، لأنه من أصول العقائد الدينية ، ومهمات المسائل التوحيدية ، وقد كثر فيه تعارك الآراء ، وتصادم الأهواء ، ولم يأت جمهور المتكلمين المؤولين بشىء يعلق بقلب الأذكياء ، بل اجتهدوا فى إيراد التمحلات التى تأباها فطرة الله أشد الإباء ، فبقيت نفوس أنصار السنة المحققين ، مائلة إلى مذهب السلف الصالحين ، فإن الأئمة منهم ، كان عقدهم ما بيناه فلا تكن من الممترين ، والحمد لله رب العالمين .

وقوله تعالى : « يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ » أى يغطيه به ، يعنى أنه تعالى يأتى بالليل على النهار ، فيغطيه ويلبسه ، حتى يذهب بنوره ، ويصير الجو مظلماً ، بعد ما كان مضيئاً . قال الشهاب : وجوز جعل الليل والنهار مغشى على الاستعارة ، بأن يجعل غشيان مكان النهار وإظلامه بمنزلة غشيانه للنهار نفسه ، فكأنه لفّ عليه لفّ الغشاء ؛ أو شبه تغييب كل منهما ، بطريانه عليه ، بستر اللباس للابسه انتهى — .

ولم يذكر العكس للعلم به ، أو لأن اللفظ يحتملهما ، ولذلك قرئ « يَغْشَى ٱلَّيْلُ ٱلنَّهَارُ » بنصب الليل ، ورفع النهار « يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا » أى يعقبه سريعاً ، كالطالب له ، لا يفصل بينهما شىء . قال الرازىّ : وإنما وصف سبحانه هذه الحركة بالسرعة ، لأن تعاقب الليل والنهار إنما يحصل بحركة الفلك الأعظم ، وتلك الحركة أشد الحركات سرعة ، وأكملها شدة ، حتى إن الباحثين عن أحوال الموجودات قالوا : الإنسان إذا كان فى العدْوِ الشديد الكامل ، فإلى أن يرفع رجله ويضعها يتحرك الفلك الأعظم ثلاثة آلاف ميل ، وإذا كان الأمر كذلك ، كانت تلك الحركة فى غاية الشدة والسرعة ، فلهذا السبب قال تعالى : « يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا » ؛ « وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ » أى مذللات لما يراد منها من طلوع وغروب وسير ورجوع بقضائه وتصريفه . قال الشهاب : وسماه (أمراً) على التشبيه ؛ إذ جَعَلَ هذه الأشياء لكونها تابعة لتدبيره وتصريفه كما يشاء كأنهن مأمورات منقادة لأمره . ويصح حمله على ظاهره — انتهى — .

أي وهو الكلام ، فيكون تعالى أمر هذه الأجرام بالسير الدائم ، والحركة المستمرة إلى انقضاء الدنيا ، وخراب هذا العالم . وقد قرئ (وَالشَّمْسَ) وما بعده بالنصب عطفاً على (السموات) ونصب (مُسَخَّرَاتٍ) على الحال . وقرأها ابن عامر كلها بالرفع على الابتداء ، والخبر « أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ » أي هو الذي خلق الأشياء كلها ، وهو الذي صرفها على حسن إرادته ، وفسر الأمر بالقضاء والحكم .

تنبيهان :

الأول استخرج سفيان بن عيينة ، من هذا المعنى ، أن كلام الله عز وجل ليس بمخلوق، فقال : إن الله تعالى فرق بين الخلق والأمر ، فمن جمع بينهما فقد كفر . يعني أن من جعل الأمر الذي هو كلامه تعالى من جملة ما خلقه فقد كفر ، لأن المخلوق لا يقوم بمخلوق مثله . كذا في (اللباب) . قال في (الإكليل) : استدل به ابن عيينة على أن القرآن غير مخلوق ، أخرجه ابن أبي حاتم . لأن (الأمر) هو الكلام ، وقد عطفه على (الخلق) فاقتضى أن يكون غيره ، لأن العطف يقتضي المغايرة، وسبقه إلى هذا الاستنباط محمد بن كعب القرظي . انتهى.

الثاني : قال في اللباب : في الآية دليل على أنه لا خالق إلا الله عز وجل ، أي للحصر المستفاد من تقديم الظرف . ففيه رد على من يقول إن للشمس والقمر والكواكب تأثيرات في هذا العالم .

« تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أي تقدس وتنزه وتعالى وتعاظم . قال في (التاج) : سئل أبو العباس عن تفسير (تَبَارَكَ ٱللَّهُ) فقال : ارتفع ـ انتهى ـ .

ولما ذكر تعالى الدلائل الدالة على كمال القدرة والحكمة ، ليفردوه بالألوهية ، أمرهم بأن يدعوه وحده متذللين مخلصين فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٥٥] (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ، إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

«ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً» نصب على الحال، أى: ذوى تضرع وخفية، والتضرع (تفعّل) من (الضراعة) وهو الذل . والخفية (بضم الخاء وكسرها) مصدر خَفِيَ كرضى بمعنى اختفى ، أى : استتر وتوارى . وإنما طلب الدعاء مع تينك الحالتين لأن المقصود من الدعاء أن يشاهد العبد حاجته وعجزه وفقره لربه ذى القدرة الباهرة ، والرحمة الواسعة . وإذا حصل له ذلك ، فلابد من صونه عن الرياء ، وذلك بالاختفاء ، وتوصلاً للإخلاص .

فوائد :

فى هذه الآية مشروعية الدعاء ، بشرطَيْهِ المذكورين .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : ومن التضرع رفع الأيدى فى الدعاء ، فيستحب . وقد أخرج البزار عن أنس قال : رفع رسول الله ﷺ يديه بعرفة يدعو ، فقال أصحاب النبيّ صلى الله عليه وسلم: هذا الابتهال . ثم خاضت الناقة ، ففتح إحدى يديه فأخذها وهو رافع الأخرى ـ انتهى ـ .

وفى الصحيحين(١) عن أبى موسى الأشعرىّ قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء ، فقال رسول الله ﷺ : أيها الناس! اربعوا على أنفسكم، فإنكم لا تدعون أصمّ ولا غائباً. إن الذى تدعون سميع قريب ... الحديث .

أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٣١ ـ باب ما يكره من رفع الصوت فى التكبير ، حديث رقم ١٤٢٣ ونصه : عن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ . فكنا إذا أشرفنا على وادٍ هلّلنا وكبّرْنا ارتفعت أصواتنا . فقال النبيّ ﷺ « أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم . فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا . إنه معكم . إنه سميع قريب . تبارك اسمه وتعالى جدّه » .

وأخرجه مسلم فى : ٤٨ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٤ (طبعتنا).

وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن قال : إن كان الرجل، لقد جمع القرآن وما يشعر به الناس ؛ وإن كان الرجل، لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس؛ وإن كان الرجل، ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّوْر وما يشعرون به. ولقد أدركنا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يقدرون أن يعملوه في السر ، فيكون علانية أبدًا . ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، ومايسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم. وذلك أن الله تعالى يقول : ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً . وذلك أن الله ذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال : إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا(١).

وقال ابن جريج : يكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء ، ويؤمر بالتضرع والاستكانة .

وقال الناصر في (الانتصاف): وحسبك في تعين الإسرار في الدعاء اقترانه بالتضرع في الآية ، فالإخلال به كالإخلال بالضراعة إلى الله في الدعاء، وإن دعاء لا تضرّع فيه ولا خشوع، لقليل الجدوى. فكذلك دعاء لا خفية ولا وقار يصحبه. وترى كثيرًا من أهل زمانك يعتمدون الصراخ والصياح في الدعاء، خصوصاً في الجوامع، حتى يعظم اللغط ويشتدّ، وتستكّ المسامع وتستدّ ، ويهتز الداعي بالناس ، ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين : رفع الصوت في الدعاء، وفي المسجد ، وربما حصلت للعوامّ حينئذ رقة لا تحصل مع خفض الصوت ، ورعاية سمت الوقار ، وسلوك السنة الثابتة بالآثار . وما هي إلا رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء والأطفال، ليست خارجة عن صميم الفؤاد ، لأنها لو كانت من أصل ، لكانت عند اتباع السنة في الدعاء . وفي خفض الصوت به ، أوفر وأوفى وأزكى . فما أكثر التباس الباطل بالحق ، على عقولٍ كثيرة من الخلق . اللهم ! أرنا الحق حقًّا وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ـ انتهى ـ .

(١) [١٩ / مريم / ٣] .

وقد روى الحافظ أبو الشيخ فى (الثواب) عن أنس مرفوعاً : دعوة فى السرّ تعدل سبعين دعوة فى العلانية .

وقوله تعالى « إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ » أى : لا يحب دعاء المجاوزين لما أمروا به فى كل شىء ، ويدخل فيه الاعتداء بترك الأمرين المذكورين ، وهما التضرع والإخفاء دخولاً أولياً .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فى الآية كراهية الاعتداء فى الدعاء . وفسره زيد بن أسلم بالجهر ، وأبو مجلز بسؤال منازل الأنبياء ، وسعيد بن جبير بالدعاء على المؤمن بالسر . أخرج ذلك ابن أبى حاتم . ولا يخفى أن هذا جميعه مما يشمله الاعتداء .

وقد روى الإمام أحمد[١] وأبو داود أن سعدًا سمع ابنا له يدعو وهو يقول : اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها، ونحوًا من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها. فقال : لقدسألت الله خيرًا كثيرًا، وتعوّذتَ بالله من شرّ كثير، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنه سيكون قوم يعتدُون فى الدعاء (وفى لفظ: يعتدون فى الطهور والدعاء) ، وقرأ هذه الآية : ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ . . . الآية ـ وإن بحسبك أن تقول: اللهم إنى أسألك الجنةوما قرّب إليها من قول أو عمل ، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل .

وروى الإمام أحمد[٢] وأبو داود أن عبد الله بن مغفّل سمع ابنه يقول: اللهم! إنىأسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها . فقال : يابنىّ ! سل الله الجنة ، وعُذْ به من النار، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : يكون قوم يعتدون فى الدعاء والطهور .

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٧٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ١٤٨٣ (طبعة المعارف) .

وأخرجه أبو داود فى : ٨ ـ كتاب الوتر ، ٢٣ ـ باب الدعاء ، حديث رقم ١٤٨٠ .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٨٧ من الجزء الرابع (طبعة الحلبىّ) .

وأخرجه أبوداود فى: ١ ـ كتاب الطهارة، ٤٥ ـ باب الإسراف فى الماء، حديث رقم ٩٦

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٦] ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾

« وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا » قال أبو مسلم : أى لا تفسدوها بعد إصلاح الله إياها ، بأن خلقها على أحسن نظام ، وبعث الرسل ، وبيّن الطريق ، وأبطل الكفر .

وقال أبو حيّان : هذا نهى عن إيقاع الفساد فى الأرض ، وإدخال ماهيته فى الوجود بجميع أنواعه ، من إفساد النفوس والأموال والأنساب والعقول والأديان . ومعنى (بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا) : بعد أن أصلح الله خلقها على الوجه الملائم لمنافع الخلق ، ومصالح المكلفين . انتهى .

« وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا » أى : ذوى خوف من وبيل العقاب ، نظراً إلى قصور أعمالكم ؛ وطمع فيما عنده من جزيل الثواب ، نظراً إلى سعة رحمته ، ووفور فضله وإحسانه .

« إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ » أى : أن رحمته مرصدة للمحسنين الذين يتبعون أوامره ، ويتركون زواجره ، كما قال تعالى : وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ . . . الآية(١) .

لطائف

الأولى ـ قال فى (اللباب) : إن قلت : قال فى أول الآية (ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً) وقال هنا (وَٱدْعُوهُ) ، وهذا هو عطف الشيء على نفسه ، فما فائدة ذلك ؟

قلت : الفائدة فيه أن المراد بقوله تعالى (ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ) أى : ليكن الدعاء مقروناً

(١) [٧ / الأعراف / ١٥٦] ونصها : وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ .

بالتضرع والإخبات . وقوله (وَٱدْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً) أن فائدة الدعاء أحد هذين الأمرين، فـكانت الآية الأولى فى بيان شرط صحة الدعاء ، والآية الثانية فى بيان فائدة الدعاء . وقيل : معناه كونوا جامعين فى أنفسكم بين الخوف والرجاء فى أعمالـكم كلها ، ولا تطمعوا أنـكم وفيتم حق الله فى العبادة والدعاء ، وإن اجتهدتم فيهما .

الثانية ـ فى قوله تعالى (إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ . . .) الآية ـ ترجيح للطمع على الخوف ، لأن المؤمن بين الرجاء والخوف ، ولـكنه إذا رأى سعة رحمته وسبقها ، غلب الرجاء عليه . وفيه أيضاً تنبيه على ما يتوسل به إلى الإجابة ، وهو الإحسان فى القول والعمل . قال مطر الوراق : استنجزوا موعود الله بطاعته ، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين .

الثالثة ـ تذكير (قريب) ، لأن (الرحمة) بمعنى الرحم ، أو لأنه صفة لمحذوف ، أى أمر قريب ، أو على تشبيه بـ (فعيل) ، الذى هو بمعنى (مفعول) أو الذى هو مصدر كالنقيض والصهيل ، أو للفرق بين القريب من النسب والقريب من غيره ، فإنه يقال : فلانة قريبة منى لا غير ، وفى المكان وغيره يجوز الوجهان . أو لاكتسابه التذكير من المضاف إليه ، كما أن المضاف يكتسب التأنيث من المضاف إليه . وقد أوصلوا توجيه تذكيره إلى خمسة عشر وجهاً .

ولما ذكر تعالى أنه خالق السموات والأرض ، وأنه المتصرف الحاكم المدبر المسخر ، وأرشد إلى دعائه لأنه على ما يشاء قدير ـ نبه تعالى على أنه الرزّاق ، وأنه يعيد الموتى يوم القيامة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٧] (وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ، حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ، كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)

« وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ » أى قدام رحمته التى هى المطر ، فإن الصبا تثير السحاب ، والشمال تجمعه والجنوب تدرّه ، والدبور تفرقه . وهذا كقوله تعالى : (وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ)[١] وقوله سبحانه : (وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ)[٢] . قال الثعالبىّ : المبشرات التى تأتى بالسحاب والغيث .

تنبيه :

قال أبوالبقاء : يقرأ (نُشُرًا) بالنون والشين مضمومتين ، وهو جمع ، وفى واحده وجهان أحدهما (نَشُور) مثل صبور وصبر . فعلى هذا يجوز أن يكون (فعول) بمعنى (فاعل) ، أى: ينشر الأرض . ويجوز أن يكون بمعنى (مفعول) كركوب بمعنى مركوب ، أى : منشورة بعد الطى ، أو مُنْشَرَة أى مُحيَاة ، من قولك أنشر الله الميت فهو مُنْشَر ، ويجوز أن يكون جمع ناشر ، مثل بازل وبُزُل . ويقرأ بضم النون وإسكان الشين على تخفيف المضموم . ويقرأ نَشْرًا بفتح النون وإسكان الشين ، وهو مصدر نَشَرَ بعد الطىّ ، أو من قولك أنشر الله الميت فنشر أى عاش. ونصبه على الحال، أى ناشرة ، أو ذات نشر، كما تقول: جاء ركضاً أى راكضاً.

(١) [٤٢ / الشورى / ٢٨] . . . وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ .

(٢) [٣٠ / الروم / ٤٦] . . . وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ .

ويقرأ : بُشُرًا بالباء وضمتين ، وهو جمع بشير ، مثل قليب وقُلُب . ويقرأ كذلك إلا أنه بسكون الشين على التخفيف . ويقرأ بشرى مثل حُبْلَى ، أى : ذات بشارة ويقرأ بَشْرا بفتح الباء وسكون الشين، وهو مصدر بَشَرْته ـ أى بالتخفيف ـ إذا بشّرته ـ انتهى ـ .

« حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ » أى حملت «سَحَابًا ثِقَالًا» أى من كثرة ما فيها من الماء «سُقْنَـٰهُ» أى : السحاب . قال الشهاب : السحاب اسم جنس جمعىّ ، يفرق بينه وبين واحده بالتاء، كتمر وتمرة . وهو يذكر ويؤنث ويفرد وصفه، ويجمع. وأهل اللغة تسميه جمعاً، فلذا روعي فيه الوجهان ، فى وصفه وضميره ـ انتهى ـ . أى أرسلناه مع أن طبعه الهبوط « لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ » أى : لأجله ولمنفعته ، أو لإحيائه أو لسقيه . و (ميت) قرىء مشدداً ومخففاً « فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ »أى الضمير. والضمير فى (به) للبلد« فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ» أى المختلفة الأنواع، مع أن ماءها واحد. والمراد (بكل الثمرات) المعتادة فى كل بلد تخرج به على الوجه الذى أجرى الله العادة بها ودبرها . والضمير فى (به) للماء أو للبلد . « كَذَٰلِكَ » أى مثل ذلك الإخراج « نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ » أى نحييها بعد صيرورتها رميما يوم القيامة ، ينزل الله سبحانه وتعالى ماء من السماء ، فتمطر الأرض أربعين يوماً ، فتنبت منه الأجساد فى قبورها، كما ينبت الحب فى الأرض « لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ » أى إنما وصفنا ما وصفنا من هذا التمثيل لكى تتذكروا ، من أحوال الثمرات التى أعيدت إلى حالها بعد تلفها، أحوالَ الآخرة، فتعلموا أن من قدر على ذلك ، قدر على هذا بلا ريب .

تنبيه :

من أحكام الآية كما قال الجشمىّ : أنها تدل على عظم نعمه تعالى علينا بالمطر ، وتدل على الحجاج فى إحياء الموتى بإحياء الأرض بالنبات ، وتدل على أنه أراد من الجميع التذكر . وتدل على أنه أجرى العادة بإخراج النبات بالماء . وإلا فهو قادر على إخراجه من غير ماء . فأجرى العادة على وجوه دبرها عليها على ما نشاهده ، لضرب من المصلحة ديناً ودنيا .

ومنها إذا رأى الأرض الطيبة تزرع دون الأرض السبخة ، وأنهـا قطع متجاورات ، علم فساد التقليد ، وأنه يجب أن يتفحص عن الحق حتى يعتقده . ومنها أنه إذا زرع وعلم وجوب حفظه من المبطلات ، علم وجوب حفظ الأعمال الصالحة من المحبطات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٥٨] ﴿ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ، وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ، كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴾

« وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ » أى : الأرض الكريمة التربة « يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ » أى يخرج نباته وافياً حسناً غزير النفع بمشيئته وتيسيره « وَٱلَّذِى خَبُثَ » أى كالحرّة ، وهى الأرض ذات الحجارة السود . وكالسبخة (بكسر الباء) وهى الأرض ذات الملح « لَا يَخْرُجُ » أى : نباته « إِلَّا نَكِدًا » أى : قليلا ، عديم النفع . يقال : عطاء نكد ، أى قليل لا خير فيه ، وكذا رجل نكد . قال[١] :

فأعطِ ما أعطيتَـه طيِّباً لا خيرَ فى المَنْكُودِ والنَّاكِدِ

وقال :

لا تُنْجِزِ الوَعْدَ إن وَعَدْتَ.وإن أعطيتَ ، أعطيتَ تافِهاً نَكِدا

تنبيه :

قال ابن عباس فى الآية : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر .

وقال قتادة : المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله ، وانتفع به . كالأرض الطيبة أصابها الغيث ، فأنبتت . والكافر بخلاف ذلك . وهذا كما فى الصحيحين[٣] عن أبى موسى قال ، قال رسول الله ﷺ : مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير ، أصاب

(١) قال فى اللسان : والنَّكد والنُّكْد قلة العطاء ، وأن لا يهنأه من يعطاه . وأنشد البيت :

(٢) أخرجه البخارىّ فى : ٣ ـ كتاب العلم ، ٢٠ ـ باب فضل من عَلِمَ وعلّم ، حديث ٦٨ وأخرجه مسلم فى : ٤٣ ـ كتاب الفضائل ، حديث ١٥ (طبعتنا) .

أرضاً ، فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقُه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعَلِمَ وعلَّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أُرسلتُ به .

لطيفة :

قال أبو البقاء : يقرأ (يَخْرُجُ نَبَاتُهُ) بفتح الياء وضم الراء ورفع النبات . ويقرأ كذلك إلا أنه بضم الياء، على مالم يسم فاعله . ويقرأ بضم الياء وكسر الراء ونصب النبات أي: فيخرج اللهُ أو الماء . ثم قال: ويقرأ (نَكِدًا) بفتح النون وكسر الكاف، وهو حال، ويقرأ بفتحهما على أنه مصدر أي: ذا نكد . ويقرأ بفتح النون وسكون الكاف وهو مصدر أيضاً، وهو لغة ويقرأ يُخرج بضم الياء وكسر الراء ، ونكداً مفعوله .

« كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْأَيَٰتِ » أي : نبين وجوه الحجج ونرددها ونكررها « لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ » يعني كما ضربنا هذا المثل ، كذلك نبين الآيات الدالة على التوحيد والإيمان آية بعد آية ، وحجة بعد حجة ، لقوم يشكرون الله تعالى على إنعامه عليهم بالهداية، وأَنْ جنَّبهم سبيل الضلالة . وإنما خص الشاكرين بالذكر لأنهم هم الذين انتفعوا بسماع القرآن .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٥٩] (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ، إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

«لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ » اعلم أن الله تعالى ، لما ذكر في أول السورة قصة آدم ، وما اتصل بها من آثار قدرته، وغرائب صنعته الدالة على توحيده وربوبيته، وأقام الحجة الدامغة على صحة البعث بعد الموت ـ أتبع ذلك بقصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما جرى لهم مع أممهم . قال الرازيّ : وفيه فوائد :

أحدها : التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبينات ، ليس من خواص قوم النبيّ صلى الله عليه وسلم ، بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة فى جميع الأمم السالفة ، والمصيبة إذا عمت خفت ، فكان ذكر قصصهم ، وحكاية إصرارهم وعنادهم ، يفيد تسلية للنبيّ ﷺ ، وتخفيف ذلك على قلبه .

ثانيها : أنه تعالى يحكى فى هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن فى الدنيا ، والخسارة فى الآخرة ، وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة ، وذلك يقوى قلوب المحقين ، ويكسر قلوب المبطلين .

وثالثها : التنبيه على أنه تعالى ، وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ، ولكنه لا يهملهم ، بل ينتقم منها على أكمل الوجوه .

ورابعها : بيان أن هذه القصص دالة على نبوة محمد ﷺ ، لأنه كان أميًّا ، وما طالع كتاباً ، ولا تلمذ أستاذاً . فإذا ذكر هذه القصص على الوجه من غير تحريف ولا خطأ ، دلّ ذلك على أنه إنما عرفها بالوحى من الله تعالى .

ونوح عليه السلام هو ابن لامَكَ بن مَتُوشَالَحَ بن أَخْنُوخَ بن يَارَدَ بن مَهْلَئِيل بن قَيْنَانَ ابن أَنُوشَ بن شيث بن آدم عليه السلام . هكذا نسبه ابن إسحق وغير واحد من الأئمة ، وأصله من التوراة .

ومعنى (أرسلنا) بعثنا ، وهو أول نبيّ بعثه الله بعد إدريس . كذا فى (اللباب) . وإدريس هو أخنوخ ـ فيما يزعمون ، قاله ابن كثير ـ : قال محمد بن إسحق : ولم يلق نبيّ من قومه من الأذى مثل نوح ، إلا نبيّ قتل . وقال يزيد الرقاشى : إنما سمى نوحاً لكثرة ما ناح على نفسه ـ انتهى ـ . وفيه نظر . لأنه إنما يصح ما ذكره ، لو كان (نوح) لقباً مع وجود اسم له غيره ، واللفظ عربيًّا ، لمناسبة الاشتقاق . أما وهو اسمه الوضعىّ ، واللفظ غير عربىّ ، فلا . وفى كتاب (تأويل الأسماء الواقعة فى الكتب السالفة) أن نوحاً معناه راحة أو سلوان ، فتثبّتْ .

وكان ، قبل بعثة نوح عليه السلام ، قوم عرفوا الله وعبدوه خصوصاً فى عائلة شيث عليه السلام ، ثم فسد نسل شيث أيضاً ، واختلطوا مع الأشرار ، وامتلأت الأرض من جرائمهم ، وزاغوا عن الصراط المستقيم ، وصاروا يعبدون الأوثان والأصنام ، فأرسل الله تعالى إليهم نوحاً عليه السلام ، ليدلهم على طريق الرشاد .

قال ابن كثير : قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير : كان أول ما عبدت الأصنام أن قوماً صالحين ماتوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صور أولئك فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم . فلما طال الزمان جعلوا أجساداً على تلك الصور ، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين : وداً وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا . فلما تفاقم الأمر بعث الله سبحانه ـ وله الحمد والمنة ـ رسوله نوحاً فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له « فَقَالَ يَٰقَوْمِ » أى : الذين حقهم أن يشاركونى فى كمالاتى « ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ » أى : مستحق للعبادة فى الوجود « غَيْرُهُۥٓ » قرئ بالحركات الثلاث ، فالرفع صفة لإله ، باعتبار محله الذى هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية ، وبالجر على اللفظ ، وبالنصب على الاستثناء ، وحكم (غير) حكم الاسم الواقع بعد (إلا) ، أى : ما لكم من إله إلا إياه « إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ » أى: إن تركتم عبادته أو عبدتم غيره « عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ » هو يوم القيامة إذا لقيتم الله وأنتم مشركون به ، أو يوم نزول العذاب عليهم ، وهو الطوفان . ووصف اليوم بـ (العظم) لبيان عظم ما يقع فيه ، وتكميل الإنذار .

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : فما موقع الجملتين بعد قوله (ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ) قلت : الأولى ـ بيان لوجه اختصاصه بالعبادة ، والثانية ـ بيانٌ للداعى إلى عبادته ، لأنه هو المحذور عقابه ، دون ما كانوا يعبدونه من دون الله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٠] (قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ)

« قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ » أى : الأشراف ، أو الجماعة ، أو ذوو الشارة والتجمع « إِنَّا لَنَرَىٰكَ » أى : بأمرك بعبادة الله ، وترك عبادة غيره وتخويف العذاب على ترك عبادة الله ، وعلى عبادة غيره « فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ » أى : فى ذهاب عن طريق الحق والصواب ، لكونه خلاف ما وجدنا عليه آباءنا . قال ابن كثير : وهكذا حال الفجار ، إنما يرون الأبرار فى ضلالة ، كقوله : وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ(١) . وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَـٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ(٢) إلى غير ذلك من الآيات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦١] (قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

« قَالَ يَـٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَـٰلَةٌ وَلَـٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٢] (أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

« أُبَلِّغُكُمْ رِسَـٰلَـٰتِ رَبِّى » أى : ما أوحى إلىّ فى الأوقات المتطاولة ، أو فى المعانى المختلفة ، من الأوامر والنواهى ، والمواعظ والزواجر ، والبشائر والنذائر . ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جدّه ، إدريس ، فهذا نكتة جمع (الرسالات) ، وإلا فرسالة كل نبىّ واحدة ، وهى مصدر ، والأصل فيه أن لا يجمع ، فجمع لما ذكر

---

(١) [٨٣ / المطففين / ٣٢] . (٢) [٤٦ / الأحقاف / ١١] .

« وَأَنصَحُ لَكُمْ » وأقصد صلاحكم بإخلاص « وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » أى : من الأمور الغيبية التى لا تعلم إلا من طريق الوحى ، أشياء لا علم لكم بها ، أو أعلم من قدرته الباهرة ، وشدة بطشه على أعدائه ، وأن بأسه لا يُرَدُّ عن القوم المجرمين ما لا تعلمونه .

قال ابن كثير : وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغاً فصيحاً ناصحاً عالماً بالله ، لا يدركه أحد من خلق الله فى هذه الصفات ، كما جاء فى صحيح مسلم [1] أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم عرفة ، وهم أوفر ما كانوا وأكثر جميعاً : أيها الناس ! إنكم مسئولون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحتَ . فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ويقول : اللهم اشهد ، اللهم اشهد .

---

(١) من حديث جابر الطويل فى صفة حجة النبىّ ﷺ . أخرجه مسلم فى: ١٥ ـ كتاب الحج ، حديث ١٤٧ (طبعتنا) وهذا نصه ، فيما يتعلق بخطبته :

خطب الناس وقال « إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا كل شىء من أمر الجاهلية ، تحت قدمىّ موضوع . ودماء الجاهلية موضوعة . وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث . كان مسترضعاً فى بنى سعد فقتلته هذيل . وربا الجاهلية موضوع . وأول ربا أضع ربانا . ربا العباس بن عبد المطلب . فإنه موضوع كله . فاتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله . واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه . فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرّح . ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف . وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به . كتاب الله . وأنتم تُسألون عنى . فما أنتم قائلون ؟ » .

قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت فقال بإصبعه السبابة ، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس « اللهم ! اشهد. اللهم ! اشهد » ثلاث مرات ...

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٣] (أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ » أى : موعظة « مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ » أى : من العذاب إن لم تؤمنوا « وَلِتَتَّقُوا » أى : وليوجد منكم التقوى ، وهى الخشية بسبب الإنذار « وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » أى: ولترحموا بالتقوى إن وُجدتْ منكم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٤] (فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ)

« فَكَذَّبُوهُ » أى أصروا على تكذيبه مع طول مدة إقامته فيهم ولم يؤمن معه منهم إلا قليل « فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ » أى عن الحق، فلم يستبصروا الحق ولم يستنيروا بنور الوحى الذى هو كالشمس، ولا بظهور الآيات ، ولا بآية الطوفان المغرق لهم ، بعد إنذاره به ، على تكذيبهم . والعمى ذهاب بصر العينين ، وبصر القلب . يقال : عَمِى فهو أعمى وعَمٍ . كما فى القاموس .

وكان من أمر نوح عليه السلام ، أن قومه ، لما أعرضوا عن الإيمان ، وتمادوا على العصيان ، وعبادة الأوثان ، وطال عليه أمرهم ، شكاهم إلى الله تعالى ، فأوحى الله إليه أنه (لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ)(١) وهم ناس قليل ، فحينئذ دعا عليهم فقال : وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا(٢) . فأوحى الله إليه أن يصنع السفينة ، وصار قومه يسخرون منه ، ويقولون : يا نوح! قد صرت نجارا بعد النبوة! فقال: إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ

(١) [١١ / هود / ٣٦] ونصها : وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ .

(٢) [٧١ / نوح / ٢٦] .

عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (١) . فلما فرغ من صنع السفينة ، أمره الله تعالى أن يحمل فيها من كلّ زوجين اثنين من أنواع الحيوانات ، حتى لا ينقطع نسلها . وحشرها إليه من كل جهة . ولما رأى فوران التنور ، وكان هو العلامة بينه وبين الله تعالى فى ابتداء الطوفان ، ركب فى الفلك هو ومن آمن معه ، وحمل من كلٍّ زوجين اثنين . وأمر الله تعالى السماء أن تمطر . والأرض أن تتفجر عيوناً ، وارتفع الماء فى هذا الطوفان فوق رؤوس الجبال ، فهلك جميع ما على الأرض من جنس الحيوان ، ولم يبق حيًّا غير أهل السفينة .

وفى التوراة : أن الأمطار هطلت أربعين يوماً وليلة دون انقطاع ، حتى غمرت المياه وجهَ الأرض ، وَعَلَتْ خمسة عشر ذراعا فوق الجبال الشامخة ، وهلك بالطوفان كل جسم حىّ . ثم أرسل الله ريحاً عاصفة ، فانقطعت الأمطار ونقصت المياه شيئاً فشيئاً ، وقضى نوح سنة كاملة داخل الفلك . وحين خروجه منه بنى مذبحاً للقرابين ، شكراً لله تعالى ، وتناسلت الناس من أولاد نوح الثلاثة : سامٍ وحامٍ ويافث . وتوطن سام بلاد آسية ، وأقام حام بنواحى إفريقية ، وسكن يافث الديار الأوروبية ـ والله أعلم ـ .

تنبيه :

قال الجشمىّ : فى الآيات فوائد . منها : أن نوحاً دعاهم أولًا إلى التوحيد . والرسولُ وإن حمل الشرائع ، فلا طريق له إلى بيان الشرائع إلا بعد العلم بالتوحيد . ولأنهم لا ينتفعون بذلك إلا بعد اعتقاد التوحيد، فلذلك بدأ به. وجميع الرسل بدءوا بالتوحيد ثم بالشرائع. ولذلك كان أكثر حجاج نبينا عليه السلام ، بمكة ، فى التوحيد ـ انتهى ـ .

وقال ابن كثير : بين تعالى فى هذه القصة أنه انتقم لأوليائه من أعدائه ، وأنجى رسوله

(١) [١١/هود/٣٨و٣٩] ونصهما: وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا مِنْهُ ، قَالَ ...

والمؤمنين ، وأهلك أعداءهم الكافرين ، كقوله : إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا[١] . الآية ـ وهذه سنة الله فى عباده ، فى الدنيا والآخرة ، أن العاقبة للمتقين ، والظفر والغلب لهم ، كما أهلك قوم نوح بالغرق ، ونجى نوحاً وأصحابه المؤمنين . قال مالك عن زيد بن أسلم : كان قوم نوح قد ضاق بهم السهل والجبل . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : ما عذب الله قوم نوح إلا والأرض ملأى بهم ، وليس بقعة من الأرض إلا ولها مالك وحائز .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٦٥] (وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ، قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ، أَفَلَا تَتَّقُونَ)

« وَإِلَىٰ عَادٍ » متعلق بمضمر معطوف على قوله تعالى (أَرْسَلْنَا) فى قصة نوح . أى وأرسلنا إلى عادٍ ، وهى قبيلة كانت تعبد الأصنام ، وكانت ذات بسطة وقوة ، قهروا الناس بفضل القوة.

قال الشهاب: (عاد) اسم أبيهم سميت به القبيلة أو الحىّ فيجوز صرفه وعدمه ، كثمود ـ كما ذكره سيبويه ـ .

قال الليث : وعاد الأولى ، هم عاد بن عاديا بن سام بن نوح الذين أهلكهم الله.

قال زهير[٢] :

وَأَهْلَكَ لُقْمَانَ بْنَ عَادٍ وَعَادِيَا

---

(١) [٤٠ / غافر [٥١] ... وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ .

(٢) صدر البيت : * أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَهْلَكَ تُبَّعاً *

من قصيدته التى مطلعها :

أَلَا لَيْتَ شِعْرِى هل يرى الناسُ ما أرى   من الأمرِ ، أو يَبْدُو لهم ما بَدَا لِيَا =

وأما عاد الأخيرة ، فهو بنو تميم ، ينزلون رمال عالج (١) .

وفى كتاب الأنساب : عاد هو ابن عوص بن إرم بن سام بن نوح ، كان يعبد القمر ، ويقال إنه رأى من صلبه وأولاد أولاده أربعة آلاف، وأنه نكح ألف جارية، وكانت بلادهم إرم المذكورة فى القرآن ، وهى من عُمان إلى حضرموت . ومن أولاده شدّاد بن عاد صاحب المدينة المذكورة ـ كذا فى تاج العروس ـ .

وقال ابن عرفة : قوم عاد كانت منازلهم فى الرمال وهى الأحقاف .

وقال ابن إسحاق : الأحقاف رمل فيما بين عُمان إلى حضرموت .

وقوله تعالى : « أَخَاهُمْ هُودًا » أى أخاهم فى النسب ، لأنه منهم ، فى قول النسابين . وقيل: الناس كلهم إخوة فى النسب، لأنهم ولد آدم وحواء . فالمراد صاحبهم، وواحد فى جملتهم،

= يقول : هل يرى الناس من الرشد ماأرى ، أى يظهر لهم مايظهر لى أن الناس يموتون ؟

وفى بيت الشاهد :

تُبّع : ملك من ملوك حمير . وعاد هو أبو لقمان . وعاديا أبو السموأل ، وكان له حصن بتيماءَ يقال له الأبلق ، وهو الذى استودعه امرؤ القيس أدراعه .

(١) فى معجم البلدان (ج ٤ ص ٦٩ طبعة بيروت) .

عالج رملة بالبادية مسماة بهذا الاسم . قال أبو عبيد الله السكونىّ : عالج رمال بين فَيْد والقُرَيات ينزلها بنو بحتر من طيئ وهى متصلة بالثعلبية على طريق مكة لا ماء بها ولا يقدر أحد عليهم فيه ، وهومسيرة أربع ليال ، وفيه برك إذا سالت الأودية امتلأت .

وذهب بعضهم إلى أن رمل عالج هو متصل بوَبار .

قال ابن السكيت : إذا أكل البعير العَلَجَانَ ، وهو نبت ، قيل : بعير عالج . وهو شجر يشبه العَلَندَى وأغصانها صلبة ، الواحدة علجانة . فيجوز أن يكون هذا الموضع سمى بذلك تشبيهاً له بالبعير العالج . أو يكون لصلوبته يعالج المشى فيه أى يمارس .

كما يقال : ياأخا العرب ، للواحد منهم . وإنما أرسل منهم ، لأنهم أفهم لقوله من قول غيره ، وأعرف بحاله في صدقه وأمانته وشرف أصله ، وأرغب في اقتفائه .

قال الشهاب: اشتهر أن هوداً عربيّ ، وظاهر كلام سيبويه أنه أعجميّ، ويشهدله ماقيل: إن أول العرب يعرب ـ انتهى ـ .

وهود هو ـ على ما قال ابن إسحق ـ ابن شالخ بن أرنخشد بن سام بن نوح . ويقالغير ذلك ـ والله أعلم ـ .

وروى ابن إسحق عن عامر بن واثلة ، قال: سمعت علياً يقول لرجـل من حضرموت: هل رأيت كثيباً أحمر يخالطه مَدَرَةٌ حمراء، ذاأراكٍ وسدرٍ كثير، بناحية كذاوكذا، من أرض حضرموت ، هل رأيته ؟ قال : نعم ، ياأمير المؤمنين ! والله إنك لتنعته نعت رجل قد رآه ! قال : لا، ولـكني قد حُدِّثت عنه . فقال الحضرميّ. وماشأنه ياأمير المؤمنين؟ قال: فيه قبر هود عليه السلام ـ ورواه ابن جرير [1] ـ . قال ابن كثير : وهذا فيه فائدة أن مسا كنهم كانت باليمن ، فإن هوداً عليه السلام دفن هناك . وقال : إنهم كانوا يأوون إلى العُمُد في البر ، كما قال تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ [2] . وذلك لشدة بأسهم وقوتهم، كماقال تعالى: فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ، أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ [3]. ولذادعاهم هودعليه السلام إلى عبادة الله وحده، لاشريك له، وإلى طاعته وتقواه ، كما قال تعالى « قَالَ » أي : هود « يَا قَوْمِ » أي : الذين حقهم أن يكونوا مثلي « اعْبُدُوا اللَّهَ » أي : وحده « مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ » أي: تخافون عذابه .

(١) الأثر رقم ١٤٨٠٣ من التفسير .

(٢) [٨٩ / الفجر / ٦ـ٨] .

(٣) [٤١ / فصلت / ١٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٦] ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾

« قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ » أى: فى خفة حلم، وسخافة عقل ، حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر ؛ وجعلت السفاهة ظرفاً على طريق المجاز ، أرادوا أنه متمكن فيها ، غير منفك عنها « وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ » أى : فى ادعائك الرسالة ، إذ استبعدوا أن يرسل الله أحداً من أهل الأرض إليهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٧] ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

« قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى : إليكم ، لإصلاح أمر نشأتيكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٨] ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾

« أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ » أى : ناصح لكم فيما آمركم به من عبادته تعالى وحده ، وأمين على تبليغ الرسالة ، لا أكذب فيه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٦٩] ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ، وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ، فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

« أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ » أى :

أيامَ الله ولقاءه ، أى : لاتعجبوا واحمدوا الله على ذلكم « وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ » أى: خلفتموهم فى مساكنهم ، أو فى الأرض بأن جعلكم ملوكاً بعدهم ، فإن شدّاد بن عاد ممن ملك معمورة الأرض من رمل عالج إلى شِحْر عُمان ـ كذا قالوا ـ « وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً » أى قامة وقوة « فَاذْكُرُوا ءَالآءَ اللَّهِ » أى: فى استخلافكم ، وبسطة أجرامكم، وماسواها من عطاياه، لتخصصوه بالعبادة « لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » أى تفوزون بالفلاح .

تنبيهان

الأول قال الزمخشرىّ : فى إجابة الأنبياء عليهم السلام ، مَنْ نَسَبَهم إلى الضلال والسفاهة ، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء ، وترك المقابلة بما قالوا لهم ، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم ـ أدب حسن ، وخلق عظيم . وحكايةُ الله عز وجل ذلك ، تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم ، على ما يكون منهم ـ انتهى ـ .

وزاد القاضى : إن فى ذلك كمال النصح والشفقة ، وهضم النفس ، وحسن المجادلة قال : وهكذا ينبغى لكل ناصح ـ انتهى ـ .

الثانى ـ لا يعتمد على ما يذكره بعض المؤرخين المولعين بنقل الغرائب ، بدون وضعها على محك النظر والنقد ، من المبالغة فى طول قوم عاد ، وضخامة أجسامهم ، وأن أطولهم كان مائة ذراع ، وأقصرهم كان ستين ذراعاً ، فإن ذلك لم يقم عليه دليل عقلىّ ولا نقلىّ ، وهو وهْم . وأما قوله جل شأنه مخاطباًلقوم عاد (وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً) فإنه لايدل على ما أرادوا ، وإنما يدل على عظم أجسامهم وقوتهم وشدتها . وهذا من الأمور المعتادة . فإن الأمم ليست متساويةفىضخامة الجسم وطوله وقوته ، بل تتفاوت لكن تفاوتاً قريباً . ومما يدل على أن أجسام من سلف كأجسامنا ، لاتتفاوت عنها تفاوتاً كبيراً، مساكنُ ثمود

قوم صالح الباقية ، وآثارهم البادية . ومثله ، بل أعرق منه فى الوهم ، ماينقلونه فى وصف عوج ابن عنق الجبار ملك بيسان ، من أنه كان يحتجز بالسحاب ويشرب منه من طوله، ويتناول الحوت من قرار البحر ، فيشويه بعين الشمس ، يرفعه إليها . والحال أن الشمس كوكب ، لا مزاج له من حر أو برد ، وإنمـــا حرارتها من انعكاس شعاعها ، بمقابلة سطح الأرض والهواء ، فشدة حرارتها فى الأرض ، وتتناقص الحرارة فيما علا عنها بمقدار الارتفاع .

وقد أنـكر العلامة ابن خلدون جميع ذلك فى (مقدمة تاريخه) ، وأبان أن الذى أدخل الوهم على الناس فى طول الأقدمين هو ما يشاهدونه من بعض آثارهم الجسيمة ، ومصانعهم العظيمة ، كأهرام مصر وإيوان كسرى ، فيتخيلون لأصحابها أجسامًا تناسب ذلك . والحال أن عظم هـذه المصانع والآثار فى أمة من الأمم ناشىء عن عظم ذواتها ، واتساع ممالـكها ، وقوة شوكتها ، ونماء ثروتها ، واستعانتها بالماهرين فى فن جر الأثقال ، فإنه يقوم بحمل ما تعجز القوى البشرية عن عشر معشاره . وأنـكر أيضاً ما ينقلون من قصة جنة عاد ، وأنها مدينة عظيمة قصورها من الذهب ، وأساطينها من الزبرجد والياقوت ، وفيها أصناف الشجر والأنهار المطردة ، وأنها بنيت فى مدة ثلاثمائة سنة فى صحارى عدن . بناها شداد بن عاد حيث سمع وصف الجنة . وأنها لما تم بناؤها ، أرسل الله على أهلها صيحة، فهلـكوا كلهم، وأن اسمها (إرم ذات العماد) وأنها المشار إليها بقوله تعالى : أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ (١) * ويزعمون أنها لم تزل باقية فى بلاد اليمن ، وإنما حجبت عن الأبصار . وحيث إن ذلك لم يُرو عن الصادق الأمين فلا نعول عليه ، ولا نلتفت إليه . وأغلب المولعين بنقل مثل هذه الغرائب المصنعة، هم المؤرخون الذين يعتمدون على أخبار بنى إسرائيل ، ويقلدونهم من غير برهان ودليل ، والله الهادى إلى سواء السبيل ــ كذا أفاده بعض المحققين ــ .

ثم أخبر تعالى عن تمرد عاد وطغيانهم وإنـكارهم على هود عليه السلام ، بقوله سبحانه:

(١) [٨٩ / الفجر / ٦ ـ ٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٠] (قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)

« قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ » أى لنخصه بالعبادة « وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ » أى من العذاب المدلول عليه بقوله تعالى : (أَفَلَا تَتَّقُونَ) « إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ » أى فى الإخبار بنزول العذاب .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧١] (قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ، أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ، فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ)

« قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ » أى عذاب . والرجس والرجز بمعنى ، حتى قيل إن أحدهما مبدل من الآخر ، كالأسد والأزد . وأصل معناه الاضطراب . يقال: رجست السماء : رعدت شديداً وتمخضت ، وهم فى مرجوسة من أمرهم ، أى فى اختلاط والتباس، ثم شاع فى العذاب لاضطراب من حلّ به . وادعى بعضهم أن الرجس بمعنى العذاب مجاز، قال: لأنه حقيقة فى الشيء القذر، فاستعير لجزائهم. وظاهر اللغة أنه حقيقة. ووجه التعبير بالمضىّ عما سيقع، تنزيل المتوقع كالواقع كما فى (أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ)(١) « وَغَضَبٌ » أى سخط لإشراككم معه من هو فى غاية النقص ، فى أعلى كمالاته التى هى الإلهية « أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ » أى فى أشياء ما هى إلا أسماء ليس تحتها مسميات،

---

(١) [١٦ / النحل / ١] ونصها: أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ، سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ .

لأنكم تسمونها آلهة ، ومعنى الإلهية فيها معدوم ومُحالٌ وجوده . وهذا كقوله تعالى : مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ(١) كذا فى الكشاف ـ .

قال الشهاب : جعل الأسماء عبارة عن الأصنام الباطلة ، كما يقال لما لا يليق : ما هو إلا مجرد اسم . فالمعنى : أتجادلوننى فى مسميات لها أسماء لا تليق بها ، فتوجه الذم للتسمية ، الخالية عن المعنى . والضمير حينئذ راجع لـ (أسماء) وهى المفعول الأول للتسمية، والثانى آلهة، ولو عكس لزم الاستخدام ـ انتهى ـ .

وقوله تعالى : « مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ » أى حجة ودليل على هذه التسمية، لأن المستحق للمعبودية بالذات ليس إلا من أوجد الكل ، وإنها لو استحقت لكان ذلك بجعله تعالى ، إما بإنزال آية أو نصب حجة وكلاهما مستحيل ، فتحقق بطلان ما هم عليه .

قال الجشمىّ : دلت الآية على فساد التقليد، حين ذمهم بسلوك طريقة آبائهم . وتدل على أن المعارف مكتسبة . وتدل على بطلان كل مذهب لا دليل عليه. ويدل قوله (أَتُجَٰدِلُونَنِى) على أن المبطل مذموم فى جداله ، والواجب عليه النظر ليعرف الحق . انتهى .

وقال القاضى : بين تعالى أن منتهى حجتهم وسندهم ، أن الأصنام تسمى آلهة من غير دليل يدل على تحقيق المسمى، وإسنادَ الإطلاق إلى من لا يؤبه بقوله، إظهاراً لغاية جهالتهم، وفرط غباوتهم .

« فَٱنتَظِرُوٓا۟ » أى: نزول العذاب الذى طلبتموه بقولكم (فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ)، لأنه وضح الحق ، وأنتم مصرّون على العناد « إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ » أى : لما يحل بكم .

قال المهايمىّ : فجاء منتظرهم بحيث لا ينجو منه ، بمجرى العادة ، أحد، وجعل من قبيل الريح التى تتقدم الأمطار ، لكفرهم برياح الإرسال .

---

(١) [٢٩ / العنكبوت / ٤٢] ونصها : إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ .

القول في تأويل قوله تعالى:

[٧٢] (فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ)

« فَأَنجَيْنَاهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ » أي: من آمن به، على خرق العادة « بِرَحْمَةٍ مِّنَّا » ليدل على رحمتنا عليهم في الآخرة « وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا » أي استأصلناهم . قال الشهاب : قطع الدابر ، كناية عن الاستئصال إلى إهلاك الجميع ، لأن المعتاد في الآفة إذا أصابت الآخر أن تمرّ على غيره، والشيء إذا امتد أصله أخذبرمته. والدابر بمعنى الآخر «وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ » عطف على (كَذَّبُواْ) داخل معه في حكم الصلة .

قال الزمخشريّ : فإن قلت : ما فائدة نفي الإيمان عنهم في قوله : (وَمَا كَانُواْ مُؤْمِنِينَ) مع إثبات التكذيب بآيات الله ؟ قلت : هو تعريض بمن آمن منهم ، كمرثد بن سعد ، ومن نجا مع هود عليه السلام ، كأنه قال : وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ، ولم يكونوا مثل من آمن منهم ، ليؤذن أن الهلاك خص المكذبين ، ونجى الله المؤمنين . انتهى .

قال الطيبيّ : يعني إذا سمع المؤمن أن الهلاك اختص بالمكذبين ، وعلم أن سبب النجاة هو الإيمان لا غير ، تزيد رغبته فيه ، ويعظم قدره عنده ـ انتهى ـ .

قال ابن كثير : قد ذكر الله سبحانه صفة إهلاكهم في أماكن أخر من القرآن ، بأنه أرسل عليهم الريح العقيم (١) *مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٢). كما قال في الآية الأخرى : وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ (٣) لما تمردوا وعتوا، أهلكهم الله بريح عاتية، فكانت تحمل الرجل

(١) يشير إلى [٥١ / الذاريات / ٤١] وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ .

(٢) [٥١ / الذاريات / ٤٢] .

(٣) [٦٩ / الحاقة / ٦ـ٨] .

منهم ، فترفعه فى الهواء ، ثم تنكسه على أم رأسه ، فتثلغ رأسه حتى تُبِينَهُ من جثته .

وقال محمد بن إسحق[١] : كانت منازل عاد وجماعتهم، حين بعث الله فيهم هودا، الأحقافَ قال : و (الأحقاف) الرملُ ، فيما بين عُمَان إلى حضرموت ، فاليمن كله .

وكانوا مع ذلك قد فشوا فى الأرض كلها . وقهروا أهلها بفضل قوتهم التى آتاهم الله . وكانوا أصحاب أوثان يعبدونها من دون الله : صنم يقال له (صُدَاء) وصنم يقال له (صَمُود) وصنم يقال له (الهباء) : فبعث الله إليهم هودا ، وهو من أوسطهم نسبا وأفضلهم موضعا ، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يجعلوا معه إلها غيره ، وأن يكفّوا عن ظلم الناس . لم يأمرهم فيما يذكر ، والله أعلم ، بغير ذلك . فأبوا عليه وكذبوه . وقالوا[٢] : (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) .

واتبعه منهم ناس ، وهم يسير مكتتمون بإيمانهم . وكان ممن آمن به وصدقه رجل من عاد يقال له (مرثد بن سعد بن عفير) وكان يكتم إيمانه . فلما عتوا على الله تبارك وتعالى وكذبوا نبيهم، وأكثروا فى الأرض الفساد ، وتجبّروا وبنوا بكل ريع آية عبثا بغير نفع، كلمهم هود فقال[٣] : (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) .

(قَالُوا يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ)[٤] أى: ماهذا الذى جئتنا به إلا

(١) الأثر رقم ١٤٨٠٤ من تفسير ابن جرير الطبرىّ .

(٢) [٤١ / فصلت ١٥] ونصها : فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً،أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً،وَكَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ .

(٣) [٢٦ / الشعراء / ١٢٨ ـ ١٣١] .

(٤) [١١ / هود / ٥٣ ـ ٥٥] .

جنون أصابك به بعضُ آلهتنا هذه التي تعيب . (قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ) إلى قوله[1] (صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

فلمـا فعلوا ذلك ، أمسك الله عنهم المطر من السماء ثلاث سنين ، فيما يزعمون ـ حتى جهدهم ذلك .

وكان الناس فى ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد ، فطلبوا إلى الله الفرج منـه ، كانت طلبتهم إلى الله عند بيته الحرام بمـكة ، مسلمهم ومشركهم ، فيجتمع بمـكة ناس كثير شتى مختلفةٌ أديانهم ، وكلهم معظِّم لمـكة ، يعرف حرمتها ومكانها من الله .

قال ابن إسحق : وكان البيت فى ذلك الزمان معروفا مكانه ، والحرم قائم فيما يذكرون ، وأهل مكة يومئذ العماليق ـ وإنما سموا (العماليق) لأن أباهم (عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح) ـ وكان سيد العماليق إذ ذاك بمكة ، فيما يزعمون ، رجلا يقال له معاوية بن بكر ، وكان أبوه حيًّا فى ذلك الزمان ، ولـكنه كان قد كبر ، وكان ابنه يرأس قومه ، وكان السؤدد والشرف من العماليق ، فيما يزعمون ، فى أهل ذلك البيت .

وكانت أم معاوية بن بكر ، كلهدة ابنة الخبيرىّ ، رجل من عاد . فلما قحط[2] المطر عن عاد وجُهِدوا قالوا : جهِّزوا منـكم وفدا إلى مكة فليستسقوا لـكم ، فإنـكم قد هلـكتم ! فبعثوا قيل بن عنز ولقيم بن هزّال بن هزيل ، وعتيل بن صُدّ بن عاد الأكبر ، ومرثد بن سعد بن عفير ، وكان مسلمـا يكتم إسلامه ، وجُلْهُمة بن الخبيرىّ ، خال معاوية بن بكر أخو أمه .

---

(١) [١١ / هود / ٥٦] إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ، مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ ، إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ .

(٢) قَحَطَ المطر وقُحِطَ : احتبس .

ثم بعثوا لقمان بن عاد بن فلان بن فلان بن صُدّ بن عاد الأكبر . فانطلق كل رجل من هؤلاء القوم معه رهط من قومه ، حتى بلغ عدة وفدهم سبعين رجلا . فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجا من الحرم ، فأنزلهم وأكرمهم . وكانوا أخواله وصهره .

فلما نزل وفد عاد على معاوية بن بكر ، أقاموا عنده شهرا يشربون الخمر ، وتغنيهم الجرادتان ـ قينتان لمعاوية بن بكر ـ وكان مسيرهم شهرا ومقامهم شهرا .

فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم ، وقد بعثهم قومهم يتعوّذون بهم من البلاء الذى أصابهم ، شق ذلك عليه ، فقال : هلك أخوالى وأصهارى ! وهؤلاء مقيمون عندى ، وهم ضيفى نازلون علىّ ! والله ما أدرى كيف أصنع بهم ؟ أستحى أن آمرهم بالخروج إلى ما بعثوا له فيظنوا أنه ضِيق منى بمقامهم عندى ، وقد هلك مَن وراءهم من قومهم جَهْدا وعطشا ! ! أو كما قال :

فشكا ذلك من أمرهم إلى قينتيه الجرادتين ، فقالتا : قل شعرا نغنّيهم به ، لا يدرون من قاله ، لعل ذلك أن يحركهم ! .

فقال معاوية بن بكر ، حين أشارتا عليه بذلك :

ألا ياقَيْلَ ، ويحك ! قم فهَيْنِم ... لعل الله يُصبحُنا غَماما (١)

فيسقى أرضَ عادٍ ، إنّ عادًا ... قد اُمْسَوْا لا يُبينون الكلاما (٢)

من العطش الشديد ، فليس نَرْجُو ... به الشيخَ الكبيرَ ولا الغلام

وقد كانت نساؤهم بخير ... فقد أمست نساؤهمُ عَيَامَى (٣)

(١) القيل معناه السيد ، يطلق على كل من ملك حِمْيَر . ويحك كلمة ترحم . هينم أمر من (الهينمة) وهو الصوت الخفىّ ، والمراد ادعُ .

(٢) قد اُمْسَوْا بنقل حركة الهمزة للدال الساكنة . لا يبينون الكلاما ، أى ضعفوا ومرضوا من القحط . اهـ من (العناية) .

(٣) أعام القوم هلكت إبلهم فلم يجدوا لبنا . والعيمة شدة شهوة اللبن . وعام القوم قل لبنهم من القحط . ورجل عيمان وامرأة عيمى والجمع عيام وعيامى .

وإن الوحش تأتيهم جهارا ولا تخشى لعادىّ سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم نهارَكُم وليلَكم التَّماما
فقُبِّح وفدُكم من وفدِ قومٍ ولا لُقُّوا التحيةَ والسلاما

فلما قال معاوية ذلك الشعر ، غنتهم به الجرادتان . فلما سمع القوم ماغنَّتا به ، قال بعضهم لبعض : ياقوم ، إنما بعثكم قومكم يتعوذون بكم من هذا البلاء الذى نزل بهم ، وقد أبطأتم عليهم ! فادخلوا هذا الحرم واستسقوا لقومكم ! .

فقال لهم مرثد بن سعد بن عفير : إنكم والله لا تُسْقَوْن بدعائكم ، ولكن إن أطعتم نبيكم وأنبتم إليه سقيتم ! فأظهر إسلامه عند ذلك . فقال لهم جُلْهمة بن الخبيرىّ خال معاوية بن بكر ، حين سمع قوله ، وعرف أنه قد اتبع دين هود وآمن به :

أبا سعدٍ فإنك من قبيل ذوى كرم وأمُّك من ثمودِ
فإنّا لن نطيعك ما بقينا ولسنا فاعلين لما تريدُ
أتأمرنا لنترك دين رِفدٍ ورَمْلَ وآلَ صُدّ والعبُودِ
ونتركَ دين آباء كرام ذوى رأى، ونَتْبَعَ دينَ هودِ

ثم قالوا لمعاوية بن بكر وأبيه بكر : احبسا عنا مرثد بن سعد . فلا يقدمن معنا مكة . فإنه قد اتبع دين هود ، وترك ديننا !

ثم خرجوا إلى مكة يستسقون بها لعاد . فلما ولَّوْا إلى مكة خرج مرثد بن سعد من منزل معاوية بن بكر حتى أدركهم بها ، قبل أن يدعوا الله بشىء مما خرجوا له . فلما انتهى إليهم ، قام يدعو الله بمكة ، وبها وفد عاد قد اجتمعوا يدعون ، يقول : اللهم أعطنى سؤلى وحدى ولا تدخلنى فى شىء مما يدعوك به وفدُ عاد .

وكان قَيل بن عنز رأس وفد عاد .

وقال وفد عاد : اللهم أعط قَيْلا ما سألك ، واجعل سؤلنا مع سؤله .

وكان قد تخلف عن وفد عاد حين دعا ، لقمانُ بن عاد ، وكان سيد عاد .

حتى إذا فرغوا من دعوتهم قام فقال : اللهم إنى جئتك وحدى فى حاجتى، فأعطنى سؤلى.
وقال قَيْل بن عنز حين دعا : يا إلٰهنا ، إن كان هود صادقاً فاسقنا ، فإنا قد هلكنا .
فأنشأ الله لهم سحائب ثلاثا : بيضاء وحمراء وسوداء . ثم ناداه مناد من السحاب : يا قَيل ! اختر لنفسك ولقومك من هـذه السحائب . فقال : اخترت السحابة السوداء ، فإنها أكثر السحاب ماء . فناداه مناد : اخترتَ رَمادًا رِمْدِدًا[1] ، لاتُبقى من آل عاد أحدا، لا والدا تترك ولا ولدا، إلا جعلته هَمِدا[2]، إلا بنى اللَّوذِيَّة المُهَدَّى ـ وبنو اللوذية، بنو لقيم بن هزّال بن هزيلة بن بكر ، وكانوا سكانًا بمكة مع أخوالهم ، ولم يكونوا مع عاد بأرضهم ، فهم عادٌ الآخرة ، ومن كان من نسلهم الذين بقوا من عاد ـ وساق الله السحابة السوداء، فيما يذكرون ، التى اختارها قَيْل بن عنز بما فيها من النقمة إلى عاد، حتى خرجت عليهم من واد يقال له (المغيث) .
فلما رأوها استبشروا بها وقالوا (هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا) يقول الله(بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا)[3] أى كل شىء أُمِرَتْ به.
وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح ، فيما يذكرون ، امرأة من عاد يقال لها (مَهْدَد) فلما تيقنت ما فيها صاحت ثم صَعِقَتْ . فلما أفاقت قالوا : ماذا رأيت يا مهدد ؟ قالت : رأيت ريحاً فيها كشُهُبِ النار ، أمامها رجال يقودونها !
ف(سَخَّرَهَا) الله (عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا)[4]، كما قال الله ـ والحسوم الدائمة ـ

(١) رماد رِمْدِد أى متناه فى الاحتراق والدقة .
(٢) هامد وَهَمِد وهميد : ميت هالك .
(٣) [٤٦ / الأحقاف / ٢٤و٢٥] فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا . . . فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ، كَذَٰلِكَ نَجْزِى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ .
(٤) [٦٩ / الحاقة / ٧] سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ .

فلم تدع من عاد أحدًا إلا هلك. فاعتزل هود ، فيما ذكر لى، ومن معه من المؤمنين فى حظيرة، ما يصيبه ومن معه من الريح ، إلا ما تلين عليه الجلود وتلذ الأنفس .

وإنها لتمرّ على عاد بالظّعن بين السماء والأرض ، وتدمغهم بالحجارة. وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر وأبيه ، فنزلوا عليه .

فبينما هم عنده ، إذ أقبل رجل على ناقة له فى ليلة مقمرة ، مُمْسَى ثالثة فى مُصاب عاد . فأخبرهم الخبر ، فقالوا له : أين فارقتَ هودًا وأصحابه ؟ قال : فارقتهم بساحل البحر .

فكأنهم شكّوا فيما حدثهم به ، فقالت هزيلة بنت بكر : صدق ، ورب الكعبة .

قال ابن كثير : وهو سياق غريب ، فيه فوائد كثيرة . وقد قال الله تعالى : وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ[1] .

وروى الإمام أحمد[2] عن أبى وائل عن الحارث البكرىّ قال : خرجت أشكو العلاء ابن الحضرمىّ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمررت بالربذة ، فإذا بعجوز من بنى تميم منقطَع بها، فقالت لى : يا عبد الله ! إن لى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجة، فهل أنت مبلغى إليه ؟ قال : فحملتها، فأتيت المدينة. فإذا المسجد غاصّ بأهله، وإذا راية سوداء تخفق ، وإذا بلال متقلد السيف بين يدى رسول الله ﷺ ، فقلت : ما شأن الناس ؟ قالوا : يريد أن يبعث عمرو بن العاص وجهاً . فجلست ، فدخل منزله ـ أو قال رحله ـ فاستأذنت عليه ، فأذن لى ، فدخلت فسلمت ، فقال : هل كان بينكم وبين تميم شىء ؟ قلت : نعم. قال وكانت لنا الدبرة عليهم ، ومررت بعجوز من بنى تميم منقطع بها، فسألتنى أن أحملها إليك ، وهاهى بالباب ، فأذن لها ، فدخلتْ . فقلتُ : يا رسول الله ! إن رأيت أن تجعل بيننا وبين تميم حاجزاً ، فاجعل الدهنا . فحميت العجوز واستوفزت ، وقالت : يارسول الله ! فإلى أين تضطر

(١) [١١ / هود ٥٨] .

(٢) أخرجه فى المسند بالصفحة ٤٨٢ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ) .

مضرك ؟ قال قلت : إن مثلى مثل ما قال الأول : (معزاء حملت حتفها) حملتُ هذه ولا أشعر أنها كانت لى خصماً . أعوذ بالله ورسوله أن أكون كوافد عاد ! قال هيه ، وما وافد عاد ؟ وهو أعلم بالحديث منه ، ولكن يستطعمه ، قلت : إن عادًا قحطوا فبعثوا وافداً لهم يقال له قَيْل ، فمر بمعاوية بن بكر فأقام عنده شهراً يسقيه الخمر ، وتغنيه جاريتان يقال لهما الجرادتان ، فلما مضى الشهر ، خرج جبال تهامة فنادى : اللهم ! إنك تعلم أنى لم أجىء إلى مريض فأداويه ، ولا إلى أسير فأفاديه ، اللهم ! اسق عاداً ما كنت تسقيه ! فمرت به سحابات سود ، فنودى منها : اختَرْ ؛ فأومأ إلى سحابة منها سوداء ، فنودى منها : خذها رماداً رمددا ، لا تبقى من عاد أحداً . قال : فما بلغنى أنه بُعِث عليهم من الريح إلا قدر ما يجرى فى خاتمى هذا ، حتى هلكوا . قال أبو وائل : وصدق . قال : فكانت المرأة والرجل إذا بعثوا وافداً لهم قالوا : لا تكن كوافد عاد ـ هكذا رواه الإمام أحمد فى المسند ، ورواه الترمذى والنسائىّ وابن ماجة وابن جرير(١) ـ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٣] (وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ، قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ، قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ، هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ، فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ، وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)

«وَإِلَىٰ ثَمُودَ» أى : وأرسلنا إلى ثمود . وهى قبيلة أخرى من العرب سموا باسم جدهم ثمود ابن عامر بن إرم بن سام بن نوح ، وهو أخو جديس بن عابر . وكذلك قبيلة طسم ، كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة ، قبل إبراهيم الخليل عليه السلام . وكانت ثمود بعد عاد ،

---

(١) الأثر رقم ١٤٨٠٥ من التفسير .

ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادى القرى وما حوله . وقد مرّ رسول الله ﷺ على ديارهم وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع ـ نقله ابن كثير ـ .

وثمود كصبور ، وتضم ثاؤه ، وقرئ به أيضاً ، وقرئ بصرفه ومنعه . أما الثانى فلأنه اسم القبيلة ، ففيه العلمية والتأنيث . وأما الأول فلأنه اسم للحىّ ، أو لأنه لما كان اسمها الجد ، أو القليل من الماء كان مصروفاً ، لأنه علم مذكر ، أو اسم جنس ، فبعد النقل حُكى أصله . كذا فى (العناية) .

« أَخَاهُمْ صَـٰلِحًا » هو ـ على ما قاله علماء التفسير والنسب ـ : ابن عبيد بن آسف ابن ماسح بن عبيد بن حاذر بن ثمود « قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّـهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ » دعاهم عليه الصلاة والسلام بما يدعو به الرسل أجمعون ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له . كما قال تعالى: وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ [(١)] . وقال : وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّـهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّـٰغُوتَ [(٢)] « قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ » أى حجة ظاهرة للدلالة على صحة نبوتى « هَـٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّـهِ لَكُمْ ءَايَةً » أى خلقها حجة وعلامةً على رسالتى . وأضافها إليه تفضيلاً وتخصيصاً . كـ (بيت الله) ؛ أو لأنه لا مالك لها غيره تعالى ، أو لأنها حجته عليهم فى أنهم ، إن حفظوها وأطلقوا لها رعيها وسقياها حفظوا ، وإن غدروا بها أُهلكوا ، ولذا قال : « فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّـهِ » أى التى لا يملكها غيره ، العشبَ « وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ » أى لا تضربوها ولا تطردوها ولا تُريبوها بشىء من الأذى ، ولو تأذت منها دوابّكم ، إكراماً لآية الله « فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » أى : فى الدارين لجرأتكم على آيات الله .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٢٥] .

(٢) [١٦ / النحل / ٣٦] . . . فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّـهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ، فَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٤] (وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ، فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ)

« وَاذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ » قال الشهاب : لم يقل: خلفاء عاد ، إشارة إلى أن بينهما زماناً طويلاً « وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ » أى : أنزلكم فى أرض الحجر. والمباءة المنزل. « تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا » أى : تبنون فى سهولها قصوراً لتسكنوها أيام الصيف . فـ (من) بمعنى (فى) ، كقوله تعالى (نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ)(١) . أو هى ابتدائية ، أو تبعيضية ، أى: تعملون القصور من مادة مأخوذة من السهل وهى الطين . والسهل خلاف الحزْن، وهو موضع الحجارة والجبال «وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا» أى: لتسكنوها أيام الشتاء . والجبال إما مفعول ثان بتضمين (نحت) معنى (اتخذ) ، أو منصوب بنزع الخافض، على ما جاء فى الآية الأخرى : والنحت معروف فى كل صلب . ومضارعه مكسور الحاء . وقرأ الحسن بالفتح لحرف الحلق : وقرئ تنحاتون بالإشباع ، كـ (ينباع) ، أفاده الشهاب.

بحث الإشباع فى وسط الكلمة

أقول : بهذه القراءة يستدل على ثبوت الإشباع فى وسط الكلمة لغة . ومثله (ينباع) المذكورة ، وهى من قول عنترة(٢) :

يَنْباعُ من ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ

---

(١) [٦٢ / الجمعة / ٩] ونصها : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ.

(٢) استشهد به فى اللسان (ج ٨ ص ٣٤٥ بيروت) قال : =

أى ينبع العرق من خلف أذن ناقة غضوب ، فأشبع الفتحة لإقامة الوزن ، فتولّدت من إشباعها ألف . ومثله قولنا (آمين) ، والأصل (أمين) فأشبعت الفتحة ، فتولدت من إشباعها ألف ـ قاله الزوزنىّ ـ .

= فأما قول عنترة :

ينباعُ من ذِفْرَى غَضُوبٍ جَسْرَةٍ زَيَّافَةٍ ، مثل الفَنِيقِ المُـكْدَمِ

فإنما أراد (ينبع) فأشبع فتحة الياء للضرورة ، فنشأت بعدها (ألف) .

والبيت الرابع والثلاثون من معلقته التى مطلعها :

هل غادر الشعراءُ من مُتَرَدَّمِ أم هل عرفتَ الدارَ بعد توهُّمِ

ومعنى البيت كما قاله التبريزىّ :

قال ابن الأعرابىّ : ينباع ، ينفعل . من (باع يبوع) إذا مرّ مرًّا ليِّنًا ، فيه تَلَوٍّ . كقول الآخر :

* ثمتَ ينباعُ انبياعَ الشُّجَاعْ *

وأنـكر أن يكون الأصل فيه (ينبع) .

وقال : ينبع : يخرج كما ينبع الماء من الأرض ، ولم يُرِدْ هذا . إنما أراد السيَلان وتلوّيه على رقبتها كتلوّى الحية .

وقال غيره (كقول اللسان) : هو من (نبع ينبع) ثم أشبع الفتحة فصارت ألفا .

والذفريان الحيْدَان الناتئان من الأذن ومنتهى الشعر . وأول مايعرق من البعير الذفريان .

والغضوب والغضبى واحد . وغضوب للتكثير .

والجَسْرَة : الماضية فى سيرها ، وقيل: الجسرة: الضخمة القوية .

والزيافة المسرعة .

والفنيق الفحل .

والمـكدم بمعنى المـكدَّم ، والـكدم العضّ .

ومثله (استكان) على القول بأنه افتعل من (السكون) فزيدت الألف لإشباع الفتحة. كما في (شرح الشافية) .

ومنه (عقْرَاب) ـ قال في (تاج العروس) : سمع العقْرَاب في اسم الجنس . قال[1] :

أعوذ بالله من العقْرَابِ الشائلاتِ عُقَدَ الأذْنَابِ

قال : وعند أهل الصرف ألف (عقراب) للإشباع ، لفقدان (فَعلال) بالفتح ـ انتهى ـ .

وقوله تعالى: « فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ » أي نعمه عليكم لتصرفوها إلى ماخلقها لأجله « وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ » بالمعاصي وعبادة غيره تعالى .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٧٥] (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ)

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا » أي عن الإيمان بعد ظهور آية الناقة والكلمات الناصحة « مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا » أي استضعفهم رؤساء الكفار واستذلوهم ، إذ لم يكن لهم استكبار يمنعهم من الانقياد « لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ » بدل من(الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا) بإعادة الجار ، بدل الكل ، إن كان الضمير لقومه ، فيدل على أن استضعافهم كان مقصوراً على المؤمنين . وبدل البعض إن كان الضمير (لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا) فيدل على أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين . قال أبو السعود : والأول هو الوجه ، إذ لا داعي إلى توجيه الخطاب أولًا إلى جميع المستضعفين ، مع أن المجاوبة مع المؤمنين منهم . على أن الاستضعاف مختص بالمؤمنين ، أي قالوا للمؤمنين الذين استضعفوهم واسترذلوهم « أَتَعْلَمُونَ » أي من آية الناقة ومن الكلمات الناصحة « أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ » إليكم لعبادته تعالى وحده لا شريك له.

---

(١) لم أهتد إليه في كتاب . فمن كان على بينة منه ، فليدلّني عليه .

وهذا قالوه على سبيل السخرية والاستهزاء ، لأنهم يعلمون بأنهم عالمون بذلك ، ولذلك لم يجيبوهم على مقتضى الظاهر ، بل عدلوا عنه ، كما قال تعالى : « قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ » عدلوا عن الجواب الموافق لسؤالهم بأن يقولوا (نعم) أو (إنه مرسل منه تعالى)، مسارعة إلى تحقيق الحق ، وإظهار ما لهم من الإيمان الثابت المستمر الذى تنبىء عنه الجملة الاسمية ، وتنبيهاً على أن أمر إرساله من الظهور بحيث لا ينبغى أن يسأل عنه ، وإنما الحقيق بالسؤال عنه هو الإيمان به . أفاده أبو السعود .

فهذا من الأسلوب الحكيم ، وهو تلقى السائل والمخاطب بخلاف ما يترقب ، تنبيها على أنه هو الذى ينبغى أن يسأل عنه .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٧٦] (قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ)

«قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ» وإنما لم يقولوا : إنا بما أرسل به كافرون ، إظهاراً لمخالفتهم إياهم ، وردّا لمقالتهم .

قال فى (الانتصاف) : ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا : إنا بما أرسل به كافرون ، ولكن أبَوْا ذلك حذرا مما فى ظاهره من إثباتهم لرسالته ، وهم يجحدونها ، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم ، كما قال فرعون : إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (١) ، فأثبت إرساله تهكما ، وليس هذا موضع التهكم، فإن الغرض إخبار كل واحد من الفريقين ، المؤمنين والمكذبين ، عن حاله ، فلهذا خلص الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة ، احتياطاً للكفر ، وغلوًّا فى الإصرار ـ انتهى ـ ولذلك أنكروا آية الناقة وكذبوه فى إصابة العذاب عن مسها بالسوء . كما قال تعالى :

---

(١) [٢٦ / الشعراء / ٢٧] قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٧] (فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ)

« فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ » أى نحروها. والعقر: الجرح، وأثر كالحزّ فى قوائم الفرس والإبل. يقال : عقره بالسيف يعقره بالكسر ، وعقّره تعقيراً ، قطع قوائمه بالسيف وهو قائم .

قال الأزهرىّ : العقر عند العرب كشف عرقوب البعير ، ثم يجعل النحر عقراً ، لأن ناحر الإبل يعقرها : ثم ينحرها .

وفى اللسان : عَقَر الناقة وعقَّرها ، إذا فعل بها ذلك حتى تسقط ، فينحرها مستمكناً منها ، أى : لئلا تشرد عند النحر .

وفى الحديث[1] : لا عقر فى الإسلام .

قال ابن الأثير : كانوا يعقرون الإبل على قبور الموتى ، أى ينحرونها ويقولون إن صاحب القبر كان يعقر للأضياف أيام حياته ، فنكافئه بمثل صنيعه بعد وفاته . كذا فى (تاج العروس) ـ .

وأسند العقر إلى جميعهم ، لأنه كان برضاهم ، وإن لم يباشره إلا بعضهم . ويقال للقبيلة الضخمة : أنتم فعلتم كذا وما فعله إلا واحد منهم . كذا فى (الكشاف) .

قال أبو السعود : وفيه من تهويل الأمر وتفظيعه ، بحيث أصابت غائلته الكل ، ما لا يخفى.

« وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ » أى استكبروا عن امتثاله ، وهو عبادته وحده ، أو الحذر من مسّ الناقة بسوء . وزادوا فى الاستهزاء « وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ » أى : من العذاب على عقر الناقة. والأمر للاستعجال لأنهم يعتقدون أنه لا يتأتى ذلك ، ولذا قالوا : « إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ » أى فإن الله ينصر رسله على أعدائه .

(١) أخرجه أبو داود فى : ٢٠ ـ كتاب الجنائز ، ٧٠ ـ باب كراهية الذبح عند القبر ، حديث رقم ٣٢٢٢

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٨] (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ)

« فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ » أى: الصيحة التى يحصل منها الزلزلة الشديدة بدل صوت الناقة عند عقرها ، وبدل حركتها عند نزع الروح « فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ » فى بلادهم أو مساكنهم « جَٰثِمِينَ » أى : ساقطين على وجوههم ، هامدين لا يتحركون ، ميتين بدل موت الناقة وسقوطها . والصيحة والزلزلة من آثار الريح المرسلة التى كانت رحمة فانقلبت عذاباً .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٧٩] (فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ)

« فَتَوَلَّىٰ » أى فأعرض صالح « عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى » المتضمنة لتخويف العذاب عنه « وَنَصَحْتُ لَكُمْ » فأمرتكم بكل خير ، ونهيتكم عن كل شر « وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ » أى من الرسل والأنبياء والعلماء لمخالفتهم أهويتكم. والظاهر أن صالحاً عليه السلام كان مشاهداً لما جرى عليهم، وأنه تولى عنهم، بعد ما أبصرهم جاثمين ، تولِّىَ مُغْتَمٍّ متحسر على ما فاته من إيمانهم ، يتحزن لهم بقوله (يَٰقَوْمِ . . .) إلخ كذا فى (الكشاف) . أو خاطبهم خطاب رسول الله ﷺ أهل قليب بدر حيث قال[1] :

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٧ ـ باب ما جاء فى عذاب القبر ، حديث ٧٢٦ ونصه :

عن ابن عمر قال: اطلع النبىّ ﷺ على أهل القليب فقال «هل وجدتم ماوعد ربكم حقًّا»؟

فقيل له : تدعو أمواتا ؟

فقال « ما أنتم بأسمع منهم . ولكن لا يجيبون » .

إنا وجدنا ماوعدنا ربنا حقًّا فهل وجدتم ماوعد ربكم حقًّا . ـ كما رواه البخاريّ ـ لا تحزنا ، ولكن إعلامًا بنصر الله له ، وتحقيق رسالته ، زيادة فى حزنهم وتوبيخهم ، فإن الأحياء ليسوا بأسمع منهم ، ولكن لايتكلمون. كما فى (الصحيح) . ويجوز عطف قوله (فَتَوَلَّىٰ) على قوله (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ) ، فيكون الخطاب لهم حين أشرفوا على الهلاك ، لا بعده . فيكون عليه السلام تولىعنهم تولىَ ذاهب عنهم، منكرٍ لإصرارهم حين رأى علامات نزول العذاب . والمتبادر الأولُ لظهور الفاء فى التعقيب ـ والله أعلم ـ .

تنبيهات

الأول : نأثرهنا مارواه علماء التاريخ والنسب فى بسطقصة ثمود، لمكان العظة والاعتبار مفصلًا . وإلا ، فجلىّ أن ماأجمله التنزيل الكريم لاغاية وراءه فى ذلك ، وما سكت عن بيانه من تلك القصص ، فلا حاجة إلى السعى وراءه لفقد القطع به ، اللهم إلا لزيادة الاتعاظ ، وتقوية العبرة، ولذا صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال(١) : حدثوا عن بنى إسرائيل ولاحرج.

وخلاصة مارووه عن ثمود أن عاداً لما هلكت، عمرت ثمود بلادها، وخلفوهم فى الأرض، وكانوا فى سعة ورخاء من العيش ، فعتوا على الله ، وأفسدوا فى الأرض ، وعبدوا الأوثان ، فبعث الله تعالى إليهم صالحاً عليه السلام ، وكانوا قوماً عرباً ، وصالح من أوسطهم نسباً ، فدعاهم إلى عبادته تعالى وحده ، فلم يتبعه إلا قليل منهم مستضعفون ، فحذرهم وأنذرهم ، فسألوه آية ، واقترحوا عليه بأن يخرج لهم ناقة عُشَرَاءَ ، تمخض من صخرة صماء ، عينوها بأنفسهم ، وكانت صخرة منفردة فى ناحية الجبل ، يقال لها (الكاتبة) ، فأخذ عليهم صالح العهود والمواثيق: لئن أجابهم الله إلى طلبتهم ليؤمنن به وليتبعنه. فلما أعطوه على ذلك عهودهم ومواثيقهم ، قام صالح عليه السلام إلى صلاته ، ودعا الله عز وجل، فتحركت تلك الصخرة،

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء، ٥٠ ـ باب ماذكر عن بنى إسرائيل، حديث ١٦٢٤ ونصه : عن عبد الله بن عَمْرٍو أن النبيّ ﷺ قال : بلّغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار .

ثم انصدعت عن ناقة جوفاء وَبْرَاء ، يتحرك جنينها بين جنبيها ، كما سألوا . فعند ذلك آمن رئيسهم جندع بن عمرو ومن كان معه على أمره ، وأراد بقية أشراف ثمود أن يؤمنوا ، فصدهم ذؤاب بن عمرو بن لبيد ، والحباب صاحب أوثانهم ، ورباب بن صعمر بن جلمس . وكان لجندع بن عمرو ابن عم له ، شهاب بن خليفة بن محلاة بن لبيد بن جواس ، وكان من أشراف ثمود وأفاضلها ، فأراد أن يسلم أيضاً فنهاه أولئك الرهط فأطاعهم ، فقال فى ذلك رجل من مؤمنى ثمود يقال له مهوش بن عنمة بن الزميل ، رحمه الله :

وكانت عصبةٌ من آل عمرو ... إلى دين النبيّ دَعَوْا شِهابا
عزيزَ ثمودَ كلِّهِمُ جميعاً ... فهمَّ بأن يجيب ولو أجابا
لأصبح صالحٌ فينا عزيزًا ... وما عدلوا بصاحبهم ذُؤَابَا
ولكن الغواة مِنَ آل حجْر ... تولوا بعد رشدهمُ ذُبَابَا

وأقامت الناقة وفصيلها ، بعد ما وضعته ، بين أظهرهم مدة ، تشرب من بئرها يوماً ، وتدعه لهم يوماً ، وكانوا يشربون لبنها يوم شربها ، يحتلبونها فيملؤون ماشاؤوا من أوعيتهم وأونيهم ، كما قال فى الآية الأخرى : وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ ، كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ [(١)] وقال تعالى : هَـٰذِهِ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ [(٢)] . وكانت تسرح فى بعض تلك الأودية ، ترد من فج ، وتصدر من غيره ، ليسعها . لأنها كانت تتضلع من الماء ، وكانت ـ على ما ذكر ـ خلقاً هائلا ، ومنظرًا رائعاً ، إذا مرت بأنعامهم نفرت منها . فلما طال عليهم ذلك ، واشتد تكذيبهم لصالح النبيّ عليه السلام ، عزموا على قتلها ليستأثروا بالماء كل يوم . فيقال إنهم اتفقوا كلهم على قتلها . قال قتادة : بلغنى أن الذى قتلها طاف عليهم كلهم أنهم راضون لقتلها ، حتى على النساء فى خدورهن . قال ابن كثير : قلت وهذا هو الظاهر لقوله تعالى (فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا) [(٣)] ،

---

(١) [٥٤ / القمر / ٢٨] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٥٥] قَالَ . . .
(٣) [٩١ / الشمس / ١٤] .

وقال(وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا)[١]، وقال(فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ)[٢]. فأسند ذلك إلى مجموع القبيلة ، فدل على رضى جميعهم بذلك ـ والله أعلم ـ .

وذكر الإمام أبو جعفر بن جرير[٣] ، وغيره من علماء التفسير ، أن سبب قتلها ، أن امرأة من ثمود يقال لها (عنيزة بنت غنم بن مجلز، تكنى بأم غنم، وهى من بنى عبيد بن المهل، أخى رُميل بن المهل، وكانت امرأة ذؤاب بن عمرو، وكانت عجوزا مسنة، وكانت ذات بنات حسان، وكانت ذات مال من إبل وبقر وغنم .

وامرأة أخرى يقال لها (صدوف بنت المحيّا بن دهر بن المحيّا) سيد بنى عبيد وصاحب أوثانهم فى الزمن الأول . وكان الوادى يقال له (وادى المحيّا) وهو المحيّا الأكبر، جدّ المحيّا الأصغر أبى صدوف .

وكانت صدوف من أحسن الناس ، وكانت غنية ذات مال من إبل وغنم وبقر .

وكانتا من أشد امرأتين فى ثمود عداوة لصالح، وأعظمه به كفرا .

وكانتا تحتالان أن تُعقر الناقة مع كفرهما به ، لما أضرّت به من مواشيهما .

وكانت صدوف عند ابن خال لها يقال له (صنتم بن هراوة بن سعد بن الغطريف) من بنى هلس ، فأسلم وحسن إسلامه .

وكانت صدوف قد فوّضت إليه مالها ، فأنفقه على من أسلم معه من أصحاب صالح ، حتى رقّ المال .

---

(١) [١٧ / الإسراء / ٥٩] ونصها: وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ، وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا، وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْأَيَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا.

(٢) [٧ / الأعراف / ٧٧] ونصها : فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ .

(٣) انظر تفسير الطبرىّ (جامع البيان عن تأويل القرآن) الصفحة ٥٣١ من الجزء الثانى عشر (طبعة المعارف) .

فاطلعت على ذلك من إسلامه صدوفُ ، فعاتبته على ذلك ، فأظهر لها دينه ، ودعاها إلى الله وإلى الإسلام فأبت عليه وبيّتت (١) له . فأخذت بنيه وبناته منه فغيّبتهم فى بنى عبيد، بطنِها الذى هى منه .

وكان صنتم زوجُها من بنى هليل، وكان ابن خالها . فقال لها : ردّى علىّ ولدى . فقالت: حتى أنافرك إلى بنى صنعان بن عبيد أو إلى بنى جندع بن عبيد . فقال لها صنتم : بل أنافرك إلى بنى مرداس بن عبيد . وذلك أن بنى مرداس بن عبيد كانوا قد سارعوا فى الإسلام وأبطأ عنه الآخرون .

فقالت لا أنا فرك إلا إلى من دعوتك إليه .

فقال بنو مرداس : والله لتعطِنّه ولده طائعة أو كارهة .

فلما رأت ذلك أعطته إياهم .

ثم إن صدوف وعنيزة مَحَلَتَا (٢) فى عقر الناقة للشقاء الذى نزل . فدعت صدوف رجلا من ثمود يقال له (الحباب) لعقر الناقة ، وعرضت عليه نفسها بذلك إن هو فعل فأبى عليها . فدعت ابن عم لها يقال له (مصدع بن مهرج بن المحيا) وجعلت له نفسها على أن يعقر الناقة. وكانت من أحسن الناس ، وكانت غنية كثيرة المال ، فأجابها إلى ذلك .

ودعت عنيزة بنت غنم (قدار بن سالف بن جندع) رجلا من أهل قُرْح .

وكان قدار رجلا أحمر أزرق قصيرا . يزعمون أنه كان لزنية ، من رجل يقال له (صهياد) ولم يكن لأبيه (سالف) الذى يدعى إليه . ولكنه قد ولد على فراش (سالف) وكان يدعى له وينسب إليه .

فقالت : أعطيتك أىّ بناتى شئت ، على أن تعقر الناقة .

---

(١) بيتت له : فكّرت فى الأمر وخمرته ودبّرته ليلا .

(٢) محل به : كاده واحتال فى المكر به حتى يوقعه فى الهلكة .

وكانت عنيزة شريفة من نساء ثمود ، وكان زوجها ذؤاب بن عمرو ، من أشراف رجال ثمود . وكان قدار عزيزا منيعا فى قومه .

فانطلق قدار بن سالف ، ومصدع بن مهرج ، فاستنفرا غُواةً من ثمود . فاتّبعهما سبعة نفر . فكانوا تسعة نفر . أحد النفر الذين اتّبعوهما رجل يقال له ، (هويل بن مبلغ) خال قدار ابن سالف ، أخو أمه لأبيها وأمها ، وكان عزيزا فى أهل حجر . و (دعير بن غنم بن داعر) وهو من بنى خلاوة بن المهل .

و (دأب بن مهرج) أخو مصدع بن مهرج .

وخمسة لم تحفظ لنا أسماؤهم .

فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء ، وقد كمن لها قُدار فى أصل شجرة على طريقها ، وكمن لها مصدع فى أصل أخرى . فمرت على مصدع فرماها بسهم ، فانتظم به عضلة ساقها . وخرجت أم غنم عنيزة وأمرت ابنتها ، وكانت من أحسن الناس وجها ، فأسفرت لقُدار وأرته إياه . ثم ذمَّرته [1] فشدّ على الناقة بالسيف فخشف [2] عرقوبها . فخرّت ورَغَتْ رَغاةً واحدة تحذّر سقبها . ثم طعن فى لبتها فنحرها .

انطلق سقبها حتى أتى جبلا مُنيفا . ثم أتى صخرة فى رأس الجبل فزعا ولاذ بها . واسم الجبل فيما يزعمون (صنو) ـ فأتاهم صالح ، فلما رأى الناقة قد عقرت ، قال انتهكتم حرمة الله ، فأبشروا بعذاب الله تبارك وتعالى ونقمته . فاتّبع السقبَ أربعة نفر من التسعة الذين عقروا الناقة ، وفيهم (مصدع بن مهرج) فرماه مصدع بسهم ، فانتظم قلبه ، ثم جرّ برجله فأنزله ، ثم ألقوا لحمه مع لحم أمه .

فلما قال لهم صالح : أبشروا بعذاب الله ونقمته ، قالوا له وهم يهزءون به : ومتى ذلك

---

(١) ذمَّرته : شَجّعته وحثته وحرّضته .

(٢) خشف رأسه بالحجر : شدخه . وكل ما شدخ فقد خشف .

يا صالح ؟ وما آية ذلك ؟ ـ وكانوا يسمون الأيام فيهم : الأحد (أول) والاثنين (أهون) والثلاثاء (وبار) والأربعاء (جبار) والخميس (مؤمن) والجمعة (العروبة) والسبت (شيار) وكانوا عقروا الناقة يوم الأربعاء ـ فقال لهم صالح حين قالوا له ذلك : تصبحون غداة يوم مؤمن ، يعني يوم الخميس ، ووجوهكم مصفرّة ، ثم تصبحون يوم العروبة ، يعني يوم الجمعة، ووجوهكم محمرّة ، ثم تصبحون يوم شيار ، يعني يوم السبت ، ووجوهكم مسودّة. ثم يصبحكم العذاب يوم الأول ، يعني يوم الأحد .

فلما قال لهم صالح ذلك ، قال التسعة الذين عقروا الناقة : هلم فلنقتل صالحاً . إن كان صادقاً عجّلناه قبلنا ، وإن كان كاذباً يكون قد ألحقناه بناقته .

فأتوه ليلا ليبيّتوه فى أهله ، فدمغتهم الملائكة بالحجارة . فلما أبطأوا على أصحابهم ، أتوا منزل صالح فوجدوهم مشدّخين قد رُضِخوا بالحجارة. فقالوا لصالح : أنت قتلتهم! ثم هموا به. فقامت عشيرته دونه ولبسوا السلاح وقالوا لهم : والله لا تقتلونه أبدًا، فقد وعدكم أن العذاب نازل بكم فى ثلاث ، فإن كان صادقاً لم تزيدوا ربكم عليكم إلا غضباً، وإن كان كاذباً فأنتم من وراء ما تريدون !

فانصرفوا عنهم ليلتهم تلك . والنفر الذين رضخهم الملائكة بالحجارة ، التسعةُ الذين ذكرهم الله تعالى فى القرآن بقوله تعالى(١) (وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ) إلى قوله : (لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) .

فأصبحوا من تلك الليلة التى انصرفوا فيها عن صالح، وجوههم مصفرّة ،فأيقنوا بالعذاب. وعرفوا أن صالحاً قد صَدَقهم ، فطلبوه ليقتلوه . وخرج صالح هارباً منهم حتى لجأ إلى بطن من ثمود يقال لهم (بنو غنم) فنزل على سيدهم رجلٍ منهم يقال له (نفيل) يكنى بأبى هدب، وهو مشرك ، فغيَّبه ، فلم يقدروا عليه .

---

(١) [٢٧ / النمل / ٤٨ ـ ٥٢] .

فغدوا على أصحاب صالح فعذّبوهم ليدلّوهم عليه ، فقال رجل من أصحاب صالح يقال له (ميدع بن هرم) : يانبيّ الله ، إنهم يعذبوننا لندلّهم عليك ، أفندلّهم عليك ؟ قال : نعم، فدلهم عليه (ميدع بن هرم) .

فلما علموا بمكان صالح ، أتوا أبا هدب فكلموه فقال لهم : عندى صالح ، وليس لكم إليه سبيل . فأعرضوا عنه وتركوه . وشغلهم عنه ما أنزل الله بهم من عذابه .

فجعل بعضهم يخبر بعضاً بما يرون فى وجوههم حين أصبحوا من يوم الخميس، وذلك أن وجوههم أصبحت مصفرّة، ثم أصبحوا يوم الجمعة ووجوههم محمرّة، ثم أصبحوا يوم السبت ووجوههم مسودّة . حتى إذا كان ليلة الأحد خرج صالح من بين أظهرهم ومَن أسلم معه إلى الشام . فنزل رملة فلسطين . وتخلف رجل من أصحابه يقال له (ميدع بن هرم) فنزل قُرْح ـ وهى وادى القرى ، وبين القُرح وبين الحجر ثمانية عشر ميلا ـ فنزل على سيدهم رجل يقال له (عمرو بن غنم) وقد كان أكل من لحم الناقة ولم يَشْرَكْ فى قتلها . فقال له ميدع ابن هرم : يا عمرو بن غنم ، اخرج من هذا البلد ، فإن صالحاً قال : من أقام فيه هلك ، ومن خرج منه نجا .

فقال عمرو : ما شركت فى عَقْرها ، وما رضيتُ ما صُنِع بها .

فلما كانت صبيحة الأحد ، أخذتهم الصيحة ، فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا هلك . إلا جارية مُقعدة يقال لها (الزُّرَيْعة) وهى الكلبة ابنة السِّلْق . كانت كافرة شديدة العداوة لصالح ، فأطلق الله لها رجليها بعدما عاينت العذاب أجمعَ. فخرجت كأسرع مايُرَى شيء قط . حتى أتت أهل قُرح فأخبرتهم بما عاينت من العذاب وما أصاب ثمود منه ، ثم استسقت من الماء فسُقِيَتْ ، فلما شربت ماتت .

الثانى ـ قال الرازىّ : زعم بعض الملحدين أن ألفاظ التنزيل فى حكاية هذه الواقعة اختلفت ، وهى الرجفة والطاغية والصيحة . والجواب ما قاله أبو مسلم : إن الطاغية اسم لكل ما تجاوز حده ، سواء كان حيواناً أو غير حيوان ، وألحق الهاء به للمبالغة . فالمسلمون

يسمون الملك العاتى بالطاغية والطاغوت. وقال تعالى: كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ * أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ[1]. ويقال: طغى طغيانا، وهو طاغ وطاغية. وقال تعالى: كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ[2] وقال فى غير الحيوان: إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ[3]، أى: غلب وتجاوز عن الحد. وأما الرجفة فهى الزلزلة فى الأرض، وهى حركة خارجة عن المعتاد، فلم يبعد إطلاق اسم الطاغية عليها. وأما الصيحة، فالغالب أن الزلزلة لا تنفك عن الصيحة العظيمة الهائلة. وأما الصاعقة، فالغالب أنها الزلزلة، وكذلك الزجرة، قال تعالى: فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ * فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ[4]. فبطل ما زعمه ذلك البعض.

الثالث ـ قال علماء التفسير: ولم يبق من ذرية ثمود أحدٌ، سوى صالح عليه السلام، ومن تبعه رضى الله عنهم. إلا أن رجلا يقال له أبو رغال. كان، لما وقعت النقمة بقومه، مقيماً إذ ذاك فى الحرم، فلم يصبه شىء، فلما خرج فى بعض الأيام إلى الحلّ، جاءه حجر من السماء فقتله.

روى الإمام أحمد[5] عن جابر قال: لما مرّ رسول الله ﷺ بالحِجْر قال: لا تسألوا الآيات، فقد سألها قوم صالح، فكانت ـ يعنى الناقة ـ ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فعتوا عن أمر ربهم، فعقروها، وكانت تشرب ماءهم يوما ويشربون لبنها يوما فعقروها، فأخذتهم صيحةٌ أخمد الله مَنْ تحت أديم السماء منهم، إلا رجلا واحدا كان فى حرم الله فقالوا: من هو يارسول الله؟ قال: أبو رغال. فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه. قال ابن كثير: وهذا الحديث ليس فى شىء من الكتب الستة، وهو على شرط مسلم.

وروى عبد الرزاق عن معمر: أخبرنى إسماعيل بن أمية؛ أن النبىّ ﷺ مرّ بقبر أبى رغال فقال: أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: هذا قبر أبى رغال،

(١) [٩٦/ العلق/ ٦و٧]. (٢) [٩١/ الشمس/ ١١]. (٣) [٦٩/ الحاقة/ ١١].

(٤) [٧٩/ النازعات/ ١٣و١٤].

(٥) أخرجه فى المسند بالصفحة ٢٩٦ من الجزء الثالث (طبعة الحلبىّ).

رجل من ثمود ، كان فى حرم الله ، فمنعه حرمُ الله عذابَ الله فلما خرج أصابه ما أصاب قومه ، فدفن ههنا ، ودفن معه غصن من ذهب ، فنزل القوم ، فابتدروه بأسيافهم ، فبحثوا عنه ، فاستخرجوا الغصن .

وأبو رغال هو أبو ثقيف الذين كانوا يسكنون الطائف ، كما روي مرفوعاً إلى النبي ﷺ ـ أخرجه أبو داود وغيره [١] .

الرابع ـ ذكرنا قبل ؛ أن رسول الله ﷺ مرّ على ديار ثمود المعروفة الآن بمدائن صالح ، وهو ذاهب إلى غزوة تبوك ، سنة تسع ، وأمر أصحابه أن يدخلوا خاشعين وَجِلين أن يصيبهم ما أصاب أهلها ، ونهاهم أن يشربوا من مائها . فروى الإمام أحمد [٢] عن ابن عمر قال : نزل رسول الله ﷺ بالناس عام تبوك ، نزل بهم الحِجْر عند بيوت ثمُودَ ، فاستسقى الناس من الآبار التى كانت تشرب منها ثمود ، فعجنوا منها ، ونصبوا القدور باللحم . فأمرهم النبيّ ﷺ ، فأهَرَاقوا القدور ، وعَلَفُوا العجين الإبلَ ، ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التى كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذِّبوا ، وقال : إنى أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم .

وروى أحمد [٣] والبخارى [٤] ومسلم [٥] عن ابن عمر قال : لما مرّ رسول الله ﷺ بالحجر قال : لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين ، إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين ، فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم . ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوز الوادى ؛

(١) أخرجه أبو داود فى : ١٩ ـ كتاب الخراج والإمارة والفىء ، ٤١ ـ باب نبش القبور ، حديث رقم ٣٠٨٨ (٢) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١١٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبى) والحديث رقم ٥٩٨٤ (طبعة المعارف) .

(٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ١٣٧ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٦٢١١ (طبعة المعارف) . (٤) أخرجه البخارىّ فى : ٦٤ ـ كتاب المغازى ، ٨٠ ـ باب نزول النبي ﷺ الحجْر ، حديث رقم ٢٨٤ .

(٥) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٣٨ و ٣٩ (طبعتنا) .

وللبخاري[1] : أن رسول الله ﷺ لما نزل الحجر في غزوة تبوك أمرهم أن لا يشربوا من آبارها ولا يستقوا منها . فقالوا : قد عجنّا منها ، واستقينا . فأمرهم النبيّ ﷺ أن يطرحوا ذلك العجين ، ويهريقوا ذلك الماء .

الخامس ـ قال ابن كثير : ذكر بعض المفسرين أن كل نبيّ هلكت أمته ، كان يذهب فيقيم في الحرم ، حرم مكة ، والله أعلم .

وقد قال الإمام أحمد[2] : حدثنا وكيع ، حدثنا زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : لما مرّ رسول الله ﷺ بوادي عُسْفَان حين حج قال : يا أبا بكر ! أيّ واد هذا ؟ قال : هذا وادي عُسْفان . قال : لقد مر به هود وصالح على بَكَرَاتٍ حُمْرٍ خُطُمها الليف ، أُزُرُهم العباء ، وأرديتهم النِّمَار ، يُلَبُّون ، يحجون البيت العتيق . قال ابن كثير : هذا حديث غريب من هذا الوجه ، لم يخرجه أحد منهم .

وقوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٠] ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

« وَلُوطًا » منصوب بفعل مضمر معطوف على ما سبق ، أي وأرسلنا لوطاً . ولفظه أعجميّ معناه في العربية (ملفوف) أو (مُرّ) ، كما في تأويل أسماء التوراة والإنجيل ـ وهو فيما قاله علماء النسب والتفسير ـ ابن هاران بن تارح (ويقال آزر) وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليهما السلام . وكان قد آمن مع إبراهيم عليهما السلام ، وهاجر معه إلى الشام ،

---

(١) أخرجه البخاريّ في : ٦٠ ـ كتاب الأنبياء ، ١٧ ـ باب قول الله تعالى : وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ، حديث رقم ١٥٩٥

ومسلم في : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٤٠ (طبعتنا)

(٢) أخرجه في المسند بالصفحة رقم ٢٣٢ من الجزء الأول (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٢٠٦٧ (طبعة المعارف) .

وتوطنا بلاد الكنعانيين من فلسطين ، وهي الأرض المقدسة ، ثم حدثت مشاجرة بين رعاتهما فنزح لوط إلى وادي الأردنّ ، وسكن مدينة سدوم فبعثه الله إلى أهلها ، وإلى ما جاورها من القرى . فصار يدعوهم إلى الله تعالى ، ويأمرهم بالمعروف ، وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والفواحش التي اخترعوها ، ولم يسبقهم بها أحد من العالمين ، من بنى آدم ، ولا غيرهم ، وهو إتيان الذكور .

قال ابن كثير : وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ، ولا يخطر ببالهم ، حتى صنعه أهل سدوم ، عليهم لعائن الله .

قال عمرو بن دينار : ما نزا ذكر على ذكر ، حتى كان قومُ لوط . وقال الوليد بن عبد الملك الخليفة الأمويّ ، باني جامع دمشق : لولا أن الله عز وجل قصّ علينا خبر قوم لوط ، ما ظننت أن ذكرا يعلو ذكرا .

ثم بيّن تعالى إنكار لوط عليهم بقوله سبحانه : « إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ » أى الفعلة المتناهية فى القبح . وقوله تعالى : « مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ » أى ما عملها أحد قبلكم ، والباء للتعدية ، من قولك (سبقته بالكرة) إذا ضربتها قبله ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام(1) : (سبقك بها عُكّاشة) . كذا فى (الكشاف) .

قال أبو السعود : والجملة مستأنفة ، مسوقة لتأكيد النكير ، وتشديد التوبيخ والتقريع . فإن مباشرة القبيح قبيح ، واختراعه أقبح ، فأنكر تعالى عليهم أولا إتيان الفاحشة ، ثم وبخهم بأنهم أول من عملها ، ثم استأنف بيان تلك الفاحشة تأكيدًا للإنكار السابق ، وتشديدًا للتوبيخ بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨١] (إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ)

« إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ » أى : الذين خلقهم الله ليأتوا النساء ، لا ليأتيهم الرجال .

(1) أخرجه البخاريّ فى : ٨١ ـ كتاب الرقاق ، ٥٠ ـ باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب ، حديث ١٦٠٥

وقرئ بهمزتين صريحتين، وبتليين الثانية، بغير مدّ، وبمدّ أيضاً. وفي زيادة (إن) و (اللام) مزيد توبيخ وتقريع، كأن ذلك أمر لا يتحقق صدوره عن أحد. وفي إيراد لفظ (الرجال) دون الغلمان والمردان ونحوها، مبالغة في التوبيخ وتأتون، من (أتى المرأة) إذا غشيها. قاله الزمخشريّ.

وفي (تاج العروس) : أتى الفاحشة : تلبّس بها ، ويكنى بالإتيان عن الوطء، وهو من أحسن الكنايات، ورجل مأتيّ أُتي فيه ، ومنه قول بعض المولدين :

يأتي ويؤتَى ليس ينكر ذا ، ولا هــذا ، كذلك إبرة الخيّاط

انتهى .

وقوله تعالى «شَهْوَةً» مفعول له، أي للاشتهاء، أي لا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داع آخر . ولا ذمَّ أعظم منه ، لأنه وصف لهم بالبهيمية ، وأنه لا داعي لهم من جهة العقل البتة ، كطلب النسل ونحوه . أو حال ، بمعنى مشتهين تابعين للشهوة ، غير ملتفتين إلى السماجة . كذا في (الكشاف) « مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ » أي: مجاوزين عن مواتاة النساء اللاتي خلقن لذلك . قال أبو السعود : ويجوز أن يكون المراد من قوله (شَهْوَةً) الإنكار عليهم ، وتقريعهم على اشتهائهم تلك الفعلة الخبيثة المكروهة ، كما ينبيء عنه قوله تعالى (مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ) أي : متجاوزين النساء اللاتي هنّ محالّ الاشتهاء كما ينبيء عنه قوله تعالى[(١)] (هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ). « بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ » إضراب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح ، وتدعو إلى اتباع الشهوات. وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف، وتجاوز الحدود في كل شيء . فمن ثمّ أسرفوا في باب قضاء الشهوة ، حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد . ونحوه[(٢)] (بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ) . كذا في (الكشاف) .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٨٢] (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ، إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)

« وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ » أي : المستكبرين في مقابلة نصحه « إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ

---

(١) [١١ / هود / ٧٨] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ١٦٦]

أَخْرِجُوهُم » أى : لوطاً والمؤمنين معه « مِّن قَرْيَتِكُمْ » أى : بلدكم . قال الزمخشريّ : يعنى ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط عليه السلام من إنكار الفاحشة ، وتعظيم أمرها ، ووسمهم بسمة الإسراف الذى هو أصل الشر كله . ولكنهم جاءوا بشيء آخر لايتعلق بكلامه ونصيحته ، من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ، ضجراً بهم ، وبما يسمعونه من وعظهم ونصحهم. وقولهم « إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ » سخرية بهم، وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخار بما كانوا فيه من القذارة . كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم (أبعدوا عنا هذا المتقشف ، وأريحونا من هذا المتزهد) .

قال ابن كثير : قال مجاهد : يتطهرون من أدبار الرجال وأدبار النساء . وروى مثله عن ابن عباس .

قال السيوطىّ فى (الإكليل) : فيستدل به على تحريم أدبار النساء ، أى بناء على أن تفسير الصحابىّ له حكم المرفوع .

ورجح ابن القيم أنه فى حكم الموقوف .

والمسألة تقدمت مستوفاة فى قوله تعالى (نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ)[١] فتذكر .

تنبيه :

قال الإمام شمس الدين ابن القيم رحمه الله فى كتابه (إغاثة اللهفان) :

قد وسم الله سبحانه الشرك والزنى واللواطة بالنجاسة والخبث فى كتابه ، دون سائر الذنوب ، وإن كان مشتملاً على ذلك . لكن الذى وقع فى القرآن قوله تعالى : (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ)[٢]، وقوله تعالى فى حق اللوطية (وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ، إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ)[٣]، وقالت اللوطية (أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ)[٤] فأقروا ، مع شركهم وكفرهم، أنهم هم الأخابث الأنجاس، وأن لوطاً وآله مطهرون من ذلك،

(١) [٢ / البقرة / ٢٢٣] . (٢) [٩ / التوبة / ٢٨] . (٣) [٢١ / الأنبياء / ٧٤] .
(٤) [٢٧ / النمل / ٥٦] .

باجتنابهم له . وقال تعالى فى حق الزناة : (ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ)(١)، وأما نجاسة الشرك فهى نوعان نجاسة مغلظة ، ونجاسة مخففة . فالمغلظة : الشرك الأكبر الذى لا يغفره الله عز وجل ، فإن الله عز وجل لا يغفر أن يُشْرَك به . والمخففة : الشرك الأصغر ، كيسير الرياء ، والتصنع للمخلوقات والحَلِف به ، وخوفه ورجائه .

ثم قال : ونجاسة الزنى واللواطة أغلظ من غيرها من النجاسات ، من جهة أنها تفسد القلب ، وتضعف توحيده جدًّا . ولهذا ، أحظى الناس بهذه النجاسة أكثرهم شركاً ، فكلما كان الشرك فى العبد أغلب ، كانت هذه النجاسة والخبائث فيه أكثر . وكلما كان أعظم إخلاصاً ، كان منها أبعد . كما قال تعالى عن يوسف الصديق عليه السلام : (كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ، إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ)(٢) فإن عشق الصور المحرمة نوع تعبدها بل هو من أعلى أنواع التعبد ، ولا سيما إذا استولى على القلب ، وتمكن منه ، صار تتيماً ، والتتيم : التعبد ، فيصير العاشق عابداً لمعشوقه ، وكثيراً ما يغلب حبه وذكره ، والشوق إليه ، والسعى فى مرضاته ، وإيثار محابّه ، على حب الله وذكره ، والسعى فى مرضاته . بل كثيراً ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية ، ويصير متعلقاً بمعشوقة من الصور ـ كما هو مشاهد ـ فيصير المعشوق هو إلهه من دون الله عز وجل ، يقدم رضاه وحبه على رضا الله وحبه ، ويتقرب إليه مالا يتقرب إلى الله ، وينفق فى مرضاته مالا ينفقه فى مرضاة الله ، ويتجنب سخطه ، ما لا يتجنب من سخط الله تعالى ، فيصير آثر عنده من ربه ، حبا وخضوعاً وذلًّا وسمعاً وطاعة . ولهذا كان العشق والشرك متلازمين ، وإنما حكى الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط ، وعن امرأة العزيز ، وكانت إذ ذاك مشركة ، فكلما قوى شرك العبد ، بُلى بعشق الصور ، وكلما قوى توحيده صرف ذلك عنه . والزانى واللواطة ، كمالُ لذته إنما يكون مع العشق ، ولا يخلو صاحبهما منه . وإنما لتنقله من محل إلى محل ، لا يبقى عشقه مقصوراً على محل واحد ، ينقسم على سهام كثيرة ، لكل محبوب نصيب من تألهه وتعبده فليس فى الذنوب أفسد للقلب والدين من هاتين الفاحشتين ، ولهما خاصية فى تبعيد القلب من

(١) [٢٤ / النور / ٢٦] . (٢) [١٢ / يوسف / ٢٤] .

الله ، فإنهما من أعظم الخبائث ، فإذا انصبغ القلب بهما بَعُدَ ممن هو طيّب ، لا يصعد إليه إلا طيّب . وكلما ازداد خبثاً ، ازداد من الله بعدًا . ولهذا قال المسيح ـ فيما رواه الإمام أحمد في كتاب (الزهد) ـ : لا يكون البطالون من الحكماء ، ولا يلج الزناة ملكوت السماء . ولما كانت هذه حال الزنى ، كان قريناً للشرك في كتاب الله تعالى . قال الله تعالى : (ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ)(1) .

ثم قال رحمه الله : والمقصود أن الله سبحانه وسمى الزوانى والزناة خبيثين وخبيثات ، وجنس هذا الفعل قد شرعت فيه الطهارة ، وإن كان حلالاً ، وسمى فاعله جنباً ، لبعده عن قراءة القرآن ، وعن الصلاة ، وعن المساجد ، فمنع من ذلك كله حتى يتطهر بالماء . فكذلك إذا كان حراماً ، يبعد القلب عن الله تعالى ، وعن الدار الآخرة ، بل يحول بينه وبين الإيمان ، حتى يحدث طهراً كاملاً بالتوبة ، وطهراً لبدنه بالماء . وقول اللوطية : (أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) من جنس قوله سبحانه في أصحاب الأخدود : (وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ)(2) ، وقوله تعالى : (قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ)(3) ، وهكذا المشرك ، إنما ينقم على الموحد تجريده للتوحيد ، وأنه لا يشوبه بالإشراك . وهكذا المبتدع إنما ينقم على السنيّ تجريده متابعة الرسول ، وأنه لم يَشُبْها بآراء الرجال ، ولا بشيء مما خالفها . فصبر الموحد المتبع للرسول على ما ينقمه عليه أهل الشرك والبدعة ، خير له وأنفع ، وأسهل عليه من صبره على ما ينقمه الله ورسوله من موافقه أهل الشرك والبدعة :

إذا لم يكن بدّ من الصبر فاصطبر ... على الحق . ذاك الصبر تُحمدُ عُقباهُ

ـ انتهى ـ .

---

(1) [٢٤ / النور / ٣] . (2) [٨٥ / البروج / ٨] . (3) [٥ / المائدة / ٥٩] .

ولما همّ قوم لوط بإخراجه ونفيه ومن معه من بين أظهرهم ، أخرجه الله تعالى سالماً ، وأهلكهم فى أرضهم صاغرين مهانين ، كما أشار لذلك بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٣] (فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ)

« فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ » أى ومن يختص به من ذويه ، أو من المؤمنين لطيبهم . قال ابن كثير : ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط ، كما قال تعالى[1] : (فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ) « إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ » أى فإنا لم ننجها لخبثها . قال ابن كثير : إنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها ، تمالئهم عليه ، وتُعْلِمُهُمْ بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم . ولهذا ، لما أُمر لوط عليه السلام لِيسرِىَ بأهله ، أُمِرَ أن لا يُعْلِمها ولا يخرجها من البلد . ومنهم من يقول بل اتبعتهم ، فلما جاء العذاب التفتت هى فأصابها ما أصابهم . والأظهر أنها لم تخرج من البلد ، ولا أعلمها لوط ، بل بقيت معهم . ولهذا قال ههنا (إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ) « كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ » أى من الذين غبروا فى ديارهم ، أى بقوا فهلكوا . وقيل : من الهالكين . وهو تفسير باللازم . والتذكير للتغليب ، ولبيان استحقاقها لما يستحقه المباشرون للفاحشة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٤] (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ، فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ)

« وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا » أى وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيباً غير متعارف ، وهو مبين بقوله تعالى : (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ)[2] أى طين متحجر .

قال المهايمى : ولكفرهم بمطر الشرائع المحيي بإبقاء النسل وغيره ، انقلب عليهم فى صورة العقاب .

(١) [٥١ / الذاريات / ٣٥و٣٦] . (٢) [١٥ / الحجر / ٧٤] .

وقرأت في التوراة المعربة أن الملكين اللذين جاءا لوطاً، عليه السلام، يخبرانه ويبشرانه بهلاك قومه ، قالا له : أخرج من هذا الموضع ، من لك ههنا من أصهارك وبنيك وبناتك وجميع من لك ، فإنّا بعثنا الرّب لنهلك هذه المدينة . ولما كان عند طلوع الفجر ألحّ الملكان على لوط بأخذ امرأته وابنتيه ، ثم أمسكا بأيديهم جميعاً وصيّراهم خارج المدينة وقالا : لا يلتفت أحد منكم إلى ورائه ، وتخلصا إلى الجبل . ولما أشرقت أمطر الرب من السماء على سَدُومَ وعمُورة كبريتاً ونارا ، وقلَبَ تلك المدن ، وكل البقعة ، وجميع سكان المدن ونَبْتَ الأرض ، والتفتت امرأته إلى ورائها فصارت نُصُبَ مِلْح ، وقدم إبراهيم غدوة من أرضه ، فتطلع إلى جهة سدوم وعمُورة ، فإذا دخان الأرض صاعد كدخان الأَتُون ـ انتهى ـ .

وقرأت في نبوة حزْقيال عليه السلام ، في الفصل السادس عشر ، في بيان إثم سدوم ما نصه :

إن الاستكبار والشبع من الخبز ، وطمأنينه الفراغ ، كانت في سدوم وتوابعها ، ولم تعضد يد البائس والمسكين ، وتشامخن وصنعن الرجس أمامي ، فنزعتهن كما رأيت ـ انتهى ـ .

وقد صار موضع تلك المدن بحر ماء أجاج ، لم يزل إلى يومنا هذا ، ويعرف بالبحر الميت، أو بحيرة لوط . والأرض التي تليها قاحلة لا تنبت شيئاً .

قال في (مرشد الطالبين) بحر لوط ، هو بحر سدوم ، ويدعى أيضاً البحر الميت ، وهو بركة مالحة في فلسطين ، طولها خمسون ميلا ، وعرضها عشرة أميال ، وهي أوطأ من بحر الروم بنحو ١٢٥٠ قدما ، وموقعها في الموضع الذي كانت عليه سدوم وعمُورة وأدمة وصبوييم ـ انتهى ـ .

وقوله : « فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ » أي هؤلاء أجرموا بالكفر وعمل الفواحش ، كيف أهلكناهم . والنظر تعجيباً من حالهم ، وتحذيراً من أعمالهم ، فإن من تستولي عليه رذيلة الدعارة ، تكبحه عن التوفيق نفساً وجسدا ، وتورده موارد الهلكة والبوار ، جزاء ماجنى لهم اتباع الأهواء .

تنبيه فى حد اللوطىّ :

اعلم أنه وردت السنة بقتل من لاط بذكر ، ولو كان بكرا ، وكذلك المفعول به ، إذا كان مختاراً ، لحديث ابن عباس ، عند أحمد [١] وأبى داود [٢] وابن ماجه [٣] والترمذىّ [٤] والحاكم والبيهقىّ ، قال : رسول الله ﷺ : من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط ، فاقتلوا الفاعل والمفعول به . قال ابن حجر : رجاله موثقون ، إلا أن فيه اختلافاً .

وأخرج ابن ماجه [٥] والحاكم من حديث أبى هريرة مرفوعاً : اقتلوا الفاعل والمفعول به أحصنا أولم يحصنا ـ وإسناده ضعيف ـ .

قال ابن الطلاع فى (أحكامه) : لم يثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رجم فى اللواط ، ولا أنه حكم فيه . وثبت عنه أنه قال : اقتلوا الفاعل والمفعول به ـ رواه عنه ابن عباس وأبو هريرة ـ انتهى .

وأخرج البيهقىّ عن علىّ أنه رجم لوطيًّا .

وأخرج البيهقىّ أيضاً عن أبى بكر ؛ أنه جمع الناس فى حق رجل ينكَح كما تنكح النساء ، فسأل أصحاب رسول الله ﷺ عن ذلك ، فكان من أشدهم يومئذ قولًا ، علىّ بن أبى طالب قال :

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٠٠ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٧٢٣ . (٢) أخرجه أبو داود فى : ٣٧ ـ كتاب الحدود ، ٢٨ ـ باب فيمن عَمِل عَمَل قوم لوط ، الحديث رقم ٤٤٦٢ . (٣) أخرجه ابن ماجة فى : ٢٠ ـ كتاب الحدود ، ١٢ ـ باب عَمِل عَمَلَ قوم لوط ، حديث رقم ٢٥٦١ .

(٤) أخرجه الترمذى فى : ١٥ ـ كتاب الحدود ، ٢٤ ـ باب ماجاء فى حدّ اللوطىّ .

(٥) الذى وقفت عليــه هو حديث للترمذى أخرجه فى : ١٥ ـ كتاب الحدود ، ٢٤ ـ باب ماجاء فى حدّ اللوطىّ ونصه : عن أبى هريرة عن النبىّ ﷺ قال « اقتلوا الفاعل والمفعول به » وليس فيه (أحصنا أولم يحصنا) .

هذا ذنب لم تعص به أمةٌ من الأمم إلا أمة واحدة ، صنع الله بها ماقد علمتم ، نرى أن نحرقه بالنار . فاجتمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن يحرقه بالنار ، فكتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد أن يحرقه بالنار .

وأخرج أبو داود [1] عن سعيد بن جبير ومجاهد ، عن ابن عباس : فى البكر يؤخذ على اللوطية ، يرجم .

وأخرج البيهقىّ عن ابن عباس أيضاً ؛ أنه سئل عن حد اللوطىّ فقال : ينظر أعلى بناء فى القرية فيرمى به منكساً ، ثم يتبع بالحجارة .

وقال المنذرىّ : حرق اللوطيةَ بالنار أبو بكر وعلىّ وعبد الله بن الزبير وهشام بن عبد الملك .

وبالجملة ، فلما ثبت أن حده القتل بقى الاجتهاد فى هيأته حرقاً أو تردية أو غيرهما .

وقال بعض المحققين : إن كان اللواط ممايصح اندراجه تحت عموم أدلة الزنى فهو مخصص بما ورد فيه من القتل لكل فاعل ، محصناً أو غيره . وإن كان غير داخل تحت أدلة الزنى ، ففى أدلته الخاصة له مايشفى ويكفى ـ انتهى ـ .

وقال الإمام الجشمىّ اليمنىّ : لو كان فى اللواط حد معلوم لما خفى على الصحابة ؛ حتى شاورهم فى ذلك أبو بكر رضى الله عنه ، لمّا كتب إليه خالد بن الوليد .

وقال الإمام ابن القيّم فى (زاد المعاد) : لم يثبت عنه ﷺ أنه قضى فى اللواط بشيء ، لأن هذا لم تكن تعرفه العرب ، ولم يرفع إليه ﷺ ، ولكن ثبت عنه أنه قال : اقتلوا الفاعل والمفعول به ـ رواه أهل السنن الأربعة وإسناده صحيح ـ وقال الترمذىّ : حديث حسن ، وحكم به أبو بكر الصديق ، وكتب به إلى خالد ، بعد مشاورة الصحابة ، وكان على كرم الله وجهه أشدهم فى ذلك .

---

(١) أخرجه أبو داود فى : ٣٧ ـ كتاب الحدود ، ٢٨ ـ باب فيمن عَمِل عَمَل قوم لوط ، حديث رقم ٤٤٦٣ .

وقال ابن القصار وشيخنا : أجمعت الصحابة على قتله ، وإنما اختلفوا فى كيفية قتله . فقال أبو بكر الصديق : يرمى من شاهق . وقال علىّ كرم الله وجهه : يهدم عليه حائط . وقال ابن عباس : يقتلان بالحجارة . فهذا اتفاق منهم على قتله ، وإن اختلفوا فى كيفيته . وهذا موافق لحكمه صلى الله عليه وسلم فيمن وطئ ذات محرم ، لأن الوطء فى الموضعين لا يباح للواطئ بحال . ولهذا جمع بينهما فى حديث ابن عباس رضى الله عنهما ، فإنه روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوه. وروى أيضاً عنه : من وقع على ذات رحم فاقتلوه . وفى حديثه[1] أيضاً بالإسناد : من أتى بهيمة فاقتلوه واقتلوها معه . وهذا الحكم على وفق حكم الشارع، فإن المحرمات كلما تغلظت ، تغلظت عقوبتها . ووطء من لا يباح بحالٍ أعظم جرمًا من وطء من يباح فى بعض الأحوال ، فيكون حده أغلظ . وقد نص أحمد فى إحدى الروايتين عنه ؛ أن حكم من أتى بهيمة حكم اللواط سواء ، فيقتل بكل حال ، أو يكون حدّه حدّ الزانى . واختلف السلف فى ذلك ، فقال الحسن : حدّه حدالزانى. وقال أبو سلمة : يقتل بكل حال . وقال الشعبىّ والنخعىّ : يعزّر ، وبه أخذ الشافعىّ ومالك وأبو حنيفة وأحمد فى رواية ، فإن ابن عباس أفتى بذلك ، وهو راوى الحديث . انتهى .

وقد طعن الحافظ ابن حجر فى تخريج أحاديث (الهداية) فى دعوى إجماع الصحابة على قتل اللوطىّ فى رواية البيهقىّ : أن أبا بكر جمع الصحابة فسألهم ، فكان أشدهم فى ذلك قولًا علىّ ، فقال : نرى أن نحرقه بالنار ، فاجتمع رأيهم على ذلك . قال ابن حجر : قلت : وهو ضعيف جدًّا . ولو صح لكان قاطعاً للحجة . انتهى .

وجلىّ أن عقوبات القتل أعظم الحدود ، فلا يؤخذ فيها إلا بالقواطع من كتاب أو سنة متواترة أو إجماع أو حديث صحيح السند والمتن، قطعىّ الدلالة . ولذا كان على الحاكم بذل جهده فى ذلك استبراءً لدينه ـ والله أعلم ـ .

---

(١) أخرجه الترمذىّ فى : ١٥ـ كتاب الحدود ، ٢٣ـ باب ما جاء فيمن يقع على بهيمة.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٥] (وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ، قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ ، قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ، فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا ، ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ)

« وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا » أى وأرسلنا إليهم . قال ابن إسحق : هم من سلالة مدين بن إبراهيم . وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين .

قال ابن كثير : مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة التى بقرب معان من طريق الحجاز وهم أصحاب الأيكة.

« قَالَ يَـٰقَوْمِ » أى : الذين أحب كمالهم ديناً ودنيا « ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ » وهذه دعوة الرسل كلهم كما قدمنا « قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ » أى ما تبيّن به الحق من الباطل . يعنى دعوته وإرشاده . ومن هنا قال بعضهم: عنى بالبينة مجئ شعيب ، وأنه لم تكن له آية إلا النبوة . ومن فسر البينة بالحجة والبرهان والمعجزة المحسوسة ذهاباً إلى أن النبيّ لما كان يدعو إلى شرع يوجب قبوله ، فلا بد من دليل يعلم صدقه به ، وما ذاك إلا المعجزة ـ قال : إن معجزة شعيب لم تذكر فى القرآن، وليست كل آيات الأنبياء مذكورة فى القرآن . ولا يخفى أن البينة أعم من المعجزة بعرفهم ، فكل من أبطلت شبهة ضلاله ، وأظهرت له حجة الحق الذى يدعى إليه فقد جاءته البينة. لأن حقيقة البينة كل ما يبين الحق. فاحفظه .

قال الجشمىّ : واختلفوا ، فقيل : لا يجوز أن يبعث إلا ومعه شرع ـ عن أبى هاشم ـ. وقيل : يجوز أن يدعو إلى ما فى العقل ـ عن أبى على ـ انتهى .

وقد دلت الآيات هذه على أن شعيباً ، عليه السلام، دعاهم إلى التوحيد والشرائع، على ما جرت به عادة الرسل، فمنها قوله: « فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ » أى فأتموها للناس بإعطائهم حقوقهم « وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ » أى : لاتنقصوهم حقوقهم فلا تخونوا الناس فى أموالهم ، وتأخذوها على وجه البخس ، وهو نقص المكيال والميزان خفية وتدليسا كما قال تعالى[1] : (وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ..) إلى قوله : (لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ) .

يقال : بخسه حقه أى نقصه إياه ، وظلمه فيه .

قال الزمخشرىّ : كانوا يبخسون الناس كل شىء فى مبايعاتهم ، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه . قال زهير :

أفى كلِّ أسواقِ العراقِ إتاوةٌ وفى كلِّ ما باع امرؤٌ مَكْسُ دِرْهَمِ

قال القاضى: وإنما قال (أَشْيَآءَهُمْ) للتعميم، تنبيها على أنهم كانوا يبخسون الجليل والحقير والقليل والكثير ـ انتهى ـ .

والنهى عن النقص يوجب الأمر بالإيفاء . فقيل: فى فائدة التصريح بالمنهىّ عنه، بيان لقبحه .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن زيد فى قوله تعالى : (وَلَا تَبْخَسُواْ ...) الآية ـ قال : أى لاتسمّوا لهم شيئاً ، وتعطوا لهم غير ذلك . ودلت الآية على أن إيفاء الكيل والميزان واجب على حسب ما يعتاد فى صفة الكيل والوزن « وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ » أى : بالكفر والظلم « بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا » أى: بعد ما أصلح أمرها وأهلها الأنبياء وأتباعهم الصالحون العاملون بشرائعهم من وضع الكيل والوزن والحدود والأحكام «ذَٰلِكُمْ» إشارة إلى العمل بما أمروا به ونهوا عنه «خَيْرٌ لَّكُمْ» فى الحال لتوجه الناس إليكم بسبب حسن الأحدوثة ، وفى المآل « إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ » أى : مصدقين قولى .

---

(١) [٨٣ / المطففين / ١ـ٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٦] (وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ، وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ، وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ)

« وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ » نهى عن قطع الطريق الحسىّ . أى : لا تجلسوا على كل طريق فيه ممر الناس الغرباء ، تضربونهم وتخوفونهم ، وتأخذون ثيابهم، وتتوعدونهم بالقتل ، إن لم يعطوكم أموالهم .

قال مجاهد : كانوا عشارين ــ أخرجه أبو الشيخ . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدىّ مثله . وعن ابن عباس وغير واحد أى تتوعدون المؤمنين الآتين إلى شعيب ليتبعوه .

قال ابن كثير : والأول أظهر ، لأنه قال (بِكُلِّ صِرَٰطٍ) وهو الطريق . وهذا الثانى هو قوله « وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا » أى : تصرفون عن دين الله وطاعته من آمن بشعيب، وتطلبون لها عوجاً بإلقاء الشبه ، ووصفها بما ينقصها لتغييرها « وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ » بالعدد والعُدَد ، فاشكروا نعمة الله عليكم فى ذلك « وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ » أى : من الأمم الخالية ، والقرون الماضية ، وما حلَّ بهم من العذاب والنكال باجترائهم على معاصى الله وتكذيب رسله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٧] (وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ، وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ)

« وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ » يعنى وإن اختلفتم فى رسالتى فصرتم فرقتين مؤمنة وكافرة « فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا »

أى : بين الفريقين بنصر المحقين على المبطلين ، فهو وعد للمؤمنين ، ووعيد للكافرين .

قال الشهاب : وخطاب (اصبروا) للمؤمنين ، ويجوز أن يكون للفريقين ، أى ليصبر المؤمنون على أذى الكفار، والكفار على مايسوؤهم من إيمانهم . أو للكافرين. أى تربصوا لتروا حكم الله بيننا وبينكم « وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ » لأنه منزّه عن الجور فى حكمه ، فسيجعل العاقبة للمتقين ، والدمار على الكافرين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٨] (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا، قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ)

« قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ » أى عن الإيمان « لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ » أى إلى ترك دعوى الرسالة، والإقرار بها، داخلين « فِي مِلَّتِنَا » أى ملة المشركين .

قال الجشمىّ : الملة الديانة التى يجمع على العمل بها فرقةٌ عظيمة . والأصل فيه تكرر الأمر ، من قولهم : طريق ممل ومليل ، إذا تكرر سلوكه حتى صار معلماً . ومنه الملل : تكرار الشىء على النفس حتى تضجر منه ـ انتهى .

« قَالَ » أى شعيب « أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ » أى : أتجبروننا على ذلك ، وإن كنا كارهين له ؟ مع أنه لا فائدة فى الإكراه ، لأن دينكم إن كان حقًّا ، لم نكن بالإكراه منقادين له ، وإن كان باطلا ، لم نكن بالإكراه متصفين به، لأنه بالحقيقة صفة القلب، ولا يسرى إكراهكم إليه. وكيف لا نكرهه وهو يستلزم غاية القبح والظلم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٨٩] (قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ، عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ)

« قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا » أى اختلقنا عليه باطلا بأن له شريكا « إِنْ عُدْنَا » إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها ، لندخل « فِى مِلَّتِكُم » القائلة بأن له شريكا « بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا » فأرانا أنه كالإنجاء من النار « وَمَا يَكُونُ » أى ينبغى « لَنَآ أَن نَّعُودَ » أى عن دعوى الرسالة والإقرار بها فنصير « فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا » أى الذى يربّينا بما علم من استعدادنا ؛ لأنه « وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا » أى فعلم استعداد كل واحد فى كل وقت ، لكن « عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا » أى ليحفظنا عن المصير إليها « رَبَّنَا » إن قصدوا إكراهنا عليها أو إخراجنا من قريتهم « ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ » فغلبنا عليهم « وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ » أى خير الحاكمين ، فلا تغلّبُ الظالمين وإن كثروا ، على المظلومين إذا استفتحوك .

تنبيهات :

الأول ـ اعلم أن ظاهر قوله تعالى (أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا) وقوله (بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا) يدل على أن شعيباً عليه السلام كان على ملتهم قبل بعثته . ومعلوم عصمة الأنبياء عن الكبائر ، فضلا عن الشرك .

وفى (المواقف وشرحها) : أن الأمة أجمعت على عصمة الأنبياء من الكفر قبل النبوة وبعدها ، غير أن الأزارقة من الخوارج جوّزوا عليهم الذنب ، وكل ذنب عندهم كفر ، فلزمهم تجويز الكفر . وجوّز الشيعة إظهار الكفر تقية عند خوف الهلاك ، واحترازاً عن إلقاء النفس فى التهلكة . ومثله فى (شرح التجريد) .

ولما تقرر إجماع الأمة على ما ذكر ، كان للعلماء فى هذه الآية وجوه :

منهـا : أن العود المقابل للخروج ، هو العود إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها .

والجار والمجرور حال . أى ليكن منكم الخروج من قريتنا ، أو العود إلى ترك دعوى الرسالة والإقرار بها ، داخلين فى ملتنا . وهذا الوجه اقتصر عليه المهايمىّ ، وسايرناه فيه مع تفسير تتمة الآية .

ومنها : أن العود المذكور إلى ما خرج منه ، وهو القرية . والمجرور حال كالسابق . أى ليكن منكم الخروج من قريتنا ، أو العود إليها ، كائنين فى ملتنا . وعُدِّىَ (عاد) بـ(فى) كأن الملة لهم بمنزله الوعاء المحيط بهم .

ومنها : أن هذا القول جارٍ على ظنهم أنه كان فى ملتهم ، لسكوته قبل البعثة عن الإنكار عليهم

ومنها : أنه صدر عن رؤسائهم تلبيساً على الناس ، وإيهاماً لأنه كان على دينهم . وما صدر عن شعيب عليه السلام كان على طريق المشاكلة .

ومنها : أن (لَتَعُودُنَّ) بمعنى لتصيرن . إذ كثيراً ما يرد (عاد) بمعنى (صار) ، فيعمل عمل (كان) . ولا يستدعى الرجوع إلى حالة سابقة ، بل عكس ذلك ، وهو الانتقال من حال سابقة ، إلى حال مؤتنفة مثـل (صار) . وكأنهم قالوا ـ والله أعلم ـ لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا ، أو لتصيرن كفارًا مثلنا .

قال الرازىّ : تقول العرب . قد عاد إلىّ من فلان مكروه ، يريدون : قد صار إلىّ منه المكروه ابتداءً . قال الشاعر[١] :

فإن تكنِ الأيامُ أحسنّ مدةً إلىّ فقد عادَتْ لَهُنَّ ذُنُوبُ

أراد : فقد صارت لهن ذنوب ، ولم يرد أن ذنوباً كانت لهن قبل الإحسان ـ انتهى ـ.

ومنه حديث معاذ[٢] . قال له النبىّ ﷺ : (أعُدت فتّانا يا معاذ ؟) أى صرت .

(١) لم أعرف اسمه ولم أقف على بيته .

(٢) استشهد به فى اللسان ، نقلا عن النهاية ، فى مادة (ع و د) .

ومنه حديث خزيمة(١) : عَادَ لَهَا النِّقَادُ مُجْرَنْثِماً . أى صار .

وفى حديث كعب(٢) : وددت أن هذا اللبن يعود قَطِرَاناً ، أى يصير . فقيل له: لم ذلك؟ قال : تَتَبَعَّتْ قريشٌ أذنابَ الإبل ، وتركوا الجماعات .

قال الشهاب: إلا أنه قيل إنه لا يلائم قوله (بَعْدَ إِذْ نَجَّنَا اللَّهُ مِنْهَا) إلا أن يقال بالتغليب فيه، أو يقال: التنجية لا يلزم أن تكون بعد الوقوع فى المكروه. ألا ترى إلى قوله (فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ وَ)(٣) وأمثاله ؟

ومنها : أن العود يطلق ، ويراد به الابتداء . حققه الراغب والجاربردىّ وغير واحد .

وأنشدوا قول الشاعر :

* وَعَادَ الرأسُ مِنّى كالثَّغَامِ(٤)

ومعنى الآية : لتدخلنّ فى ملتنا ، وقوله تعالى (إِنْ عُدْنَا) أى دخلنا ـ كذا فى تاج العروس ـ .

ومنها : إبقاء صيغة العود على ظاهرها، من استدعائها رجوع العائد، إلى حالٍ كان عليها قبل . كما يقال : عاد له ، بعد ما كان أعرض عنه . إلا أن الكلام من باب التغليب . قال الزمخشرىّ : لما قالوا (لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ) فعطفوا على ضميره، الذين

---

(١) استشهد به فى اللسان، نقلا عن النهاية ، فى مادة (عود) وقال فى مادة (جرثم): النِّقَادُ : صغار الغنم . ومجرنثما : مجتمعا متقبضا ، وإنما اجتمعت فى الجدب لأنها لم تجد مرعى تنتشر فيه. وإنما لم يقل (مجرنثمة) لأن لفظ (النقاد) لفظ الاسم الواحد . كالحِذَار والخِمَار.

(٢) استشهد به فى اللسان ، نقلا عن النهاية ، فى ماد (ع و د) .

(٣) [٧ / الأعراف / ٨٣] و [٢٧ / النمل / ٥٧] . (٤) فى اللسان : الثَّغام نبت على شكل الحَلِىّ ، وهو أغلظ منه ، وأجلّ عودا ، يكون فى الجبل ينبت أخضر ثم يبيضّ إذا يبس ، وله سَنَمَةٌ غليظة . ولا ينبت إلا فى قُنَّة سوداء ، وهو ينبت بنجد وتهامة .

دخلوا فى الإيمان منهم بعد كفرهم ـ قالوا (لَتَعُودُنَّ) فغلبوا الجماعة على الواحد ، فجعلوهم عائدين جميعاً ، إجراء للكلام على حكم التغليب . وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال (إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا) وهو يريد عود قومه ، إلا أنه نظم نفسه فى جملتهم ، وإن كان بريئاً من ذلك ، إجراء لكلامه على حكم التغليب ـ انتهى ـ .

ومنها : ما قاله الناصر فى (الانتصاف) : إنه يسلم استعمال (العود) بمعنى (الرجوع إلى أمر سابق) ، ويجاب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله تعالى[١] : (ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ، وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ) والإخراج يستدعى دخولاً سابقاً فيما وقع الإخراج منه ، ونحن نعلم أن المؤمن الناشىء فى الإيمان لم يدخل قط فى ظلمة الكفر ، ولا كان فيها . وكذلك الكافر الأصلىّ ، لم يدخل قط فى نور الإيمان ، ولا كان فيه . ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية التى خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكناً منه لو أراده ، فعبر عن تمكن المؤمن من الكفر ، ثم عدوله عنه إلى الإيمان ، إخباراً بالإخراج من الظلمات إلى النور ، توفيقاً من الله له ، ولطفاً به ، وبالعكس فى حق الكافر . وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى[٢] : (أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ) وهو من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب . وفائدة اختياره فى هذه المواضع تحقيق التمكن والاختيار ، لإقامة حجة الله على عباده ـ والله أعلم ـ انتهى .

الثانى : فى قوله : (إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا) ردّ إلى الله تعالى مستقيم .

قال الواحدىّ : والذى عليه أهل العلم والسنة فى هذه الآية ؛ أن شعيباً وأصحابه قالوا : ما كنا لنرجع إلى ملتكم ، بعد أن وقفنا على أنها ضلالة تكسب دخول النار ، إلا أن يريد إهلاكنا . فأمورنا راجعة إلى الله ، غير خارجة عن قبضته ، يسعد من يشاء بالطاعة ، ويشقى من يشاء بالمعصية . وهذا من شعيب وقومه استسلام لمشيئة الله . ولم تزل الأنبياء والأكابر

---

(١) [٢ / البقرة / ٢٥٧] . (٢) [٢ / البقرة / ١٦] .

يخافون العاقبة، وانقلاب الأمر. ألا ترى إلى قول الخليل[١] عليه الصلاة والسلام: (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ)؟ وكان نبيّنا محمد صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول[٢]: يا مقلّب القلوب! ثبّتْ قلبي على دينك.

وقال الزجاج: المعنى: وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يكون قد سبق في علم الله ومشيئته أن نعود فيها. وتصديق ذلك قوله (وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً)، يعني أنه تعالى يعلم ما يكون، من قبل أن يكون، وما سيكون. وأنه تعالى كان عالماً في الأزل بجميع الأشياء. فالسعيد من سعد في علم الله تعالى. والشقيّ من شقي في علم الله تعالى.

وقال الناصر في (الانتصاف): موقع قوله (وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً) الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة، والاطلاع على الأمور الغائبة. فإن العود إلى الكفر جائز في قدرة الله أن يقع من العبد. ولو وقع، فبقدرة الله ومشيئته المغيّبة عن خلقه. فالحذر قائم، والخوف لازم. ونظيره قول إبراهيم عليه السلام (وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ)[٣] لما ردّ الأمر إلى المشيئة، وهي مغيّبة، مجّد الله تعالى بالانفراد بعلم الغائبات ـ والله أعلم.

وقال أبو السعود: معنى (وَمَا يَكُونُ لَنَا . . .) الآية ـ أي ما يصح لنا أن نعود فيها في حالٍ من الأحوال، أو في وقت من الأوقات، إلا أن يشاء الله. أي إلا حال مشيئة الله تعالى، أو وقت مشيئته تعالى، لعودنا فيها. وذلك مما لا يكاد يكون، كما ينبئ عنه قوله تعالى: (رَبُّنَا . .) فإن التعرض لعنوان ربوبيته تعالى لهم، مما ينبئ عن استحالة مشيئته تعالى لارتدادهم قطعاً، وكذا قوله (بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا) فإن تنجيته تعالى لهم منها، من دلائل عدم مشيئته لعودهم فيها. وقيل معناه: إلا أن يشاء الله خذلاننا. فيه دليل على أن الكفر بمشيئته تعالى. وأيًّا ما كان، فليس المراد بذلك بيان أن العود فيها في حيّز الإمكان، وخطر الوقوع، بناء على كون مشيئته تعالى كذلك. بل بيان استحالة وقوعها. كأنه

(١) [١٤ / إبراهيم / ٣٥]. (٢) أخرجه الترمذيّ في: ٣٠ ـ كتاب القدر، ٧ ـ باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن. (٣) [٦ / الأنعام / ٨٠].

قيل : وما كان لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا ، وهيهات ذلك . بدليل ما ذكر من موجبات عدم مشيئته تعالى له ـ انتهى ـ .

ولا يخفى أن إفهام ذلك الاستحالة ، هو باعتبار الواقع ، وما يقتضيه منصب النبوة . وأما إذا لوحظ مقام الخوف والخشية، الذى هو من أعلى مقامات الخواص، فيكون ماذكرناه أولا أدق ، وبالقبول أحق .

قال الإمام ابن القيم فى (طريق الهجرتين) : قد أثنى الله سبحانه على أقرب عباده إليه بالخوف منه ، فقال عن أنبيائه ، بعد أن أثنى عليهم ومدحهم (إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَارِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً)[1] فالرغب الرجاء ، والرهب الخوف والخشية . وقال عن ملائكته الذين قد آمنهم من عذابه (يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ)[2] وفى الصحيح[3] عن النبىّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: إنى أعلمكم بالله، وأشدكم له خشية. وفى لفظ آخر: إنى أخوفكم لله وأعلمكم بما أتقى. وكان صلى الله عليه وسلم[4] يصلى ولصدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء. وقد قال تعالى[5] (إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَآؤُاْ) فكلما كان العبد بالله أعلم ، كان له أخوف .

الثالث : قال الفرّاء[6] : أهل عُمان يسمون (القاضى) الفاتح والفتاح . لأنه يفتح مواضع الحق ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال : ما كنت أدرى قوله (رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ) حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول لزوجها : تعالَ أفاتحك ، أى أحاكمك .

---

(١) [٢١ / الأنبياء / ٩٠] . (٢) [١٦ / النحل / ٥٠] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٧٨ ـ كتاب الأدب ، ٧٢ ـ باب من لم يواجه الناس بالعتاب ، حديث ٢٣٤٣ . (٤) أخرجه النسائىّ فى: ١٣ ـ كتاب السهو ، ١٨ ـ باب البكاء فى الصلاة . (٥) [٣٥ / فاطر / ٢٨] . (٦) انظر معانى القرآن للفراء ، الصفحة ٣٨٥ من الجزء الأول (طبعة دار الكتب) .

وقال الشهاب : الفتح ، بمعنى الحكم ، وهى لغة لحمير ، أو لمراد ، والفُتاحة (بالضم) عندهم الحكومة . أوهو مجاز بمعنى : أظهرْ وبيّن أمرنا ، حتى ينكشف ما بيننا وبينهم ، ويتميز المحق من المبطل. ومنه فتح المشكل لبيانه وحلّه، تشبيهاً له بفتح الباب وإزالة الأغلاق، حتى يوصل إلى ما خلفها .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٠] (وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ)

«وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا» أى فيما يأمركم به وينهاكم عنه « إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ » أى لجاهلون مغبونون ، لاستبدالكم ضلالته بهداكم ، أو لفوات ما يحصل لكم من بخس الكيل والميزان .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩١] (فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ)

« فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ » أى الزلزلة الشديدة .

قال ابن كثير: أخبر تعالى هنا أنهم أخذتهم الرجفة، كما أرجفوا شعيباً وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء، كما أخبر عنهم فى سورة هود، فقال (وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ)(١) والمناسبة هناك ـ والله أعلم ـ أنهم لما تهكموا به فى قولهم (أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ . . .) الآية(٢) ـ فجاءت الصيحة فأسكتتهم . وقال تعالى فى الشعراء (فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ، إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)(٣) وماذاك إلا لأنهم قالوا له فى سياق القصة (فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ...)(٤) الآية

---

(١) [١١ / هود / ٩٤] . (٢) [١١ / هود / ٨٧] .
(٣) [٢٦ / الشعراء / ١٨٩] . (٤) [٢٦ / الشعراء / ١٨٧] .

فأخبر أنه أصابهم عذاب يوم الظلة . وقد اجتمع عليهم ذلك كله . أصابهم عذاب يوم الظلة، وهى سحابة أظلتهم ، فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم . ثم جاءتهم صيحة من السماء ، ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم ، فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس ، وخمدت الأجسام « فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ » أى مدينتهم « جَٰثِمِينَ » أى ساقطين ميتين ، لا ينتفعون برؤوس أموالهم ولا بزوائدها .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٩٢] (ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا، ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ)

« ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا » استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم (لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ) وعقوبتهم بمقابلته . والموصول مبتدأ ، وخبره جملة(كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا)أى استؤصلوا بالمرة ، وصاروا كأنهم، لما أصابتهم النقمة ، لم يقيموا بديارهم ، التى أرادوا إجلاء الرسول وصحبه منها .

ثم قال تعالى مقابلا لقيلهم السابق : « ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ » ديناً ودنيا ، لا الذين صدقوه واتبعوه كما زعموا .

قال أبو السعود : استئناف آخر لبيان ابتلائهم بعقوبة قولهم الأخير . وإعادة الموصول والصلة كما هى ، لزيادة التقرير ، والإيذان بأن ما ذكر فى حيّز الصلة ، هو الذى استوجب العقوبتين . أى الذين كذبوه عليه السلام ، عوقبوا بمقالتهم الأخيرة ، فصاروا هم الخاسرين، لا المتبعون له ، وبهذا القصر اكتفى عن التصريح بإنجائه عليه الصلاة والسلام ، كما وقع فى سورة هود من قوله تعالى: (وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ) .

وقال الزمخشرىّ : فى هذا الاستئناف والابتداء ، وهذا التكرير ، مبالغة فى ردّ مقالة الملأ لأشياعهم ، وتسفيه لرأيهم ، واستهزاء بنصحهم لقومهم ، واستعظام لما جرى عليهم .

وفى (العناية) : أن من عادة العرب الاستئناف من غير عطف ، فى الذمّ والتوبيخ . فيقولون : أخوك الذى نهب مالنا ، أخوك الذى هتك سترنا . ـ انتهى ـ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٣] (فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ)

« فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ » أى : أعرض عن شفاعتهم والحزن عليهم « وَقَالَ » أى: فى الاعتذار « يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى » أى بالأمر والنهى « وَنَصَحْتُ لَكُمْ » أى : حذرتكم من عذاب الله ، ودعوتكم إلى التوبة والإيمان بما يفيد ربح الدارين ، ويمنعكم خسرانهما ، لكنكم كفرتم « فَكَيْفَ ءَاسَىٰ » أى : أحزن حزناً شديداً « عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ » أى بالله إن هلكوا ، فضلاً عن أن أشتغل بشفاعتهم . يعنى أنه لا يأسى عليهم ، لأنهم ليسوا أحقّاء بالأسى .

تنبيه :

قال الجشمىّ : من أحكام الآية أنها تدل على أن قوم شعيب أهلكوا بعذاب الاستئصال ، لما لم يقبلوا نصيحة نبيّهم . فتدل على وجوب قبول النصيحة فى الدين . وتدل على أنه لا يجوز الحزن على هلاك الكفرة والظَّلَمَة ، بل يجب أن يحمد الله ويشكر . كما قال تعالى (فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ، وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)(١)

لطيفة :

ذكروا أن شعيباً، عليه السلام، يقال له خطيب الأنبياء لفصاحة عبارته، وجزالة موعظته وأصله ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيباً يقول : ذاك خطيب الأنبياء ، لحسن مراجعته قومه .

(١) [٦ / الأنعام / ٤٥] .

والمراجعة (مفاعلة) من الرجوع ، وهى مجاز عن المحاورة . يقال : راجعه القول . وإنما عنى النبيّ صلى الله عليه وسلم ما ذكر فى هذه السورة ، كما يعلم بالتأمل فيه . كذا فى (العناية) .

ثم أشار تعالى إلى أحوال سائر الأمم مع أنبيائهم إجمالا ، إثر بيان الأمم المذكورة تفصيلا ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٤] (وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ)

« وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ » أى كذبه أهلها « إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا » أى قبل الإهلاك الكلىّ « بِٱلْبَأْسَآءِ » أى شدة الفقر « وَٱلضَّرَّآءِ » أى المرض ، لاستكبارهم عن اتباع ، نبيهم ، وتعززهم عليه « لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ » ليتضرعوا ويتذللوا ، ويحطّوا أردية الكبر والعزة ، فيؤمنوا .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٥] (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا۟ وَّقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)

« ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلْحَسَنَةَ » أى أعطيناهم ـ بدل ما كانوا فيه من البلاء ، كالشدة والمرض ـ السعةَ والصحة « حَتَّىٰ عَفَوا۟ » أى كثروا ونموا فى أنفسهم وأموالهم. من قولهم : عفا النبات ، وعفا الشحم والوبر ، إذا كثرت . ومنه قوله ﷺ [(١)] (وأعفوا اللحى) « وَقَالُوا۟ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ » يعنى وأبطرتهم النعمة وأشروا ،

---

(١) أخرجه مسلم فى : ٢ ـ كتاب الطهارة ، حديث رقم ٥٢ (طبعتنا) .
والبخاريّ فى : ٧٧ ـ كتاب اللباس ، ٦٥ ـ باب إعفاء اللحى ، حديث رقم ٢٢٩٢.

فقالوا كفراناً لها : هذه عادة الدهر . يعاقب فى الناس بين الضراء والسراء ، وقد مس آباءنا نحو ذلك فصبروا على دينهم ، فنحن مثلهم ، نقتدى بهم ، وما هو بابتلاء من الله لعباده ، تصديقاً لوعد الرسل ، فازدادوا كفراً بعد الإعلام القولىّ والفعلىّ . والمعنى : أن الله تعالى ابتلاهم بالسيئة لينيبوا إليه ، فما فعلوا . ثم بالحسنة ليشكروا ، فما فعلوا . وإذا لم ينجع فيهم هــذا ولا ذاك ، فلم يبق إلا أن يأخذهم بالعذاب ، وقد فعل . كما قال سبحانه « فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ » أى فأخذناهم أشد الأخذ وأفظعه ، وهو أخذهم فجأة ، من غير شعور منهم ، ولا خطور شىء من المكاره ببالهم ، كقوله تعالى (حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ ...)[1] الآية ـ وفى الحديث[2] (موت الفجأة راحة للمؤمن وأخذة أسف للفاجر) رواه الإمام أحمد والبيهقىّ عن عائشة . مرفوعاً .

تنبيه :

اعتقاد أن مناوبة الضراء والسراء عادة الدهر ، من غير أن يكون هناك داعيــة تؤدى إليها ، ولا حكمة فيهما ، هو من اعتقاد الكافرين .

قال ابن كثير : المؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من الضراء والسراء ، فيشكر الله على السراء ، ويصبر على الضراء . ولهذا جاء فى الحديث[3] : لا يزال البلاء بالمؤمن حتى يخرج نقيًّا من ذنوبه . والمنافقُ مثله كمثل الحمار لا يدرى فيم ربطه أهله ، ولا فيم أرسلوه ـ أو كما قال ـ .

وفى الصحيحين[4] : عجباً لأمر المؤمن . إن أمره كله خير . وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن . إن أصابته سراء شكر ، فكان خيراً له . وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له .

وقوله تعالى :

---

(١) [٦ / الأنعام / ٤٤] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة ١٣٦ من الجزء السادس (طبعة الحلبىّ) .

(٣) لم أعثر على هذا النص فيما بين يدىّ من المصادر .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٥٣ ـ كتاب الزهد والرقائق ، حديث ٦٤ (طبعتنا) . ولم يخرجه البخارىّ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٦] (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ)

« وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ » أى القرى المُهْلَكَة « ءَامَنُواْ » أى بالله ورسلهم « وَٱتَّقَوْاْ » أى الكفر والمعاصى « لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ » أى لوسعنا عليهم الخير ، ويسرناه لهم من كل جانب ، مكان ما أصابهم من فنون العقوبات ، التى بعضها من السماء ، وبعضها من الأرض . فـ (فتحنا) استعارة تبعية ، لأنه شبه تيسير البركات عليهم بفتح الأبواب فى سهولة التناول . أو مجاز مرسل فى لازمه ، وهو التيسير . أو أريد بـ (بركات السماء) المطر و (بركات الأرض) النبات والثمار « وَلَـٰكِن كَذَّبُواْ » أى الرسل « فَأَخَذْنَـٰهُم » أى عاقبناهم « بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ » من الكفر والمعاصى .

تنبيه :

أفادت الآية قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل ، كقوله تعالى (فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَـٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)(١) أى : ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس ، فإنهم آمنوا ، وذلك بعد ما عاينوا من العذاب ، كما قال تعالى عنهم (فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعْنَـٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ)(٢) .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٧] (أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ)

« أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ » أى : القرى المذكورة « أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا » أى : عذابنا ونكالنا « بَيَـٰتًا » أى : ليلا ، أى وقت بيات « وَهُمْ نَآئِمُونَ » أى حال كمال الغفلة .

---

(١) [١٠ / يونس / ٩٨] . (٢) [٣٧ / الصافات / ١٤٨] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٨] (أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ)

« أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ » أى : يخوضون فى الباطل ويلهون من فرط الغفلة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٩٩] (أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ، فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ)

« أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ » وهو أخذه العبد من حيث لا يحتسب « فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ » أى لا يأمن أحدٌ أخذَه تعالى العبدَ من حيث لا يشعر ، مع كثرة ما رأى من أخذه العباد من حيث لا يحتسبون ، إلا القوم الذى خسروا عقولهم ، وأضاعوا فطرة الله التى فطر الناس عليها ، والاستعداد القريب المستفاد من النظر فى الآيات ، فصاروا خاسرين إنسانيتهم ، بل أخسّ من البهائم . وفى قوله تعالى « أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ » تكرير للنكير فى قوله : (أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ) لزيادة التقرير .

قال الزمخشرىّ : فعلى العاقل أن يكون فى خوف من مكر الله ، كالمحارب الذى يخاف من عدوّه الكمين ، والبيات ، والغيلة . وعن الربيع بن خُثَيْم أن ابنته قالت : مالى أرى الناس ينامون ولا أراك تنام ؟ فقال : يا بنتاه ! إن أباك يخاف البيات . أراد قوله (أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا) . ـ انتهى ـ .

وقال الحسن البصرىّ : المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق ، وَجِلٌ خائفٌ . والفاجر يعمل بالمعاصى وهو آمن .

تنبيه :

الأمن من مكر الله كبيرة عند الشافعية ، وهو الاسترسال فى المعاصى ، اتكالا على عفو الله ـ كما فى جمع الجوامع ـ .

وقال الحنفية : إنه كفر كاليأس ، لقوله تعالى : (إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ)[١] (فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ)[٢] .

واستدل الشافعية بحديث ابن مسعود[٣] رضي الله عنه (مِنَ الْكَبَائِرِ الْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ) . وما ورد من أنه كفر ، محمول على التغليظ . كذا فى (العناية) .

وروى ابن أبى حاتم والبزار عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أنه صلى الله عليه وسلم سئل: مَا الْكَبَائِرُ ؟ فَقَالَ : الشِّرْكُ بِاللهِ ، وَالْإِيَاسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ . قال بعضهم : والأشبه أن يكون موقوفاً .

قال ابن حجر : وبكونه أكبر الكبائر ، صرح ابن مسعود . كما رواه عنه عبد الرزاق والطبرانى .

قال الكمال بن أبى شريف : عطفهما ـ يعنى الإياس والأمن ـ فى الحديث على (الإشراك بالله) المحمول على مطلق الكفر ، ظاهر فى أنهما غير الكفر .

وقال أيضاً. مراد الشافعية بكونه كبيرة ؛ أن من غلب عليه الرجاء غلبة دخل بها فى حد الآمن من المكر، كمن استبعد العفو عن ذنوبه لعظمها استبعاداً دخل به فى حد اليائس. وأما من كان أمنه لاعتقاد أن لا مكر ، كمن كان يأسه لإنكار سعة الرحمة ذنوبه . فينبغى أن يكون كل منهما كافرا عند الشافعية أيضاً ، ويحمل عليه نص القرآن ـ انتهى ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٠] (أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ، وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ)

« أَوَلَمْ يَهْدِ » أى يتبين « لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ » أى المأخوذين

---

(١) [١٢ / يوسف / ٨٧] . (٢) [الأعراف / ٩٩] .

(٣) لم أقف على هذا الحديث .

« أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ » أى كما أصبنا من قبلهم فأهلكنا الوارثين كما أهلكنا الموروثين « وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ » أى نختم عليها فلا يقبلون موعظة ولا إيمانا .

قال أبو البقاء : يقرأ (يهد) بالياء وفاعله (أن لو نشاء) . و (أن) مخففة من الثقيلة، أى : أو لم يبين لهم علمهم بمشيئتنا . ويقرأ بالنون . و (أن لو نشاء) مفعوله . وقيل : فاعل (يهدى) ضمير اسم الله تعالى ـ انتهى ـ .

ويؤيده قراءة النون . وجوز أن يكون ضميرا عائدا على ما يفهم مما قبله ، أى : أَوَلَمْ يهد ما جرى للأمم السابقة . وتعدية (يهد) باللام ، لأنه بمعنى (يبين) إما بطريق المجاز ، أو التضمين .

قال الشهاب : وإنما جعل بمعنى (يبين) ، وإن كان (هدى) يتعدى بنفسه ، وباللام وبإلى ـ لأن ذلك فى المفعول الثانى لا فى الأول ، كما هنا ، فهذا استعمال آخر . وقيل : لك أن تحمل اللام على الزيادة ، كما فى (رَدِفَ لَكُم)[1] والمراد بـ(الذين) أهل مكة ومن حولها ، كما نقل عن ابن عباس رضى الله عنهما ـ انتهى ـ .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠١] (تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ، وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ، كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ)

« تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ » أى المذكورة وهى قرى قوم نوح وعاد وثمود ، وقوم لوط، وقوم شعيب « نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا » مما يدل على مؤاخذتهم بذنوبهم لإصرارهم عليها بعد التنبيه.

(١) [٢٧ / النمل / ٧٢] .

ثم بين تعالى أنه أعذر إليهم، بأن بيّن لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل بقوله: « وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ » عند مجيء الرسل بالبينات والدلائل القاطعة « بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ » أي بسبب تكذيبهم بالحق أول ماورد عليهم ، إذ تمرنوا على التكذيب ، فلم تفدهم الآيات، واستوت عندهم الحالتان، كقوله: (وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ...) الآية(١) ـ ولهذا قال « كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ » أي من المذكورين وغيرهم، فلا يكاد يؤثر فيها الآيات والنذر ، لما علم أنهم يختارون الثبات على الكفر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٢] (وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ)

« وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ » أي من وفاء عهد « وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ » أي : خارجين عن الطاعة مارقين ، فلذلك أخذناهم .

قال الزمخشريّ : الضمير (للناس) على الإطلاق ، أي وما وجدنا لأكثر الناس من عهد . يعني: أن أكثر الناس نقض عهد الله وميثاقه في الإيمان والتقوى. والآية اعتراض. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المذكورين ، وأنهم كانوا ، إذا عاهدوا الله في ضرّ ومخافة ، لئن أنجيتنا لنؤمنن ، ثم نجاهم ، نكثوا .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٣] (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ، فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ)

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم » أي : الرسل المتقدم ذكرهم ، وهم نوح وهود وصالح ولوط

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٩و١١٠] .

وشعيب، أو الأمم المحكيّة من بعدهلاكهم « مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ » وهي العصا، واليدالبيضاء، والسنون ، ونقص الثمرات ، والطوفان، والجراد ، والقمّل ، والضفادع، والدم ، حسبما يأتي مفصلاً « إِلَىٰ فِرْعَوْنَ » وهو ملك مصر في عهد موسى « وَمَلَإِيْهِۦ » أي قومه « فَظَلَمُواْ بِهَا » أي كفروا بها . أجرى الظلم مجرى الكفر في تعديته بالباء ، وإن كان يتعدى بنفسه، لأنهما من وادٍ واحد. (إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ)(١). أو هو بمعنى الكفر مجازاً أو تضميناً، أي: كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه ، وهو موضع الإيمان ، لأنه أوتي الآيات لتكون موجبة للإيمان بما جاء به . فعكسوا ، حيث كفروا فوضعوا الشيء في غير موضعه . أو الباء سببية ، ومفعوله محذوف ، أي ظلموا أنفسهم بسببها، بأن عرضوها للعذاب الخالد . أو ظلموا الناس لصدّهم عن الإيمان بها ، والمراد به الاستمرار على الكفر بها إلى أن لقوا من العذاب مالقوا ، كما يشير له قوله تعالى « فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ » أي لعقائد الخلق، أفسد الله عليهم ملكهم ، وآتاه أعداءهم ، فأغرقهم عن آخرهم ، بمرأى من موسى وقومه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٤] (وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ)

« وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ » أي : أرسلني إليك الذي هو خالق كل شيء وربّه .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٠٥] (حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ، قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)

«حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ» أي جدير بذلك وحريّ به ، لما علمت

(١) [٣١ / لقمان / ١٣] .

من حالى . والباء و (على) يتعاقبان . يقال : رميت بالقوس وعلى القوس . وجاء على حال حسنة وبحال حسنة . وقرأ أبىّ رضى الله عنه (حقيق بأن لا أقول) «قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ» أى آية منه تشهد على صدق فيما جئتكم به بالضرورة « فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ روى أنه تعالى أمره أن يأتى فرعون ويقول له: إن إلهنا أمرنا أن نسير ثلاثة أيام فى البرّية ، ونقرّب له قرابين ونعبده . وقد علم تعالى أن فرعون لا يدعهم يمضون، ولكن ليظهر آياته على يد موسى ، ويهلك عدوّه . فلما أتى موسى فرعونَ وكلمه فى أن يرسل معه قومه ، أنكر أمر الرب له ، وقال: لماذا نعطل الشعب عن أعماله؟ وكانوا مسخرين لفرعون فى عمل اللبن، وأمر بزيادة عملهم ، بأن يجمعوا التبن من أنفسهم ، بعد أن كانوا يعطونه من قبل فرعون .

ثم طلب فرعون من موسى آية ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٦] (قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ)

« قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٧] (فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ)

« فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ » التى هى جماد « فَإِذَا هِىَ » أى من غير سترة ولا معالجة سبب «ثُعْبَانٌ» أى حية كبيرة هائلة ، فاضت عليه الحياة لتدل على فيضان الحياة العظيمة على يديه « مُّبِينٌ » أى ظاهر لا مُتخيَّل .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٠٨] (وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ)

« وَنَزَعَ يَدَهُۥ » أى أخرج يده من درعه بعدما أدخلها فيه « فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ »

obeikandi.com

أى بيضاء بياضاً نورانياً خارجاً عن العادة يجتمع عليه النظارة تعجباً من أمرها . فيدلّ على أنه يظهر على يديه شرائع تغلب أنوارُها المعنوية الأنوارَ الحسية ، ويتقوى بها الحياة بالله .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٠٩] (قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ)

« قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ » أى الأشراف الذين يكرهون شرف الغير عليهم، فى دفع هذه الآيات الظاهرة عن خواطر الخلق « إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ » أى ماهر فيه .

القول فى تأويل قواه تعالى :

[١١٠] (يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

« يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ » أى من أرض مصر بسحره ليتملك عليها « فَمَاذَا تَأْمُرُونَ » أى تشيرون فى أمره . وهذا من تمام الحكاية عن قول الملأ ، أو مستأنف من قول فرعون ، تقديره فقال : ماذا تأمرون ؟ ويدل عليه قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١١١] (قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ)

« قَالُوٓا۟ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ » أى أخر أمرهما ، وأصدرهما عنك ، حتى ترى رأيك فيهما ، وتدبر شأنهما ، لئلا تنسب إلى الظلم الصريح .

قال أبو منصور: والأمر بالتأخير دل على أنه تقدم منه أمر آخر، وهو الهمّ بقتله ، فقالوا أخّره ليتبين حاله للناس . وأصل (أَرْجِهْ) أرجئه ، كما قرئ كذلك . من (أرجأت) « وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ أى مدائن الصعيد من نواحى مصر « حَـٰشِرِينَ » أى من يحشر لك السحرة ويجمعهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٢] (يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ)

« يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَٰحِرٍ » وقرئ (سحّار) « عَلِيمٍ » أى ماهر فى باب السحر ، ليعارضوا موسى بنظير ما أراهم من البينات .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على عظيم معجزة لموسى، وتدل على جهل فرعون وقومه، حيث لم يعلموا أن قلب العصا حية تسعى لايقدر عليه غير الله تعالى، حتى نسبوه إلى السحر. وتدل على أن عادة البشر ، أن من رأى أمرًا عظيماً أن يعارضه . فلذلك دعا فرعون بالسحرة . فدل على أن العرب لوقدروا على مثل القرآن، لعارضوه . وتدل على أن الطريق فى المعجزات، المعارضة بإتيان مثله ، ولذلك قال تعالى فى القرآن : (فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ)(١) ولذلك لم يتكلف فرعون وقومه غير المعارضة وإيقاع الشبه . وتدل أنهم أنكروا أمره محافظة على الملك والمال ، لذلك قالوا (يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ) فيدل على أن من أقوى الدواعى إلى ترك الدين ، المحافظة على الرياسة والمال والجاه ، كما هو عادة الناس فى هذا الزمن. انتهى.

ثم تسابقت شُرَط فرعون، تحشروهم . كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٣] (وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ)

« وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْراً إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٤] (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ)

« قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ » ولما توثقوا من فرعون

(١) [١٠ / يونس / ٣٨].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٥] (قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ)

« قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ » أى أول من ألقى، كما فى الآية الأخرى . قيل : خيّروا موسى إظهارا للجلادة ، فلم يبالوا بتقدمه أو تأخره .

وقال الزمخشرىّ : تخييرهم إياه أدب حسن ، راعوه معه ، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا، كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا فى الجدال، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا للصراع.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٦] (قَالَ أَلْقُواْ ، فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ)

« قَالَ » أى : موسى لهم « أَلْقُواْ » أى ما أنتم ملقون . وإنما سوغ لهم التقدم ازدراء لشأنهم ، وقلة مبالاة بهم ، وثقة بما كان بصدده من التأييد الإلهىّ ، وأن المعجزة لن يغلبها سحر أبدا « فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ » أى خيلوا لها ماليس فى الواقع « وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ » أى وخوفوهم وأفزعوهم بما فعلوا من السحر ، كما فى الآية الأخرى(١) : (فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ * فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ * قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ) « وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ » أى : فى باب السحر ، أو فى عين من رآه ، فإنه ألقى كل واحد عصاه ، فصارت العصىّ ثعابين .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآيات على أن القوم أتوا بما فى وسعهم من التمويه ، وكان الزمان زمان سحر ، والغالب عليهم الاشتغال به ، فأتى موسى عليه السلام من جنس ما هم فيه ؛

---

(١) [٢٠ / طه / ٦٦و٦٨] .

ما لم يقدر عليه أحد ، ليعلموا أنه معجز وليس بسحر . وهكذا ينبغى فى المعجزات أن تكون من جنس ما هو شائع فى القوم ، ويتعذر عليهم مثله . وكان الطب هو الغالب فى زمن عيسى ، فجاء بإحياء الميت ، وإبراء الأكمه والأبرص ، وليس ذلك فى وسع طبيب . وكان الغالب فى زمن نبيّنا عليه السلام الفصاحة والخطب والشعر ، فجاء القرآن وتحداهم به . وتدل على أنهم بالحيل جعلوا الحبال والعصىّ متحركة ، حتى أوهموا أنها أحياء . ولكن لما وقف على أصل ما فعلوه وعُلِم ، وكان مثله مقدورا لكل من يتعاطى صناعتهم ، عُلِمَ أنه شعبذة . ولهذا تتفارق المعجزة والشعبذة ، أنه يوقف على أصلها، ويمكن إتيان مثلها ، ويخفى أمرها، بخلاف المعجزة .

ثم قال: وتدل على اعتراف فرعون بالذل والضعف ، حيث استغاث بهم وبهنتهم لدفع مكروه. انتهى.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٧] (وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ، فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ)

« وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ » أى تبتلع « مَا يَأْفِكُونَ » أى ما يلقونه ويوهمون أنه حق ، وهو باطل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٨] (فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

« فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ » أى ثبت الإعجاز « وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » أى من السحر لإبطال الإعجاز .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١١٩] (فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ)

« فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ » أى فى مكان الوعد الذى اجتمع فيه أهل مصر بدعوته ، لظنه غلبة السحرة « وَٱنقَلَبُوا۟ » أى رجعوا « صَٰغِرِينَ » أى : ذليلين .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٠] (وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ)

« وَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢١] (قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ)

« قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٢] (رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ)

« رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ » .

قال الجشمىّ : دلت الآية على أن السحرة عرفوا أن أمر العصا ليس من جنس السحر ، فآمنوا فى الحال. وتدل على أنهم بتلك الآيات استدلوا على التوحيد والنبوة، لذلك اعترفوا بهما.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٣] (قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ، إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا ، فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ)

« قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا » أى الصنع « لَمَكْرٌ » أى حيلة « مَّكَرْتُمُوهُ » أى دبرتموه أنتم وموسى « فِي ٱلْمَدِينَةِ » أى فى مصر قبل الخروج للميعاد « لِتُخْرِجُواْ مِنْهَآ أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » وعيد أجمله ثم فصله بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٤] (لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ)

« لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ » أى من كل جانب، عضواً مغايراً للآخر،

كاليد من أحدهما ، والرجل من آخر .

قال الشهاب : (مِّنْ خِلَافٍ) حال ، أى مختلفة . وقيل (مِنْ) تعليلية متعلقة بالفعل ، أى لأجل خلافكم ، وهو بعيد .

« ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ » أى تفضيحاً لكم ، وتنكيلاً لأمثالكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٥] (قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ)

« قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ » أى فلا نبالى بما تهددنا به ، لأنه هو الذى يقربنا إلى من آمنا به ، فيحيينا بحياةٍ خير من الحياة الدنيوية .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٦] (وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ، رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ)

« وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا » أى ما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله . أى وما عبته وأنكرته هو أعظم محاسننا ، لأنه خير الأعمال ، وأعظم المناقب ، فلا نعدل عنه طلباً لمرضاتك « رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا » أى أفِضْ علينا صبراً واسعاً لنثبت على دينك « وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ » أى ثابتين على الإسلام .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٧] (وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ، قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ)

« وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ » أى خوفاً من انقلاب الخلائق عليهم حين رأوا

السحرة جاهروا بالإسلام ، ولم يبالوا بالتوعد « أَتَذَرُ » أى أتترك « مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ » أى فى أرض مملكتك بتغيير الناس عنك « وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ » الآلهة جمع (إله) ، بمعنى المعبود . وكان للمصريين آلهة كثيرة منها المسمى (أو سيرس) وكانوا يعتقدون أن روحه توجد فى الثور المسمى (أبيس) ، فيعبدونه أيضاً، ويعبدون كثيراً من الحيوانات . وكانوا يعبدون الظلام أيضاً ، ويعبدون (بَعْلَزَ بوب) صنم (عقرون) يعتقدون أن وظيفته طرد الذباب. وبالجملة فقد فاقوا كل من سواهم فى الضلال، فكانوا يسجدون للشمس والقمر والنجوم والأشخاص البشرية والحيوانات ، حتى الهوامّ وأدنى حشرات الأرض . هكذا حكى عنهم بعض المدققين .

وقد ذكر الشهرستانىّ فى (الملل والنحل) أن فرعون كان أول أمره على مذهب الصابئة ، ثم انحرف عن ذلك ، وادعى لنفسه الربوبية ، إذ رأى فى نفسه قوة الاستعمال والاستخدام . انتهى .

وتقدم فى سورة البقرة بيان مذهب الصابئة . فتذكَّرْ .

وقال بعضهم : إن كلمة (الآلهة) لفظة اصطلاحية عند العبرانيين ، يراد بها القضاة والحكام الذين يقضون بأمر الله ، وأنها لو حملت على هذا ههنا ، لم يبعد ، ويكون المعنى : ويذرك وقضاتك وذوى أمرك ، ويكون الغرض من ذكرهم معه تهويل الأمر، وإلهاب قلب فرعون على موسى ، وإثارة غضبه . وقد صرح غير واحد بوقوع ألفاظ من غير العربية فى القرآن ، كما نقله السيوطىّ فى النوع الثامن والثلاثين من (الإتقان) ـ انتهى ـ والأظهر ما قدمناه أولاً . « قَالَ سَنُقَتِّلُ » قرىء بالتخفيف والتشديد « أَبْنَآءَهُمْ » المولودين « وَنَسْتَحْىِۦ » أى نستبقى « نِسَآءَهُمْ » أى للاستخدام « وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ » أى بالغلبة والقدرة عليهم ، ففعلوا بهم ذلك ، فشكا بنو إسرائيل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٨] (قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ ، إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

« قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ » أى على أذاهم « إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا » أى يعطيها « مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » يعنى أن النصر والظفر للمتقين على عدوّهم. وكان تعالى وعد موسى بأنه سيطرد المصريين من أرضهم ، ويهلكهم وينجى قومه من عذاب آل فرعون لهم .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآيات على أن قوم فرعون ، لما عجزوا عن موسى فى آياته، عدلوا إلى إغراء فرعون بموسى ، وأوهموه أن تركه فساد فى الأرض ، وأنه عند ذلك أوعده . وذلك من أدلّ الدليل على نبوة موسى ، لأن قتل صاحب المعجزة لا يقدح فى معجزته ، ولهذا قال مشايخنا : إن العرب لما عدلوا عن معارضة القرآن ، التى فى إيرادها إبطال أمر النبىّ ﷺ ، إلى القتال ، الذى لا يفيد ذلك ـ دلّ على عجزهم . وهكذا حال كل ضالّ مبتدع ، إذا أعيته الحجة ، عدل إلى التهديد والوعيد . وتدل على أن عند الخوف من الظّلَمة يجب الفزع إلى الله تعالى ، والاستعانة به ، والصبر . ولا مفزع إلا فى هذين : وهو الانقطاع إلى الله تعالى بطلب المعونة فى الدفع ، واللطف له فى الصبر . وتدل على أن العاقبة المحمودة تنال بالتقوى ، وهى اتقاء الكبائر والمعاصى . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٢٩] (قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)

« قَالُوٓاْ » أى قوم موسى « أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا » أى فعلوا

obeikandl.com

بنا من الهوان والإذلال من قبل بعثتك وبعدها. ثم صرح لهم موسى بما رمز إليه من البشارة قبلُ « قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ » أى فرعون وجنوده « وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » أى فيرى الكائن منكم من العمل، حسنه وقبيحه ، وشكر النعمة وكفرانها ، ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم. ثم بيّن تعالى ما أحلّ بفرعون وقومه من الضرّاء ، لما تأبى عن إجابة موسى وإرسال قومه معه ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٠] (وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ)

« وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ » أى بالجدب والقحط « وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » أى يتعظون فيرجعوا عما هم فيه من الكفر إلى أمر موسى. وذلك لأن الشدة ترقّق القلوب ، وترغّب فى الضراعة إلى الله تعالى .

قال الجشميّ: تدل الآية على أن الشدة والبؤس قد يكونان لطفاً وصلاحاً فى الدين، لذلك قال : (لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ) . اهـ

ثم بين تعالى أنهم مع تلك المحن عليهم ، والشدائد ، لم يزدادوا إلا تمردًا وكفراً ، فقال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣١] (فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ)

« فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ » أى الصحة والخصب « قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ » أى لأجلنا واستحقاقنا، ولم يروا ذلك من فضل الله عليهم، فيشكروه على إنعامه « وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ » شدة « يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ » أى يتشاءموا . وأصله (يتطيروا). يعنى أنهم يقولون:

هذه بشؤمهم «أَلَآ إِنَّمَا طَـٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّـهِ» أى شدتهم، وما طار إليهم من القضاء والقدر، عند الله ، لا عند غيره ، أى من قِبَلِهِ تعالى « وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ » أى أن ما أصابهم من الله تعالى ، فيقولون ما يقولون ، مما حكى عنهم . ثم أخبر تعالى عن شدة تمرد فرعون وقومه وعتوّهم ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٢] (وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ)

« وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ » أى بمصدقين بالرسالة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٣] (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَـٰتٍ مُّفَصَّلَـٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ)

« فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ » أى على آل فرعون . وأما قوم موسى فلطف تعالى بهم، فلم ينلهم ولا محالّهم سوء من الطوفان ولا غيره . والطوفان (لغةً) هو المطر الغالب ، ويطلق على كل حادثة تطيف بالإنسان وتحيط به . فعمّ الطوفان الصحراء ، وأتلف عُشبها ، وكسر شجرها ، وتواصلت الرعود والبروق ، ونيران الصواعق فى جميع أرض مصر « وَٱلْجَرَادَ » فأكل جميع عشب أرض مصر والثمر ، مما تركه الطوفان ، حتى لم يبق شىء من ثمرة ولا خضرة فى الشجرة ، ولا عشب فى الصحراء « وَٱلْقُمَّلَ » فعمّ أرض مصر ، وكان على الناس والبهائم ، وهو بضم وتشديد كـ (سُكَّر) صغار الذرّ ، أو شىء صغير بجناح أحمر . أو دوابّ صغار من جنس القردان ، أو الدبى الذى لا أجنحة له ، وهو الجراد الصغار .

قال أبو البقاء : (القمّل) يقرأ بالتشديد والتخفيف مع فتح القاف وسكون الميم . قيل : هما لغتان . وقيل : هما القمل المعروف فى الثياب ونحوها ، والمشدد يكون فى الطعام ــ انتهى .

وردّ ابن سيده ، وتبعه المجدى (القاموس) القول بأن المراد به قمل الناس . «وَٱلضَّفَادِعَ» فصعدت من الأنهار والخلج والمناقع ، وغطّت أرض مصر « وَٱلدَّمَ » فصارت مياه مصر جميعها دماً عبيطاً ، ومات السمك فيها ، وأنتنت الأنهار ، ولم يستطع المصريون أن يشربوا منها شيئاً « ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ » أى مبينات لايشكل على عاقل أنها آيات الله تعالى ونقمته ، أو مفرقات بعضها إثر بعض . و (آيات) حال من المنصوبات قبلُ « فَٱسْتَكْبَرُواْ » أى عن الإيمان ، فلم يؤمنوا لموسى ، ويرسلوا معه بنى إسرائيل « وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ » أى عاصين كافرين .

قال الجشمىّ: تدل الآية على عناد القوم، وإصرارهم على الكفر وجهلهم، حيث عاهدوا فى كل آية يأتى بها على صدقه وإثبات العهد ، أنهم لا يؤمنون بهـــا . وليس هذا عادة مَنْ غَرَضُهُ الحق . وتدل على ذم من يرى الآيات ولا يتفكر فيها . وتدل على وجوب التدبر فى الآيات . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٣٤] (وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ، لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ)

« وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ » أى نزل بهم العذاب المفصل « قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ » أى بعهده عندك ، وهو النبوة . فـ (ما) مصدرية .

قال الشهاب : سميت النبوة عهدا ، لأن الله عهد إكرام الأنبياء بها، وعهدوا إليه تحمل أعبائها، أو لأن لها حقوقاً تحفظ ، كما تحفظ العهود . أو لأنها بمنزلة عهد ومنشور من الله تعالى ـ انتهى ـ .

« لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أى الذين أرسلتَ لطلبهم ، ليعبدوا ربهم تعالى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٥] (فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ)

« فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ » يعنى إلى الوقت الذى أجِّل لهم ، وهو وقت إهلاكهم بالغرق فى اليمّ « إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ » أى ينقضون العهد الذى التزموه ، فلم يفوا به . فإن فرعون كان كلما حلّ بمصر نقمة مما تقدم ، يدعو موسى ، ويطلب منه أن يشفع إلى الله تعالى بكشفها . ويَعِدُهُ أنها إذا كشفت أطلق شعبه لعبادته تعالى ، حتى إذا كشفت أخلف ما وعد ، وقسا قلبه . ولما لم يتعظوا بما شاهدوه مما تقدم ، أتتهم النقمة القاضية ، كما قال تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٦] (فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ)

« فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِى ٱلْيَمِّ » أى البحر « بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ » أى كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بآيات الله تعالى وإعراضهم ، وعدم تفكرهم ومبالاتهم بها . وقد روى أن فرعون ، بعد أن أبصر ما أبصر من الضربات الربانية على مصر ، أذن لموسى وقومه أن يخرجوا من مصر ، ليقيموا عبادة الله تعالى حيث شاؤوا ، فارتحل بنو إسرائيل على عَجَلٍ ليلاً ، وساروا بكل ما معهم من غنم وبقر ومواشٍ ، من عين شمس إلى « سُكُوت » وسلكوا طريق برية البحر الأحمر . ولما سمع فرعون بارتحالهم ، ندم على ما فعل ، من إطلاقهم من خدمته ، فجمع جيشه ومراكبه الحربية ، ولحقهم فأدركهم ، وكانوا قد وصلوا إلى شاطئ البحر الأحمر . حينئذ خاف الإسرائيليون ، وأخذوا يتذمرون على موسى ، فقال لهم : لا تخافوا ، إن الله معنا . ثم أمر تعالى موسى ، فمد يده إلى البحر الأحمر ، فانشق ماؤه ، وصار فيه طريق واسعة ، وأرسل الله ريحاً شرقية شديدة ، فيبس قعره ، فعبر فيه الإسرائيليون ،

والماء عن يمينهم وشمالهم ، فتبعهم فرعون وجنوده وتوسطوا البحر ، فمدّ موسى يده ، بإذن الله ، على البحر ، فارتدّ ماؤه سريعاً ، وغمر فرعونَ وجنوده ومراكبه ، فغرقوا جميعاً ، ثم طَفَتْ جِيَفُهُم على وجه الماء ، وانقذفت إلى الساحل ، فشاهدها الإسرائيليون عياناً . هـذا ملخص ما روى هنا .

تنبيه :

قال الجشميّ : تدل الآية أنه تعالى أهلكهم بعد أن أزاح العلة بالآيات ، وتدل على أن ما أصابهم كان عقوبة وجزاء على فعلهم، وتدل على قبح الاعتراض على آيات الله، وتدل على وجوب النظر ، وتدل على أن النكث فعلهم والإعراض ، فلذلك عاقبهم عليهما . انتهى

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٣٧] ﴿ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴾

« وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ » أي بالاستعباد وقتل الأبناء . وفي التعبير عنهم بهذا ، إظهار لكمال لطفه تعالى بهم ، وعظيم إحسانه إليهم ، في رفعهم من حضيض المذلة إلى أوج العزة « مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا » أي الأرض المقدسة، أي جوانبها الشرقية والغربية ، حيث ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة ، وتصرفوا في أكنافها حيث شاءوا . وقوله تعالى « ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا » أي بالخصب وسعة الأرزاق « وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ » أي مضت واستمرت عليهم، وهي وعده إياهم بالنصر والتمكين « بِمَا صَبَرُوا۟ » أي بسبب صبرهم على الشدائد التي كابدوها من فرعون وقومه .

قال الزمخشريّ : وحسبك به حاثًّا على الصبر ، ودالًّا على أن من قابل البلاء بالجزع ، وكله الله إليه . ومن قابله بالصبر ، وانتظار النصر ، ضمن الله له الفرج .

وعن الحسن: عجبت ممن خفّ كيف خفّ، وقد سمع قوله تعالى ـ وتلا الآية ـ ومعنى (خفّ) طاش جزعاً وقلةَ صبر ، ولم يرزن أولى الصبر .

« وَدَمَّرْنَا » أي خربنا وأهلكنا « مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ » أي ما كانوا يعملون ويسوّون من العمارات وبناء القصور «وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ » (بكسر الراء وضمها) أي من الجنّات . أو ما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء ، كصرح هامان . وهذا كما قال تعالى (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ)[١] . وقال تعالى (كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ)[٢] .

قال الزمخشريّ : وهذا آخر ما اقتص الله من نبأ فرعون والقبط ، وتكذيبهم بآيات الله، وظلمهم ومعاصيهم. ثم أتبعه اقتصاص نبأ بني إسرائيل، وما أحدثوه بعد إنقاذهم من مَلَكة فرعون ، واستعباده ، ومعاينتهم الآيات العظام ، ومجاوزتهم البحر : من عبادة البقر، وطلب رؤية الله جهرة ، وغير ذلك من أنواع الكفر والمعاصي، ليعلم حال الإنسان وأنه، كما وصفه، (لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)[٣] جهول كنود ، إلا من عصمه الله (وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ)[٤] وليسلّي رسول الله ﷺ مما أرى من بني إسرائيل بالمدينة ، فقال تعالى :

---

(١) [٢٨ / القصص / ٥ و٦] . (٢) [٤٤ / الدخان / ٢٥ ـ ٢٨] .
(٣) [١٤ / إبراهيم / ٣٤] . (٤) [٣٤ / سبأ / ١٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٨] (وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ، قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ، قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)

« وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ » أى الذى أغرق فيه أعداءهم ، وهو بحر القلزم كـ(قنفذ) ، بلد كان فى شرقىّ مصر ، قرب جبل الطور ، أضيف إليه ، لأنه على طرفه ، ويعرف البلد الآن بـ(السويس) ومن زعم أن البحر هو نيل مصر، فقد أخطأ، كما فى (العناية). « فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ » قرئ بضم الكاف وكسرها « عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ » أى يواظبون على عبادتها ويلازمونها « قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا » أى صنما نعكف عليه « كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ » أى أصنام يعكفون عليها « قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » أى شأن الألوهية وعظمتها ، وأنه لا يستحقها إلا الله وحده .

قال البغوىّ رحمه الله: ولم يكن ذلك شكًّا من بنى إسرائيل فى وحدانية الله تعالى ، وإنما معناه اجعل لنا شيئاً نعظمه، ونتقرب بتعظيمه إلى الله تعالى . وظنوا أن ذلك لا يضر بالديانة، وكان ذلك لشدة جهلهم . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٣٩] (إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ)

« إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ » يعنى عبدة تلك التماثيل « مُتَبَّرٌ » أى مهلك « مَّا هُمْ فِيهِ » أى من الشرك « وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ » أى عبادة الأصنام ، وإن كان قصدهم بذلك التقرب إلى الله تعالى ، فإنه كفر محض .

قال الرازىّ: أجمع كلّ الأنبياء ، عليهم السلام، على أن عبادة غير الله تعالى كفر، سواء اعتقد فى ذلك الغير كونه إلها للعالم ،أو اعتقد أن عبادته تقرب إلى الله تعالى، لأن العبادة نهاية التعظيم ، فلا تليق إلا بمن يصدر منه غاية الإنعام ، وهى بخلق الجسم والحياة والشهوة

والقدرة والعقل وخلق الأشياء المنتفع بها . والقادر على هذه الأشياء ليس إلا الله تعالى ، فوجب أن لا تليق العبادة إلا به . انتهى .

وعن أبى واقد الليثىّ رضى الله عنه . أن رسول الله ﷺ لما خرج إلى غزوة حنين مرّ بشجرة للمشركين كانوا يعلّقون عليها أسلحتهم يقال لها (ذات أنواط) فقالوا : يارسول الله ! اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : سبحان الله ! هذا كما قال قوم موسى (اُجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهاً كَمَا لَهُمْ ءَالِهَـةٌ) والذى نفسى بيده ! لتركبنّ سنن من كان قبلكم ـ أخرجه الإمام أحمد[1] والترمذىّ [2] وابن جرير وغيرهم ـ .

وقال الإمام أبو بكر الطرطوشىّ المالكىّ : انظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ، ويعظمونها ، ويرجون البرء والشفاء من قِبَلِهَا ، ويضربون بها المسامير والخرق ، فهى ذات أنواط ، فاقطعوها .

وقال الحافظ أبو شامة الشافعىّ الدمشقىّ فى كتاب (البدع والحوادث) : وقد عم الابتلاء بتزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعُمُد ، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه ، مع تضييعهم فرائض الله وسننه ، ويظنون أنهم متقربون بذلك ، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظُم وقع تلك الأماكن فى قلوبهم ، فيعظّمونها ، ويرجون الشفاء لمرضاهم ، وقضاء حوائجهم ، بالنذر لها ، وهى من بين عيون وشجر وحائط وحجر . ثم شرح شجرة مخصوصة فقال : ما أشبهها بذات أنواط ، التى فى الحديث .

وروى ابن وضاح فى كتابه قال : سمعت عيسى بن يونس يقول : أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه بقطع الشجرة التى بويع تحتها النبىّ ﷺ فقطعت ، لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها ، فخاف عليهم الفتنة . ولهذا البحث تتمة مهمة فى (إغاثة اللهفان) لابن القيّم . فلتنظر .

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٢١٨ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) .

(٢) أخرجه الترمذىّ فى : ٣١ ـ كتاب الفتن ، ١٨ ـ باب ما جاء لتركبن سنن من كان قبلكم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٠] (قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ)

« قَالَ » أى موسى ، مذكِّراً لقومه نعمه تعالى عليهم ، الموجبة لتخصيصه تعالى بالعبادة « أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا » أى أطلب لكم معبوداً . يقال : أبغاه الشىء طلبه له ، كـ (بغاه إياه) ، يتعدى إلى مفعولين ، وليس من باب الحذف والإيصال . وفى الحديث[١] : ابغنى أحجاراً أستطيب بها ، بهمزة القطع والوصل . وقال الشاعر[٢] :

وكم آمل من ذى غِنًى وقرابةٍ لتبغيه خيرا وليس بفاعلِ

والاستفهام فى الآية للإنكار والتعجب والتوبيخ « وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ » أى والحال ، أنه تعالى خصكم بنعم لم يعطها غيركم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤١] (وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ)

« وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ » أى : من فرعون وقومه « يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ » أى يكلفونكم إياه ، أو يولونكم إياه ، يقال : سامه الأمر يسومه ، كلفه إياه وجشمه وألزمه . أو أولاه إياه « يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ » أى فنجاكم منه وحده ، من غير شفاعة أحد .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على أن هلاك الأعداء نعمة من الله يجب مقابلتها بالشكر . وتدل على أن المحن فى الأولاد والأهل بمنزلة المحن فى النفس ، ويجرى مجراه . انتهى .

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٤ ـ كتاب الوضوء ، ٢٠ ـ باب الاستنجاء بالحجارة ، حديث رقم ١٢٦ . (٢) استشهد به فى اللسان فى مادة (ب غ ى) بالصفحة رقم ٧٦ من الجزء الرابع عشر (طبعة بيروت) . قال: وبغيتك الشىء: طلبته لك. ومنه قول الشاعر. وساق البيت.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٢] (وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ)

« وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً » روى أن بنى إسرائيل لما خرجوا من مصر ، نزلوا فى برّية طور سيناء ، وكانت مدة خروجهم إلى أن نزلوا شهرا ونصفاً . ولما نزلوا تلقاء الجبل ، صعد موسى إليه ، وسمع كلامه تعالى وأوامره ووصاياه . ثم انحدر موسى إلى قومه ، وأعلمهم بما أمروا به ، وصاروا يشاهدون على الجبل ضباباً ، وصوت رعود ، وبروقاً . ثم أمر تعالى موسى أن يصعد إلى الجبل ليؤتيه الشرائع التى كتبها على قومه . فصعد موسى الجبل ، وكان مغطى بالغمام ، فدخل موسى فى وسط الغمام وأقام فى الجبل أربعين يوماً ، لم يأكل ولم يشرب ، لِمَا أُمِدَّ من القوة الروحانية ، والتجليات القدسية ، وأوتى فى برهتها الألواح التى كتبت فيها شرائعهم ، ولما رجع إلى قومه ، كان على وجهه أشعة نور مدهشة ، فخافوا من الدنوّ منه ، فجعل على وجهه برقعاً ، فكان إذا صعد الجبل للمناجاة ، رفعه ، وإذا أتاهم وضعه . والله أعلم .

« وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ » أى حين توجه للمناجاة « ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى » أى : كن خليفتى فيهم « وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ » أى لا تتبع من سلك الإفساد ، ولا تطع من دعاك إليه .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على أنه استخلف هرون عند خروجه ، لما رأى أنهم أشد طاعة له ، وأكثر قبولا منه ، ومخاطبات موسى عليه السلام لهرون وجوابه له كقوله :

obeikandl.com

(أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى)(١) وقول هرون (لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى)(٢) (فَلَا تُشْمِتْ بِىَ الْأَعْدَآءَ)(٣) كل ذلك كالدال على أن موسى كان يختص بنوع من الولاية ، وإن اشتركا فى النبوة . والظاهر أنه استخلفه إلى أن يرجع ، لأنه المعقول من الاستخلاف عند الغيبة . وتدل على أنه يجوز أن ينهاه عن شىء يعلم أنه لا يفعله ، ويأمره بما يعلم أنه سيفعله ، عظة له ، واعتبارا لغيره ، وتأكيداً ومصلحة للجميع . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٣] (وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ، قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ، فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ، فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ)

«وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا» أى حضر الجبل لوقتنا الذى وقّتنا له وحددنا «وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ » أى خاطبه من غير واسطة ملك « قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى » أى لن تطيق رؤيتى، لأن هذه البنية الآدمية فى هذه النشأة الدنيوية ، لا طاقة لها بذلك، لعدم استعدادها له . بل ماهو أكبر جرماً، وأشد خلقاً وصلابة ـ وهو الجبل ـ لا يثبت لذلك ، بل يندكّ . ولذا قال تعالى (وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ) أى الذى هو أقوى منك (فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ) أى ثبت مكانه ، حين أتجلى له ، ولم يتزلزل (فَسَوْفَ تَرَىٰنِى) ، أى تثبت لرؤيتى ، إذا تجليت عليك ، وإلا فلا طاقة . وفيه من التلطيف بموسى ، والتكريم له ، والتنزل القدسىّ ـ ما لا يخفى « فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ » أى : ظهر له وبانَ ـ قاله الزجاج ـ « جَعَلَهُۥ » أى : التجلى «دَكًّا»

---

(١) [٢٠ / طه / ٩٣] . (٢) [٢٠ / طه / ٩٤] . (٣) [٧ / الأعراف / ١٥٠] .

أى مفتّتاً ، فلم يستقر مكانه . فنبه تعالى على أن الجبل ، مع شدته وصلابته ، إذا لم يستقر ، فالآدمىّ مع ضعف بنيته أولى بأن لا يستقر . وفيه تسكين لفؤاد موسى ، بأن المانع من الانكشاف الإشفاق عليه ، وأما أن المانع محالية الرؤية ، فليس فى القرآن إشارة إليه

« وَخَرَّ » أى وقع « مُوسَىٰ صَعِقًا » أى مغشياً عليه من هول ما رأى « فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ » أى من الإقدام على سؤالى الرؤية « وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ » أى بأنه لا يستقر لرؤيتك أحدٌ فى هذه النشأة .

قال فى (الانتصاف) : إنما سبح موسى عليه السلام لمـا تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية فى الدنيا ، والله تعالى مقدس عن وقوع خلاف معلومه ، وعن الخلف فى خبره الحق وقوله الصدق . فلـما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم ، سبح الله ، وقدس علمه وخبره عن الخلف . وأما التوبة فى حق الأنبياء فلا تستلزم كونها عن ذنب ، لأن منصبهم الجليل ينبغى أن يكون منزها مبرأً من كل ما ينحط به . ولا شك أن التوقف فى سؤال الرؤية على الإذن كان أكمل . وقد ورد : (سيئات المقربين ، حسنات الأبرار) .

تنبيه :

قال المتكلمون : دلت الآية على جواز رؤيته تعالى من وجهين :

الأول ـ أن سؤال موسى عليه السلام الرؤية يدل على إمكانها . لأن العاقل ، فضلا عن النبىّ صلى الله عليه وسلم ، لا يطلب المحال . ولا مجال للقول بجهل موسى عليه السلام بالاستحالة ، فإن الجاهل بما لا يجوز على الله ، لا يصلح للنبوة . إذ الغرض من النبوة هداية الخلق إلى العقائد الحقة ، والأعمال الصالحة . ولا ريب فى نبوة موسى عليه السلام ، وأنه من أولى العزم .

الثانى ـ أنه تعالى علق الرؤية على استقرار الجبل ، وهو أمر ممكن فى نفسه . والمعلق على الممكن ممكن ، لأن معنى التعليق الإخبار بوقوع المعلق عند وقوع المعلق به . والمحال لايثبت على شىء من التقادير الممكنة .

وأما زعم المعتزلة أن الرؤية مجاز عن العلم الضروريّ ، فمعنى قوله : (أَرِنِيٓ) أى : اجعلنى عالماً بك علماً ضرورياً ــ خلاف الظاهر . فإن النظر الموصول بـ (إلى) نص فى الرؤية البصرية فلا يترك بالاحتمال ، مع أن طلب العلم الضروريّ لمن يخاطبه ويناجيه غير معقول . وكذا زعمهم أن موسى عليه السلام ، كان سألها لقومه ، حيث قالوا[1] : (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً) ، فسأل ليعلموا امتناعها ــ فإنه خلاف الظاهر ، وتكلّف يذهب رونق النظم ، فترده ألفاظ الآية . وقد ثبت وقوع رؤيته تعالى فى الآخرة ، بالكتاب والسنة ، أما الكتاب فلقوله تعالى[2] : « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ » ؛ وأما السنة فلا تحصى أحاديثها ولكن إذا أصيب أحد بداء المكابرة فى الحق الصراح ، عسر إقناعه مهما قوى الدليل وعظمت الحجة .

قال فى فتح البيان : رؤيته تعالى فى الآخرة ، ثبتت بها الأحاديث المتواترة تواتراً لا يخفى على من يعرف السنة المطهرة . والجدالُ فى مثل هذا والمراوغة لا تأتى بفائدة . ومنهج الحق واضح . ولكن الاعتقاد لمذهب نشأ الإنسان عليه ، وأدرك عليه أباه ، وأهل بلده ، مع عدم التنبه لما هو المطلوب من العباد من هذه الشريعة المطهرة ــ يوقع فى التعصب . والمتعصبُ ، وإن كان بصره صحيحاً ، فبصيرته عمياء ، وأذنه عن سماع الحق صماء ، يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل ، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق ، غفلة منه ، وجهلاً بما أوجبه الله عليه من النظر الصحيح ، وتلقى ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم . وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب فى الأصول والفروع ، فإنه صار بها باب الحق مرتجًا ، وطريق الإنصاف مستوعرة ، والأمر لله سبحانه والهداية :

يَأْبَى الْفَتَى إلا اتبَاعَ الهوى ... ومَنْهَجُ الحقِّ لَهُ وَاضِحُ

ــ انتهى ــ .

وهذا تعريض بالمعتزلة ، وفى مقدمتهم الزمخشريّ . وقد انتقل ، عفا الله عنه ، أخيراً إلى

(١) [٢ / البقرة / ٥٥] .   (٢) [٧٥ / القيامة / ٢٢ و ٢٣] .

obeikandi.com

هجاء أهل السنة بما أنشده :

لجماعةٌ سَمَّوْا هواهُمْ سنةً ... وجماعةً حُمُرٌ لعَمْرِى مُوكَفَهْ
قد شَبَّهُوهُ بخَلْقِهِ وَتخوَّفُوا ... شُنْعَ الوَرَى فتَستَّرُوا بِالبَلْكَفَهْ

والبلكفة نحتٌ ، كالبسملة ، أى بقولهم (بَلَا كَيْفَ) .

قال فى (الانتصاف): ولولا الاستنان بحسّان بن ثابت الأنصارىّ، صاحب رسول الله ﷺ وشاعره ، والمنافح عنه ، وروح القدس معه ، لقلنا لهؤلاء المتلقبين بـ (العدلية) وبـ (الناجين) سلاماً ، ولكن كما نافح حسان عن رسول الله ﷺ أعداءه ، فنحن ننافح عن أصحاب سنة رسول الله ﷺ أعداءهم ، فنقول :

وجماعةٌ كفروا برؤية ربِّهِمْ ... حقًّا ووعدُ الله مالَنْ يُخْلِفَهْ
وَتَلَقَّبُوا عَدْلِيَّةً . قلنا : أَجَلْ ... عَدَلُوا بربهم . فَحَسْبُهُمُو سَفَهْ
وتلقَّبوا الناجين . كَلَّا ! إنهم ... إنْ لَمْ يَكُونُوا فِى لَظًى فَعَلَى شَفَهْ

وقال أبو حيّان فى الرد عليه :

شبهتَ جهلًا صدرَ أمة أحمـد ... وذوى البصائر بالحمير المُوكَفَهْ
وَجَبَ الخسارُ عليك . فانظر منصفاً ... فى آية الأعراف فهى المنصفهْ
أتُرَى الكليمَ أتى بجهلٍ ماأتى ... وأتى شيوخُكَ ما أَتَوْا عن مَعْرِفَهْ
إن الوجوهَ إليـه ناظرةٌ . بذا ... جاء الكتاب . فقلتمُ : هذا سَفَهْ
نطق الكتابُ وأنت تنطق بالهوى ... فَهَوَى الهَوَى بِكَ فى المَهَاوِى المُتْلِفَهْ

وقال العلامة الجاربردىّ :

عجبًا لقومٍ ظالمين تَستَّرُوا ... بالعَدْلِ . ما فيهم لعَمْـرِى مَعْرِفَهْ
قد جاءهم من حيث لايدرونه ... تعطيلُ ذاتِ الله مَعْ نَفْىِ الصِّفَهْ

وقد ساق السبكىّ فى (طبقاته) فى ترجمة الجاربردىّ عدة قصائد ومقاطيع فى الردّ عليه .

ثم ذكر الله تعالى أنه خاطب موسى باصطفائه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٤] (قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ)

« قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ » أى اخترتك على أهل زمانك، وآثرتك عليهم « بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى » أى: وبتكليمى إياك « فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ » أى ماأعطيتك من شرف النبوة والمناجاة « وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ » أى على النعمة فى ذلك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٥] (وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ)

«وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ »من الحلال والحرام « فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ » أى بعزم على العمل بما فيها «وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا» أى بما أمروا به دون مانهوا عنه « سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ » وهى الأرض التى وعدوا بها من فلسطين ، فإنهم لم يعطوها إلا بعد أربعين سنةمن خروجهم من مصر، وبقائهم فى البرّية. فإن موسى عليه السلام ، لما مات ، خلفه يشوع بن نون ، فحارب الأمم والملوك الذين كانوا يسكنون أرض كنعان ، وفتح بلادهم ، وصارت ملكاً للإسرائيليين .

تنبيه :

قال الجشمى[(١)] : تدل الآية على حدوث كلامه ، لأن قوله (ٱصْطَفَيْتُكَ) أى اختصصتك به ، ولو كان قديماً لكان موسى وغيره سواء ، ولما صحّ الاختصاص . ويدل

---

(١) لاتنس قول المؤلف رضى الله عنه ، لما ساق أول ما نقله من كتاب (التهذيب) عن مؤلفه الجشمىّ ، لاتنس ماقاله بالصفحة رقم ٢٦٣٥ . ونصه (وهو جارعلى أصول المعتزلة وهذا من هذا . فتنبه .

قوله (وَكَتَبْنَا) أنه أعطاه التوراة مكتوبة فى الألواح عند الميقات، لتكون محروسة، وليبلغه الحاضرون إلى الباقين ، ليقع لهم العلم ضرورة . ويدل على أن فى التوراة شرائع ، وجميع ما يحتاج إليه . ويدل قوله (بِقُوَّةٍ) أن العبد قادر على الفعل قبل الفعل ، وأنه يفعل بقدرة . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٦] (سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ، ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ)

« سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ » أى سأمنع فهم الحجج والأدلة الدالة على عظمتى وشريعتى وأحكامى ، قلوبَ المتكبرين عن طاعتى ، والمتكبرين على الناس . أى فكما استكبروا أذلهم الله بالجهل ، كقوله تعالى (وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ)(١) . وقوله تعالى (فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ)(٢) . وقوله تعالى « بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ » إما صلة للفعل ، أى يتكبرون بما ليس بحق ، وهو دينهم الباطل . أو حال من فاعله ، أى يتكبرون غير محقين « وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ » أى حجة من الآيات والحجج المنزلة عليهم « لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا » تكبراً عليها « وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ » يعنى طريق الحق والهدى والاستقامة واضحاً ظاهراً « لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا » لمنافاته أهويتهم « وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ » أى الضلال عن الحق والهلاك « يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا » أى طريقاً يميلون إليه « ذَٰلِكَ » أى الصرف عن الآيات، أو اتخاذهم الغى سبيلاً « بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ » أى : لاهين لا يتفكرون فيها، ولا يتعظون بها . أوغافلين عما ينزل بهم من مخافة الرسل . ثم بين وعيد المكذبين بقوله :

(١) [٦ / الأنعام / ١١٠] . (٢) [٦١ / الصف / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٧] (وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ ، هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

« وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ » أى القيامة، وهى الكرّة الثانية. سميت (آخرة) لتأخرها عن الدنيا « حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ » أى بطلت ، فلم تعقب نفعاً . والمراد جزاء أعمالهم ، لأن الحابط إنما يصح فى المنتظر، دون ما تقضّى ، وهذا كقوله (لِّيُرَوْاْ أَعْمَٰلَهُمْ)(١) « هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ » أى إلّا جزاء عملهم من الكفر والمعاصى .

تنبيه :

ذهب بعضهم إلى أن قوله تعالى (سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ) الخ كلام مع قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو متصل بما سبق من قصصهم ، وهو (أَوَ لَمْ يَهْدِ ...) الخ .

وإيراد قصة موسى وفرعون للاعتبار .

وقال الكعبيّ وأبو مسلم الأصفهانىّ: إن هذا الكلام تمام لما وعد الله موسى عليه السلام به من إهلاك أعدائه . ومعنى صرفهم إهلاكهم ، فلا يقدرون على منع موسى من تبليغها ، ولا على منع المؤمنين من الإيمان بها ، وهو شبيه بقوله: (بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ، وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ، وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ)(٢) فأراد تعالى أن يمنع أعداء موسى عليه السلام من إيذائه ، ومنعه من القيام بما يلزمه فى تبليغ النبوة والرسالة. انتهى. والله أعلم.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٨] (وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ، أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا . ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ)

«وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ» يخبر تعالى عن

(١) [٩٩ / الزلزلة / ٦] .   (٢) [٥ / المائدة / ٦٧] .

ضلال من ضل من بنى إسرائيل ، فى عبادتهم العجل الذى اتخذه لهم السامرىّ من حلىّ القبط ، الذى كانوا استعاروه منهم ، فشكل لهم منه عجلًا ، جسدًا لا روح فيه . وقد احتال بإدخال الريح فيه ، حتى صار يسمع له خوار ، أى صوت كصوت البقر . وإنما أضاف الصوت إليه ، لأنه كان محله عند دخول الريح جوفه . وكان هذا منهم بعد ذهاب موسى لميقات ربه تعالى وأعلمه الله تعالى بذلك وهو على الطور ، حيث يقول إخباراً عن نفسه الكريمة (فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)(١) .

لطائف :

قال الزمخشرىّ : فإن قلت : لم قيل (وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ ... عِجْلًا) والمتخذ هو السامرىّ ؟ قلت : فيه وجهان :

أحدهما ـ أن ينسب الفعل إليهم ، لأن رجلًا منهم باشره ، ووُجد فيما بين ظهرانيهم ، كما يقال : (بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا) والقائل والفاعل واحد . ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذه ، راضين به ، فكأنهم أجمعوا عليه .

والثانى ـ أن يراد : واتخذوه إلهاً وعبدوه . فإن قلت : لم قال (مِنْ حُلِيِّهِمْ) ولم يكن الحلىّ لهم ، إنما كانت عوارى فى أيديهم ؟ قلت : الإضافة تكون بأدنى ملابسة ، وكونها فى أيديهم عوارى ، كفى به ملابسة . على أنهم قد ملكوها بعد المُهْلَكين ، كما قال تعالى : (وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ)(٢) انتهى .

قال النسفىّ : وفيه دليل على أن من حلف أن لا يدخل دار فلان ، فدخل داراً استعارها ، يحنث . وأن الاستيلاء على أموال الكفار يوجب زوال ملكهم عنها ـ انتهى ـ .

والحُلِىُّ بضم الحاء والتشديد ، جمع « حَلْى » بفتح فسكون ، كـ(ثَدْى وثُدِىّ) وهو اسم لما يتحسّن به من الذهب والفضة .

(١) [٢٠ / طه / ٨٥] . (٢) [٢٦ / الشعراء / ٥٩] .

وقوله «تعالى: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا» تقريع على فرط ضلالهم وإخلالهم بالنظر . والمعنى : ألم يروا ، حين اتخذوه إلـهاً ، أنه لا يقدر على كلام، ولا على إرشاد سبيل ، كآحاد البشر ؟ فهو جماد لا ينفع ولا يضر . فكيف يكون إلـهاً ؟

وقوله تعالى «اتَّخَذُوهُ» تكرير لتأكيد الذم ، أى: اتخذوه إلـهاً وعبدوه . «وَكَانُوا ظَالِمِينَ» أى : واضعين الأشياء فى غير مواضعها . والجملة إما استئنافية ، أو اعتراض تذييلى للإخبار بأن ذلك دأبهم وعادتهم قبل ذلك ، فلا ينكر هـذا منهم . أو حالية ، أى : اتخذوه فى هذه الحالة المستقرة لهم .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على صحة الحجاج فى الدين ، وأنه تعالى ذلهم ، فى بطلان اتخاذ العجل إلـهاً ، بأنه لا يتكلم ولا يهدى. وإنما ذكر الكلام لأن الخوار تنفد فيه الحيلة، ولا تنفد فى الكلام . وتدل على أن إزالة الشبه فى الدين واجب ، كما أزالها الله تعالى . وتدل على أن القوم كانوا جهالاً غير عارفين حقيقة الأشياء ، لذلك عبدوا العجل . وتدل على أن تلك الحلىّ كانت ملكا لبنى إسرائيل ، لذلك قال (حُلِيِّهِمْ) . فإن ثبت أنهم استعاروه، فيدل على زوال ملكهم ، وانتقال الملك إلى بنى إسرائيل ، كما تملك أموال أهل الحرب. وتدل على أن الاتخاذ فعلهم (١) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٤٩] (وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)

«وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ» أى : ندموا على عبادة العجل «وَرَأَوْا» أى علموا وأيقنوا «أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا» أى: عن الحق والهدى «قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا» أى بقبول توبتنا «وَيَغْفِرْ لَنَا» أى : ما قدمنا من عبادة العجل «لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» أى: بالعقوبة. أى : ممن خسروا أعمالهم وأعمارهم .

(١) انظر : الصفحة رقم ٢٨٥٤ ، الحاشية رقم (١) .

لطيفة :

يقال للنادم على ما فعل ، الحَسِرِ على ما فَرَطَ منه (قد سُقِطَ فى يده) و (أُسْقِطَ) مضمومتين ـ قاله الزجاج ـ .

وقال الفراء : يقال سُقِطَ فى يده وأسقط ، من الندامة ، و (سُقِطَ) أكثر وأجود .

وأنكر أبو عمرو (أسقط) بالألف ، وجوزه الأخفش .

قال الزمخشرىّ : من شأن من اشتد ندمه وحسرته ، أن يعض يده غمًّا ، فتصير يده مسقوطاً فيها ، لأن فاه قد وقع فيها .

وقال الزجاج : معناه : سقط الندم فى أيديهم ، أى فى قلوبهم وأنفسهم . كما يقال: حصل فى يده مكروه ، وإن كان محالا أن يكون فى اليد، تشبيها لما يحصل فى القلب وفى النفس، بما يحصل فى اليد ، ويرى بالعين ـ انتهى ـ .

وقال الفارسىّ : أى : ضربوا أكفهم على أكفهم من الندم . فإن صح ذلك فهو إذن من السقوط .

وفى (العباب) : هذا نظم لم يسمع به قبل القرآن ، ولا عرفته العرب ، والأصل فيه نزول الشىء من أعلى إلى أسفل ، ووقوعه على الأرض، ثم اتسع فيه فقيل للخطأ من الكلام (سقط) لأنهم شبهوه بما لا يحتاج إليه ، فيسقط . وذكر اليد لأن الندم يحدث فى القلب ، وأثره يظهر فى اليد ، كقوله تعالى (فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا)(١) ولأن اليد هى الجارحة العظمى، فربما يسند إليها مالم تباشره، كقوله تعالى (ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ)(٢) ـ انتهى ـ .

وعليه ، فيكون (سُقط) من السقاط ، وهو كثرة الخطأ كما قال :

كيف يَرْجُونَ سِقَاطِى بَعْدَ مَا لَفَعَ الرأسَ بياضٌ وصَلَعْ

وقيل : من عادة النادم أن يطأطىء رأسه ، ويضعه على يده ، معتمداً عليه ، وتارة

(١) [١٨ / الكهف / ٤٢] . (٢) [٢٢ / الحج / ١٠]

يضعها تحت ذقنه ، وشطر من وجهه على هيأة لو نزعت يده لسقط على وجهه، فكانت اليد مسقوطاً فيها ، لتمكن السقوط فيها. ويكون قوله (سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ) بمعنى سقط على أيديهم، كقوله (وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ)(١) أى عليها . و (سُقِطَ) عده بعضهم من الأفعال التي لا تتصرف ، كـ (نِعْمَ وَبِئْسَ) . وقرئ (سَقَطَ) معلوماً ، أى الندم ، أو العض ، أو الخسران ، وكله تمثيل . وقرىء (أُسْقِطَ) رباعيّ مجهول ، وهي لغة نقلها الفراء والزجاج ، كما قدمنا .

ثم بين تعالى ما جرى من موسى عليه السلام بعد رجوعه من الميقات . وكان أعلمه تعالى بفتنة قومه . فقال سبحانه :

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٥٠] (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ، أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ، وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ، قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ)

« وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا » أى : شديد الغضب على قومه لعبادتهم العجل ، وحزيناً أى على ما فاته من مناجاة ربه « قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ » أى بئسما عملتم خلفي ، أو قمتم مقامي ، وكنتم خلفائي من بعدي . والخطاب إما لعبدة العجل ، من السامريّ وأشياعه . أو لوجوه بني إسرائيل ، وهم هرون عليه السلام والمؤمنون معه . ويدل عليه قوله (ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى)(٢) ، وعلى التقدير الأول يكون المعنى : بئسما خلفتموني حيث لم تمنعوا من عبادة غير الله تعالى ـ قاله الرازيّ « أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ » أى : ميعاده الذي

(١) [٢٠ / طه / ٧١] . (٢) [٧ الأعراف / ١٤٢] .

وعدنيه من الأربعين ، فلم تصبروا إلى تمامها . وكانوا استبطأوا نزوله من الجبل ، فتآمروا في صنع وثن يعبدونه ، وينضمون إليه ، وفعلوا ذلك ، وجعلوا يغنون ويرقصون ويأكلون ويشربون ويلعبون حوله ويقولون : هذا الإله الذي أخرجنا من مصر ـ عياذاً بالله ـ . وقال أبو مسلم : معناه سبقتم أمر الله ، فعبدتم ما لم يأمركم به « وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ » أي طرحها من شدة الغضب ، وفرط الضجرة ، بين يديه فتكسرت . وهي ألواح من حجارة كتب فيها الشرائع والوصايا الربانية . وإنما ألقاها ، عليه السلام ، لما لحقه من فرط الدهش عند رؤيته عكوفهم على العجل . فإنه ، عليه السلام ، لما نزل من الجبل ، ودنا من محلتهم ، رأى العجل ورقصهم حوله ، اتقد غضبه فألقاها غضباً لله ، وحمية لدينه . وكان هو في نفسه حديدا ، شديد الغضب . وكان هرون ألين منه جانباً ، ولذلك كان محبباً إلى قومه .

تنبيه :

قال السيوطيّ في (الإكليل) : استدلّ ابن تيمية بقوله تعالى (وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ) على أن من ألقى كتاباً على يده ، إلى الأرض ، وهو غضبان ، لا يلام ـ انتهى ـ وهو ظاهر . « وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ » أي بشعره « يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ » ظناً أن يكون قصر في نهيهم ، كما قال في الآية الأخرى (قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ * أَلَّا تَتَّبِعَنِ ، أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي * قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ)(١) . وقال ههنا : « قَالَ ٱبْنَ أُمَّ » قرئ بالفتح والكسر ، وأصله يا ابن أمي ، خفف بحذف حرف النداء والياء ، وذكر الأم ليرققه عليه . وقوله : « إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي » إزاحة لتوهم التقصير في حقه . والمعنى : بذلتُ وسعي في كفّهم حتى قهروني واستضعفوني ، وقاربوا قتلي « فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ » أي بالإساءة إليّ . والشماتةُ سرور الأعداء بما يصيب المرء « وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ » أي في عقوبتك لي ، في عدادهم . أو لا تعتقد أني منهم ، مع براءتي وعدم تقصيري .

---

(١) [٢٠ / طه / ٩٢ـ٩٤] .

قال الجشمىّ : تدل الآية على أن الأمر بالمعروف قد يسقط فى حال الخوف على النفس ، وفى الحال الذى يعلم أنه لا ينفع . لذلك قال هرون (ٱسْتَضْعَفُونِى) . وتدل على أن الغضب والأسف على المبتدع محمود فى الدين . انتهى .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥١] (قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ)

« قَالَ » أى موسى عليه السلام ، متضرعاً إلى ربه ، استنزالا لرحمته ، وتعوذا بمغفرته من سخطه . ولا يخفى اقتضاء المقام لذلك « رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ » وقال الزمخشرىّ: لما اعتذر إليه أخوه، وذكر له شماتة الأعداء قال (رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى) ليرضى أخاه ، ويظهر لأهل الشماتة رضاه عنه، فلا تتم لهم شماتتهم. واستغفر لنفسه مما فرط منه إلى أخيه ، ولأخيه أن عسى فرّط فى حسن الخلافة ، وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته ، ولا تزال منتظمة لهما فى الدنيا والآخرة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٢] (إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ » أى من افترى بدعة ، فإن ذل البدعة ، ومخالفة الرسالة على كتفيه كما قال الحسن البصرىّ : إن ذل البدعة على أكتافهم ، وإن هملجت بهم البغال ، وطقطقت بهم البراذين . وهكذا روى أيوب عن أبى قلابة الجرمىّ أنه قرأ هذه الآية (وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ) قال : هى والله لكل مفتر إلى يوم القيامة . وقال سفيان ابن عيينة : كل صاحب بدعة ذليل . ثم نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى أنه يقبل التوبة من أى ذنب كان ، ولو كفرًا بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٥٣] ﴿ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

« وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا » إلى الله « وَآمَنُوا » أى أخلصوا الإيمان « إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ » أى : محّاء لذنوبهم . منعم عليهم بالجنة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٤] ﴿ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ ، وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴾

« وَلَمَّا سَكَتَ » أى سكن « عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ » أى التى كان ألقاها من شدة الغضب فتكسرت « وَفِي نُسْخَتِهَا » أى فيما نسخ منها، أى كتب. و(النسخة) فعلة بمعنى مفعول ، كالخطبة « هُدًى وَرَحْمَةٌ » بالشرائع والوصايا الربانية ، المرشدة لما فيه الخير والصلاح « لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ » أى يخشون .

لطيفتان :

الأولى ـ قال أبو السعود : فى هـذا النظم الكريم ، يعنى قوله تعالى (وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ)، من البلاغة والمبالغة بتنزيل الغضب، الحامل له على ماصدر عنه من الفعل والقول ، منزلة الآمر بذلك ، المغرى عليه، بالتحكم والتشديد، والتعبير عن سكونه بالسكوت ـ مالا يخفى . انتهى .

وأصله للزمخشرىّ حيث قال : هـذا مَثَلٌ . كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ، ويقول له : قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجرّ برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك ، وقطع الإغراء . ولم يستحسن هـذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم ، وذوق

صحيح ـ إلا لذلك ؛ ولأنه من قبيل شعب البلاغة . وإلا ، فما لقراءة معاوية بن قرة (وَلَمَّا سَكَنَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ) لا تجد النفس عندها شيئاً من تلك الهزة ، وطرفاً من تلك الروعة ؟ انتهى .

ومراده بالمثل كونه استعارة مكنية ، حيث شبه الغضب بشخص آمرٍ ناهٍ ، وأثبت له السكوت تخييلا .

وعدّ بعض أهل العربية الآية من المقلوب ، أى من نمط قلب الحقيقة إلى المجاز ، وكأن الأصل (وَلَمَّا سَكَتَ مُوسَىٰ عَنِ ٱلْغَضَبِ) كما فى خرق الثوب المسمار .

قال فى (الانتصاف) والتحقيق أنه ليس منه ، وأن هذا القلب أشرف وأفصح ، لما فيه من المعنى البليغ ، وهو أن الغضب كان متمكناً من موسى ، حتى كأنه كان يصرفه فى أوامره . ومثل هذه النكتة الحسناء ، لا تلفى فى (خرق الثوب المسمار) . انتهى .

وقرئ سكن وسَكَّتَ وأسكت ، أى أسكته الله ، أو أخوه باعتذاره إليه .

الثانية ـ اللام فى (للذين) متعلقة بمحذوف ، صفة (لرحمة) أى كائنة لهم . أو هى لام الأجل ، أى هدى ورحمة لأجلهم : واللام فى (لربهم) لتقوية عمل الفعل المؤخر كما فى قوله تعالى : (إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ)[1] أو هى أيضاً لام العلة ، والمفعول محذوف . أى يرهبون المعاصى لأجل ربهم ، لا للرياء والسمعة . أفاده أبو السعود .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٥] (وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ، فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ، أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ)

« وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ

---

(١) [١٢ / يوسف / ٤٣] .

شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا » روى محمد بن إسحاق أن موسى عليه السلام ، لما رجع إلى قومه فرأى ما هم فيه من عبادة العجل ، وقال لأخيه وللسامرىّ ما قال ، وحرق العجل ، وذرّاه فى اليمّ ، اختار من بنى إسرائيل سبعين رجلا ، الخيّر فالخير ، وقال : انطلقوا إلى الله ، فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا ، وطهروا ثيابكم . فخرج بهم إلى طورسيناء لميقات وقّتَهُ له ربه ، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلمٍ ، فقال له السبعون ـ فيما ذكر لى ـ حين صنعوا ما أمرهم به ، وخرجوا معه للقاء ربه ، لموسى : اطلب لنا نسمع كلام ربنا ، فقال : أفعلُ . فلما دنا موسى من الجبل ، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشّى الجبلَ كلَّه ، ودنا موسى فدخل فيه ، وقال للقوم : ادنوا . وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع ، لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه ، فضرب دونه بالحجاب . ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجوداً ، فسمعوه وهو يكلم موسى ، يأمره وينهاه ، افعلْ ولا تفعلْ ، فلما فرغ إليه من أمره ، وانكشف عن موسى الغمام ، أقبل إليهم ، فقالوا لموسى : (لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ)(١) وهى الصاعقة التى يحصل منها الاضطراب الشديد ، فماتوا جميعاً ، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: (رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ) قد سفهوا ، أتهلك مَنْ ورائى من بنى إسرائيل؟

وفى رواية السدّىّ : فقام موسى يبكى ويقول : يا رب ! ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا لقيتهم ، وقد أهلكتَ خيارهم ، (رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ) .

وقال ابن إسحق : اخترت منهم سبعين رجلا ، الخيّر فالخير ، أرجع إليهم ، وليس معى رجل منهم واحد ، فما الذى يصدقوننى أو يأمنوننى عليه بعد هذا ؟ وعلى هذا فالمعنى : لو شئت أهلكتهم من قبل خروجنا ، فكان بنو إسرائيل يعاينون ذلك ولا يتهموننى .

وقال الزجاج : المعنى لو شئت أمتّهم من قبل أن تبتليهم ، بما أوجب عليهم الرجفة . انتهى.

(١) [٢ / البقرة / ٥٥] .

قال ابن القيم فى (إغاثة اللهفان) بعد نقل كلام من ذكرنا : وهؤلاء كلهم حاموا حول المقصود ، والذى يظهر ـ والله أعلم بمراده ومراد نبيه ـ أن هذا استعطاف من موسى عليه السلام لربه ، وتوسل إليه بعفوه عنهم من قبل ، حتى عبد قومهم العجل ، ولم ينكروا عليهم . يقول موسى : إنهم قد تقدم منهم ما يقتضى هلاكهم ، ومع هذا فوسعهم عفوك ومغفرتك ، ولم تهلكهم ، فليسعهم اليوم ما وسعهم من قبل . وهذا كمن واخذه سيده بجرم يقول : لو شئت واخذتنى قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم ، ولكن وسعنى عفوك أولاً ، فليسعنى اليوم . ثم قال نبي الله : أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ فقال ابن الأنبارى وغيره : هذا استفهام على معنى الجحد ، أى لست تفعل ذلك . والسفهاء هنا عبدة العجل .

قال الفرّاء : ظن موسى أنهم أهلكوا باتخاذ قومهم العجل ، فقال : أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ؟ وإنما كان إهلاكهم بقولهم (أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً) . انتهى .

واستظهار أن هذا استفهام استعطاف ، سبقه إليه المبرّد .

تنبيه :

قال فى (اللباب) : معظم الروايات أنهم ماتوا بسبب تلك الرجفة ، أى ثم أُحْيُوا . وقال وهب بن منبه : لم تكن تلك الرجفة موتاً ، ولكن القوم لما رأوا تلك الهيأة ، أخذتهم الرعدة وقلقوا ورجفوا ، حتى كادت أن تبين مفاصلهم فلما رأى موسى ذلك ، راحمهم وخاف عليهم الموت ، واشتد عليه فقدهم ، وكانوا له وزراء على الخير ، سامعين له مطيعين ، فعند ذلك دعا موسى وبكى وناشد ربه ، فكشف الله عنهم تلك الرجفة ، فاطمأنوا وسمعوا كلام الله . والله أعلم .

« إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ » أى ماالفتنة التي وقع فيها السفهاء إلا اختبارك وابتلاؤك وامتحانك لعبادك فأنت ابتليتهم وامتحنتهم ، فالأمر كله لك وبيدك . لايكشفه إلا أنت . كما لم يمتحن به ويختبر إلاأنت . فنحن عائذون بك

منك ، ولاجئون منك إليك . يعني إنِ الأمر إلّا أمرك ، والحكم إلا لك ، فما شئت كان ، تضل من تشاء، وتهدى من تشاء .

قال الواحديّ : هذه الآية من الحجج الظاهرة على القدرية ، التي لايبقى لهم معها عذر . « أَنتَ وَلِيُّنَا » أي متولى أمورنا القائم بها « فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ».

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٦] (وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ)

« وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً » أي أثبت لنا فيها خصلة حسنة ، كالعافية والحياة الطيبة ، والتوفيق للطاعة « وَفِي الْآخِرَةِ » أي حسنة أيضاً ، وهي المثوبة الحسنى والجنة . « إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ » أي تبنا إليك . يقال : هاد إليه يهود ، إذا رجع وتاب ، فهو هائد . ولبعضهم : يا راكب الذنب هُدْ، هُدْ واسجد كأنك هُدْهُدْ

وقال آخر : * إني امرؤ مما جَنَيْتُ هَائِدُ *

قال أبو البقاء : المشهور ضم الهاء ، وهو من (هاد يهود) إذا تاب . وقرئ بكسرها ، من (هاد يهيد) إذا تحرك أو حرك ، أي حركنا إليك نفوسنا ، وعلى القراءتين ، يحتمل الوجهين ، البناء للفاعل والمفعول ، بمعنى ملنا أو أمالنا غيرنا ، أو حركنا أنفسنا ، أو حركنا غيرنا ، وذلك لاتحاد الصيغة وصحة المعنى ، وإن اختلف التقدير .

« قَالَ » استئناف وقع جواباً عن سؤال ينساق إليه الكلام ، كأنه قيل : فماذا قال تعالى في جواب دعاء موسى ؟ فقيل قال « عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ » أي تعذيبه من العصاة « وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ » تطلق الرحمة على التعطف والمغفرة والإحسان والجنة ،

كما قال تعالى (يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ)(١) ولعلها هى المراد هنا ، بدليل مقابلتها بـ (العذاب) قبل ، كما قابل الآية التى ذكرناها بقوله (وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا)(٢) والله أعلم . « فَسَأَكْتُبُهَا » أى هذه الرحمة « لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ » أى الكفر والشرك والفواحش « وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ » أى يعطون زكاة أموالهم « وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا » أى بكتابنا ورسولنا « يُؤْمِنُونَ » أى يصدقون .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على حسن سؤال نعيم الدنيا ، كما يحسن سؤال نعيم الآخرة ، وتدل على أن الواجب على الداعى أن يقرن بدعائه التوبة والإخلاص ، لذلك قالوا (إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ) . وتدل على أنه تعالى ينعم على البر والفاجر ، ويخص بالثواب المؤمن ، فلذلك فصل . ومن تأمل هذا السؤال والجواب ، عرف عظيم محل هذا البيان ، لأنه عليه السلام ، سأل نعيم الدنيا والدين عقيب الرجفة ، فكان من الجواب أن العذاب خاصة يصاب به من يستحقه ، فأما النعم فما كان من باب الدنيا يسع كل شىء يصح عليه التنعم ، وما كان من باب الآخرة يكتب لمن له صفات ذكرها . وتدل على أن الرحمة لا تنال بمجرد الإيمان الذى هو التصديق ، حتى ينضم إليه الطاعات ، فيبطل قول المرجئة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٧] (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَـٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ)

« ٱلَّذِينَ » بدل من الموصول الأول ، بدل الكل ، أو منصوب على المدح ، أو مرفوع

---

(١) [٧٦ / الإنسان / ٣١] . (٢) [٧٦ / الإنسان / ٣١] .

عليه، أى أعنى الذين أوهم الذين « يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ » أى الذى أرسل إلى الخلائق لتكميلهم « ٱلنَّبِىَّ » أى الذى نبئ بأكمل الاعتقادات والأعمال والأخلاق والأحوال والمقامات من جهة الوحى « ٱلْأُمِّىَّ » أى الذى لم يحصل علماً من بشر «ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا»أى باسمه (محمد وأحمد) ونعوته « عِندَهُمْ » زيد هـذا لزيادة التقرير ، وأن شأنه عليه الصلاة والسلام حاضر عندهم لا يغيب عنهم أصلا « فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ » يعنى الإيمان بالله. ووحدانيته والشرائع ومكارم الأخلاق، لأن جميع ذلك تعرف صحته إما بالعقل وإما بالشرع «وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ»يعنى الكفر والشرك والمعاصى ومساوئ الأخلاق، لأن العقل والشرع ينكره «وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ » أى التى حرمت عليهم لمعاصيهم «وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ » أى التى كانوا يتناولونها كالخنزير والميتة والدم ـ هذا فى باب المأكولات « وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ » أى الأمر الذى يثقل عليهم من التكاليف الشاقة «وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ » جمع (غُلّ) بالضم ، وهو ما يوضع فى العنق أو اليد من الحديد ، يستعار للشرائط الحرجة والمواثيق الشديدة، أى يخفف عنهم ما كلفوه منها ـ وهذا فى باب العبادات « فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ » أى بالنبىّ الأمىّ وهو محمد ﷺ « وَعَزَّرُوهُ » أى عظموه ووقروه « وَنَصَرُوهُ » أى على أعدائه فى الدين فمنعوهم عنه « وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ) وهو القرآن ، فأحلوا حلاله ، وحرّموا حرامه .

ولا يقال : القرآن أنزل مع جبريل ، فما معنى (أُنزِلَ مَعَهُۥٓ)؟ لأن المراد أنزل مع نبوّته، لأن استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به . ويجوز أن يعلق بـ (اتبعوا) أى واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبىّ ، والعمل بسنته ، وبما أمر ونهى عنه ، فيكون أمرًا بالعمل بالكتاب والسنة ، أو هو حال ، أى اتبعوا القرآن كما اتبعه ، مصاحبين له فى اتباعه . وفى التعبير عن القرآن بـ (النور) المنبىء عن كونه ظاهرًا بنفسه لإعجازه ، ومظهرًا لغيره من الأحكام، لمناسبة الاتباع «أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ»الفائزون بالرحمة ، والناجون من النقمة.

تنبيهات :

الأول ـ يظهر من سياق الآية أن قوله تعالى (قَالَ عَذَابِيَ . . .) الخ جواب لموسى عليه السلام، وذلك أنه دعا بالمغفرة لقومه أجمعين ، كتابه حسنتى الدنيا والآخرة لهم، فأجيب أولًا بأن ذلك لا يحصل لقومه كلهم ، برًّا أو فاجرًا ، لما سبق من تقديره سبحانه العذاب لمن يشاء من الفجار حكمة منه وعدلًا . ولذلك قرأ الحسن وزيد بن عليّ هنا (لمن أساء) فعل ماض من (الإساءة) ، وفي طيه أن ما أصاب قومه من الرجفة هو من عذابه تعالى ، الذى شاء إصابتهم به لأفاعيلهم . وثانيـــاً إنه لا يستأهل كتابة الحسنتين إلا المتقون المتصدقون المؤمنون بالآيات ، المتبعون للنبيّ الأميّ ، فمن استقام على هـــذه الشرائط ، كتب له ذلك . ولا يقال ـ على هذا ـ كيف يتبعونه ولم يدركوا زمنه ؟ لأنا نقول : الاتباع أعم من الاتباع (بالقوة)، وذلك بالإيمان به إجمالًا ، حسبما أشار له الـكتابان لمن تقدم موته على زمن بعثته، وإما (بالفعل) لمن لحق زمان بعثته . وفيه تبشير لموسى بالنبيّ ﷺ ، وتعريف له بشأنه ، وإعلام بشأنه ، بأن كتابة الرحمة موقوفة على اتباعه . وعليه فيـكون قوله تعالى (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ) بدلا من الموصول الأول، بدل الـكل . أو منصوب على المدح ، أو مرفوع عليه. أى : أعنى الذين ، أو هم الذين .

وقال بعضهم : إن جواب موسى ينتهى إلى قوله تعالى (ٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ) ومابعده مستأنف ، فـكأنه تعالى أعلم موسى بأنه ذو عذاب ، يصيب به من يشاء ، كما أصاب أصحاب الرجفة . وذو رحمة واسعة ، تـكتب للمتقين المتصدقين المؤمنين بالآيات ، أى فأمر قومك بأن يكونوا من الفريق المرحوم بالمشى على هذا الوصف المرقوم .. ثم استأنف تعالى الإخبار عمّن يتبع النبيّ الأميّ بأنهم المفلحون حقًّا، وعليه فيـكون قوله تعالى (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ) مبتدأ خبره (أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ) ، وتـكون القصة استتبعت أعقاب بنى إسرائيل ، بأنهم إذا اتبعوا النبيّ الأمى ، كانوا هم المفلحين .

وجوز بعضهم أن يكون قوله تعالى (قَالَ عَذَابِىٓ) ارتجال خطاب للنبىّ صلى الله عليه وسلم. قصد به إعلام أهل الكتاب المعاصرين له ، صلى الله عليه وسلم بأنهم إذا اتبعوه وآمنوا به وصدقوه ، حقت لهم رحمته تعالى الواسعة ، وإلا فلا يأمنوا أن يصابوا بانتقامه تعالى ، كما جرى لأسلافهم . وفى ذلك كله من التنويه بشأن النبىّ صلى الله عليه وسلم وأتباعه المتقين ، ما لا يخفى .

الثانى ـ تطلق الرحمة على التعطف والمغفرة والإحسان ـ هذا ما ذكر فى اللغة . وعندى أن القرآن الكريم قد تطلق فيه على الجنة ، كما قال تعالى (يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ)(١) بدليل المقابلة بقوله (وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا)(٢) فلعل الرحمة فى قوله تعالى هنا : (وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ) بمعنى الجنة ، بدليل مقابلتها بالعذاب قبل . والله أعلم .

وقال أبو منصور : ما من أحد مسلم وكافر ، إلا وعليه من آثار رحمته فى هذه الدنيا . بها يتعيشون ويؤاخون ويوادّون ، وفيها ينقلبون ، لكنها للمؤمنين خاصة فى الآخرة ، لاحظّ للكافر فيها . وذلك قوله (فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ)(٣) أى : معصية الله، والخلافَ له، (وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ) ، كقوله تعالى (قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ، قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ)(٤) جعل طيبات الدنيا ونعيمها مشتركة بين المسلم والكافر ، خالصة للذين آمنوا يوم القيامة ، لاحظّ للكافر فيها . فعلى ذلك رحمته نالت كل أحد فى هذه الدنيا ، لكنها للذين آمنوا واتقوا الشرك خاصة فى الآخرة ويحتمل قوله ـ والله أعلم ـ . (وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ)(٥) أنهم سألوا الرحمة ، فقال : سأكتبها للذين يتقون معاصى الله ومخالفته . انتهى .

(١) [٧٦ / الإنسان / ٣١] . (٢) [٧٦ / الإنسان / ٣١] .
(٣) [٧ / الأعراف / ١٥٦] . (٤) [٧ / الأعراف / ٣٢] .
(٥) [٧ / الأعراف / ١٥٦] .

الثالث ـ إنما أفرد (الزكاة) بالذكر ، مع دخولها فى التقوى قبل ، لعلوّها وشرفها ، فإنها عنوان الهداية ، ولأنها كانت أشق عليهم ، فذكرها لئلا يفرّطوا فيها .

الرابع ـ كونه صلى الله عليه وسلم لا يكتب ولا يقرأ ، أمر مقرر مشهور . وهل صدر عنه ذلك فى كتابة صلح الحديبية كما هو ظاهر الحديث المشهور(١) ، أو أنه لم يكتب ، وإنما أسند إليه مجازا ، أو أنه صدر منه ذلك معجزة ؟ ـ انظر فى (فتح البارى) تفصيله ـ .

و (الأمىّ) نسبة إلى أمة العرب ، لأن الغالب عليهم كان ذلك ، كما فى الحديث(٢) : (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب) وأما نسبته إلى (أم القرى) فلأن أهلها كانوا كذلك. أو إلى (أمِّهِ) كأنه على الحالة التى ولدته أمه عليها . وقيل : إنه منسوب (إلى الأَمّ) ـ بفتح الهمزة ـ بمعنى القصد ، لأنه المقصود ، وَضَمُّ الهمزة من تغيير النسب . ويؤيده قراءة يعقوب (الأَمىّ) ـ بفتح الهمزة ـ ، وإن احتملت أن تكون من تغيير النسب أيضاً . وإنما وصفه تعالى به تنبيها على أن كمال علمه مع حاله إحدى معجزاته . فهى له مدح وعلوّ كعب ، لأنها معجزة له ، كما قال البوصيرىّ .

* كَفَاكَ بالعلمِ فى الأمىِّ مُعْجِزَةً *

كما أن صفة التكبر لله مادحة ، وفى غيره ذامة ، كذا فى (العناية) .

الخامس ـ فى قوله تعالى: ((ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ) إشارة إلى بشائر الأنبياء عليهم السلام ، بنبوته ﷺ .

قال الماوردىّ فى (أعلام النبوة) فى الباب الخامس عشر فى بشائر الأنبياء بنبوته عليه الصلاة والسلام :

---

(١) أخرجه البخارىّ فى : ٥٤ ـ كتاب الشهادات ، ١٥ ـ باب الشروط فى الجهاد والمصالحة مع أجل الحرب وكتابة الشروط ، حديث رقم ٨٨١ ورقم ٨٨٢ .

(٢) أخرجه البخارىّ فى: ٣٠ـ كتاب الصوم، ١٣ ـ باب قول النبىّ ﷺ «لا نكتب ولا نحسُب » حديث رقم ٩٦٨ .

إن لله تعالى عوناً على أوامره ، وإغناء عن نواهيه ، فكأن أنبياء الله تعالى معانون على تأسيس النبوة ، بما تُقدمه من بشائرها ، وتبديه من أعلامها وشعائرها ، ليكون السابق مبشراً ونذيراً ، واللاحق مصدقاً وظهيراً ، فتدوم بهم طاعة الخلق ، وينتظم بهم استمرار الحق . وقد تقدمت بشائر من سلف من الأنبياء ، بنبوّة محمد ﷺ ، مما هو حجة على أممهم ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم ، بما أطلعه الله تعالى على غيبه ، ليكون عوناً للرسول ، وحثا على القبول . فمنهم من عيّنه باسمه ، ومنهم من ذكره بصفته ، ومنهم من عزاه إلى قومه ، ومنهم من أضافه إلى بلده ، ومنهم من خصّه بأفعاله ، ومنهم من ميّزه بظهوره وانتشاره . وقد حقق الله تعالى جميعها فيه ، حتى صار جليا بعد الاحتمال ويقيناً بعد الارتياب ، ثم سرد الماوردىّ البشائر من نصوص كتبهم .

وجاء فى (إظهار الحق) مانصه : إن الإخبارات الواقعة فى حق محمد ﷺ ، توجد كثيرة إلى الآن أيضاً ، مع وقوع التحريفات فى هذه الكتب . ومن عرف أولاً طريق إخبار النبىّ المتقدم ، عن النبىّ المتأخر ، على ماعرفتَ فى الأمر الثانى ـ يعنى فى كلامه ـ ثم نظر ثانياً بنظر الإنصاف إلى هذه الإخبارات ، وقابلها بالإخبارات التى نقلها الإنجيليون فى حق عيسى عليه السلام ، جزم بأن الإخبارات المحمدية فى غاية القوة .

وجاء فى (منية الأذكياء فى قصص الأنبياء) ما نصه : إن نبينا عليه الصلاة والسلام قد بشرت به الأنبياء السالفون ، وشهدوا بصدق نبوته ، ووصفوه وصفاً رفع كل احتمال ، حيث صرحت باسمه وبلده وجنسه وحليته وأطواره وسمته . غير أن أهل الكتاب حذفوا اسمه ـ يعنى من نسخهم الأخيرة ـ إلا أن ذلك لم يجدهم نفعاً ، لبقاء الصفات التى اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة وهى أظهر دلالة من الاسم على المسمى ، إذ قد يشترك اثنان فى اسم ، ويمتنع اشتراك اثنين فى جميع الأوصاف . لكن من أمد غير بعيد ، قد شرعوا فى تحريف بعض الصفات ، ليبعد صدقها على النبىّ عليه الصلاة والسلام . فترى كل نسخة متأخرة تختلف عما قبلها فى بعض المواضع ، اختلافاً لا يخفى على اللبيب أمره ، ولاما قصد

به ، ولم يفدهم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم لانتشار النسخ بالطبع ، وتيسر المقابلة بينها . وهانحن نورد شذرة من البشائر لديهم :

فمنها : فى الباب السادس عشر من سفر التكوين فى حق هاجر هكذا :

١١ ـ وقال لها ملاكُ الربّ أنتِ حُبْلَى فتلدين ابناً . وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك .

١٢ ـ وإنه يكون إنساناً وحشيا . يده على كل واحد ويد كل واحد عليه . وأمامَ جميع إخوته يسكن .

هذه بشارة بمحمد ﷺ ، لا بجده إسماعيل ، لأن إسماعيل عليه السلام ، لم تكن يده فوق يد الجميع ، ولا كانت يد الجميع مبسوطة إليه بالخصوص . بل فى التوراة أن إسماعيل وأمه هاجر أُخرجا من وطنهما مكرهيْن ، ولم يرث إسماعيل مع إسحاق ، وكان الملك والنبوة فى بنى إسحق ، وكان بنو إسماعيل فى البرارى العطاش ، ولم يسمع أن الأمم دانت لهم ، حتى بعث رسول الله ﷺ ، فدانت له الملوك ، وخضعت له الأمم ، وعلت يده وأيدى بني إسماعيل على كل يد ، وصارت يد كلٍّ بهم فكان ذكر إسماعيل مقصوداً به ولده . كما أن فى مواضع كثيرة من التوراة ، ذكر يعقوب ، والمقصود بالذكر ولد يعقوب . فمن ذلك قوله فى السفر الخامس : (يَاإِسْرَآءِيلُ ! أَلَا تَخْشَى ٱللَّـهَ رَبَّكَ ، وَتَسْلُكُ فِى سَبِيلِهِ وَتَعْمَلُ لَهُ) ؟ فهذا خطاب لبنى إسرائيل باسم أبيهم ، وكذلك قوله لقوم موسى : (اسمع إسرائيل ، ثم احفظ ، واعمل يحسن إليك ربك ، وتكثر وتنعم) ونظائره كثيرة . فظهر أنه قد يذكر اسم الأب ، ويراد الابن مجازاً ، بقرينة الحال ، وإلا لزم الخلف فى خبره تعالى .

ومنها : فى الباب الثالث والثلاثين من سفر التثنية هكذا :

١ ـ وهذه هى البركة التى بارك بها موسى رجلُ الله بنى إسرائيل قبل موته .

٢ ـ فقال : جاء الربّ من سيناءَ وأشرق لهم من سَعِيرَ وتلألأ من جبل فَارَانَ وأتى من رِبْوَاتِ القُدْسِ وعن يمينه نارُ شريعةٍ لهم .

ولا غموض بأن مجىء الله جل وعلا من سيناء عبارة عن إنزاله التوراة على موسى بطور سينا ـ هكذا يفسره أهل الكتاب ـ والأمر كذلك فيجب أن يكون إشراقه من سعير عبارة عن إنزاله الإنجيل على المسيح ، وكان المسيح يسكن أرض الجليل من سعير بقرية تدعى (ناصرة، واسم النصارى مأخوذ منها . واستعلاؤه من جبال فاران عبارة عن إنزاله القرآن على محمد فى جبل فاران . وفاران هى مكة ، لا يخالفنا فى ذلك أهل الكتاب . ففى الباب الحادى والعشرين من سفر التكوين فى حال إسماعيل عليه السلام هكذا :

٢٠ ـ وكان الله مع الغلام فكبر . وسكن فى البرِّيَّة. وكان ينمو رامِيَ قوس .

٢١ ـ وسكن فى برِّيَّة فَارَانَ . وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر .

ولا شك أن إسماعيل كان سكنه فى مكة ، وفيها مات ، وبها دفن . وهذه البشارة صريحة فى نبينا ﷺ ، ظاهرة لا تخفى إلا على أكمه لا يعرف القمر . فأى نبيّ ظهر فى مكة بعد موسى غير محمد ، وانتشر دينه فى مشارق الأرض ومغاربها ، كما يقتضيه الاستعلان المذكور فى البشارة .

ومنها : فى الباب الثامن عشر من سفر التثنية هكذا :

١٧ ـ قال لى الربّ قد أحسنوا فى ما تكلموا .

١٨ ـ أُقيم لهم نبيًّا من وسْط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلّمهم بكل ما أوصيه به .

١٩ ـ ويكون أن الإنسانَ الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه .

هذا البشارة فى حق نبينا ﷺ قطعاً، لأنه من ذرية إسماعيل، وذريته يسمون إخوة لبنى إبراهيم ، بدليل ما ذكر فى التوراة فى حق إسماعيل وأنه قبالة إخوته ، ينصب المضارب . وقد جرت عادة الكتب المنزلة بتسمية أبناء الأعمام ، عن بعدبعيد، إخوةً

كما دعى فى القرآن هود وصالح ، إخوة لعاد وثمود ، مع أنهما على بعد بعيد من أولاد الأعمام .

وكما قيل فى سفر العدد فى الباب العشرين :

١٤ ـ وأرسل موسى رسلا من قَادَشَ إلى ملك أَدُومَ . هكذا يقول أخوك إسرائيل قد عرفتَ كلَّ المشقة التى أصابتنا (مع أنهما أبناء أعمام على بعدبعيد) .

وليست هذه الشهادة فى حق أحد من أنبياء بنى إسرائيل ، وإلّا ، لقال : وسوف أقيم لهم نبيا مثلك منهم أو من أنفسهم كما قال تعالى إخباراً بدعوة إبراهيم عليه السلام لولد إسماعيل (رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ) وكما قال تعالى فى خطاب بنى إسماعيل : (لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ) وأما مازعمته اليهود من أن المراد يوشع ، فتى موسى ، فهو باطل من وجوه :

١ ـ أن المبشر به من إخوة بنى إسرائيل ، لا من نفس بنى إسرائيل ، ويوشع كان من نفس بنى إسرائيل .

٢ ـ أن يوشع لم يكن مثل موسى عليه السلام لما فى آخر سفر التثنية . (الأصحاح الرابع والعشرون) .

١٠ ـ ولم يقم بعدُ نبيٌّ فى بنى إسرائيل مثلُ موسى الذى عرفه الرب وجها لوجه .

ولأن موسى عليه السلام صاحب كتاب وشريعة جديدة مشتملة على أوامر ونواه ، ويوشع ليس كذلك ، بل هو مأمور باتباع شريعة موسى .

٣ ـ أن يوشع عليه السلام كان حاضراً هناك ، وقد أشير إليه بعبارة صريحة قبل هذه فى الباب الأول من هذا السفر .

٣٨ ـ يَشُوعُ بن نونٍ الواقفُ أمامك هو يدخل إلى هناك . شدِّده لأنه هو يقسمها لإسرائيل .

فأى مقتضٍ للرمز والتلويح ، بعد هذا التصريح ؟ وأى موجب لإدخال (سوف) الدالة على الاستقبال على فعل حاصل فى الحال ؟

وأما ما زعمته النصارى من أن المراد به عيسى عليه السلام ، فهو أيضاً باطل ، لوجوه :

١ ـ أنه من بني إسرائيل ، والمبَشَّر به هنا من غيرهم .

٢ ـ أن موسى بشَّر بنبيّ مثله ، وهم يدّعون أن عيسى إله ، وينكرون كونه نبيًّا مرسلًا ، وإلا لزم اتحاد المرسِل والمرسَل ، وهو غير معقول . على أن مشابهة موسى لنبينا عليهما الصلاة والسلام ، أقوى من مشابهته لعيسى ، لاتحادهما في أمور :

١ ـ كونهما ذَوَيْ والدَيْنِ وأزواج ، بخلاف عيسى عليه السلام .

٢ ـ كونهما مأمورَيْنِ بالجهاد ، بخلاف عيسى عليه السلام . وقد أشار في هذه البشارة بقوله : ١٩ ـ ويكون أي الإنسان الذي لا يسمع لكلامي ، الذي يتكلم به باسمي ، أنا أطالبه. إلى كون هذا النبيّ مأمورًا بجهاد من كفر بما جاء به من عند الله ، والانتقام منه بسيفه البتّار. وزعمت النصارى أن الانتقام هنا بمعنى العذاب الأخرويّ لمنكريه ، وهو خطأ ، لأن ذلك لا يختص بهذا النبيّ ، بل كل من أنكر ما جاء به نبيّ من الأنبياء ينتقم منه في الآخرة ، فلا معنى لتخصيص هذا النبيّ بالذكر حينئذ .

٣ ـ كون شريعتهما مشتملة على الحدود والقصاص والتعزير وإيجاب الغسل على الجنب والحائض والنفساء ، وإيجاب الطهارة وقت العبادة ، وهذه كلها ليست موجودة في شريعة عيسى عليه السلام ـ على ما تقول النصارى ـ ونظائر ذلك كثيرة . وفي هذه البشارة إشارة إلى كون هذا النبيّ أميًّا لا يقرأ ، حيث قال (يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي) وبذلك تعرف سر وصفه به في قوله تعالى (ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ...) الآية التي نحن في صددها.

ومنها ـ في الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا : (إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الأب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلا الأبد ، روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ، ولا يعرفه . وأنتم تعرفونه ، لأنه مقيم عندكم ، وهو ثابت فيكم) . وهذه بشارة من المسيح عليه السلام بأن الله تعالى سيبعث للناس

من يقوم مقامه ، وينوب فى تبليغ رسالته ، وسياسة خلقه ، مقابه ، وتكون شريعته باقية مخلدة أبداً ، وهل هذا إلا محمد ﷺ . و (الأب) هنا بمعنى الرب والإله ، لأنه اصطلاح أهل الكتابين . وقد أشار عيسى عليه السلام بكونه (روح الحق) إلى أن الحق قبل مبعثه لا يكون كالميت لا حراك له ، ولا انتعاش ، وأنه إذا بعث يكون كالروح له ، فيرجع حينئذ قائماً فى الأرض . ولا خفاء أنه عليه الصلاة والسلام ، هو الذى أحيي الله به الحق بعد عيسى عليه السلام بعد ما اندرس ، ولم يبق فيه نفس . ثم قال : (والفارقليط روح القدس الذى يرسله الأب باسمى هو يعلمكم كل شيء وهو يذكركم كل ما قلته لكم) . ولاشك بأن محمدا ﷺ هو الذى علم كل شيء من الحقائق ، وأوضح ما خفي من الدقائق ، وذكّر أمة عيسى ما نسوه من أقواله المتضمنة أنه عبد من عباد الله تعالى ، قربه إليه بالرسالة واصطفاه ، وأنه لم يَدْعُ لسوى عبادة الله وتوحيده ، وتنزيهه وتمجيده . وقوله (باسمى) أى بالنبوة . ثم أبان لهم سبب إخبارهم به قبل أن يأتى فقال : (والآن قد قلت لكم قبل أن يكون . حتى إذا كان ، تؤمنون) .

وفى الباب الخامس عشر من الإنجيل المذكور : (فأما إذا جاء الفارقليط الذى أرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذى من الأب ينبثق ، وهو يشهد لأجلى ، وأنتم تشهدون لأنكم معى من الابتداء) .

وفى الباب السادس عشر منه : (لكنى أقول لكم الحق ، إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنى إن لم أنطلق ، لم يأتكم الفارقليط . فأما إن انطلقت أرسلته إليكم ، فإذا جاء ذاك ، فهو يوبخ العالم على خطيئة ، وعلى بر ، وعلى حكم . أما على الخطيئة فلأنهم لم يؤمنوا بى . وأما على البر فلأنى منطلق إلى الأب ، ولستم تروننى بعدُ . وأما على الحكم ، فإن رئيس هذا العالم قد دين . وإن لى كلاماً كثيرا أقوله لكم ، ولكنكم لستم تطيقون حمله . وإذا جاء روح الحق ذاك ، فهو يعلمكم جميع الحق ، لأنه ليس ينطق من عنده ، بل يتكلم بكل ما يسمع ، ويخبركم بما سيأتى ، وهو يمجدنى ، لأنه يأخذ مما هو لى ، ويخبركم جميع ما هو للأب ، فهو لى . من أجل هذا قلت (إن مما هو لى يأخذ ويخبركم) . ومن أمعن النظر فى هذه

العبارات ، ولاحظ ما اشتملت عليه من الفحاوى والإشارات جزم بأن (الفارقليط) هو محمد ﷺ ، فإنه هو الذى ظهر بعد عيسى عليه السلام ، وشهد لعيسى بالنبوة والرسالة ، ومجده وبرأه مما افتراه عليه النصارى من دعوى الربوبية ، ومما افتراه عليه اليهود من كونه ساحراً كذاباً ، وعلى والدته من كونها غير طاهرة الذيل ، بريئة الساحة ، وهو الذى وبخ العالم ، سيما اليهود ، على الخطايا ، لاسيما خطيئة الكفر بعيسى عليه السلام، والطعن فى والدته الطاهرة البتول ، وهو الأمين الصادق ، الذى علم جميع الحقائق، وهو الذى أبان من الأسرار مالم تطق تحمله قبل مجيئه الأفكار ، وهو الذى، لا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ، عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ [(١)] .

وفسر العلامة ابن قتيبة (روح الحق الذى من الأب ينبثق) أى يصدر بكلام الله المنزل، واستدل بقوله تعالى (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا)[(٢)] والمراد به هنا القرآن الكريم ، لأنه هو الذى يشهد للمسيح بالنبوة والنزاهة ، عما افترى عليه ، وبأنه روح الله وكلمته وصفيه ورسوله ، كما شهد الحواريون الذين كانوا معه ، واهتدوا بهديه . ولم يثبت شهادة كتاب غير القرآن بذلك ، فتعيّن أن يكون هو المراد .

وفى قول عيسى عليه السلام (إنه خير لكم أن أنطلق لأنى إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط إشارة إلى أن نبينا عليه الصلاة والسلام أفضل .

ولفظ (فارقليط) يونانىّ الأصل ، قيل : أصله باراكلى طوس ، بمعنى المعزِّى والمعين والوكيل أو الشافع . وقيل : بيركلوطوس ، فيكون قريباً من معنى محمد وأحمد .

معلوم أن المسيح عليه السلام ، كان يتكلم باللسان العبرانىّ ، الذى كان لسان قومه ، وما كان يتكلم باليونانىّ ، لأنه كان عبرانيًّا ابن عبرانية ، نشأ فى قومه العبرانيين ، فنقلُ أقواله فى هذه الأناجيل ، نقل بالمعنى . فترجيح من رجح من النصارى ، أن أصل فارقليط هو الأول ترجيح بلا مرجح ، والتفاوت بين اللفظين يسير جدًّا ، والحروف اليونانية

---

(١) [٥٣ / النجم / ٣] . (٢) [٤٢ / الشورى / ٥٢] .

متشابهة . وأيًّا كان أصله ، فالا ستدلال صحيح ، لصدق اللفظ بمعانيه كلها على النبيّ ﷺ صدقاً جليا، لايخفى إلا على مشاغب .

وقد كانت هذه البشارة سبب إسلام الفاضل عبد الله الترجمان ، كما بينه فى كتابه (تحفة الأديب فى الرد على أهل الصليب) .

وقد نبذ النصارى بعدُ الأناجيلَ المصرحة باسم (محمد) لكونها شجى فى حلوق أهوائهم ، كإنجيل (برنابا) ففيه التصريح بقوله (إلى أن يجىء محمد رسول الله) كما نقله فى (إظهار الحق) .

وإذا كان حالهم فى تراجمهم ، فى لقب إلههم ، ولقب خليفته ما علم ـ فكيف يرجى منهم صحة بقاء لفظ (محمد أو أحمد) ؟ ! ألا إن سيف الحق أمضى ، وسهلم الصواب أنفذ ، فثمة من الأوصاف الصريحة ، والأشائر الصحيحة ، مالا يبقى معه وقفة لحائر .

هـــذا ، وفى كتبهم بشائر كثيرة ، تعرض لذكرها جلة من العلماء ، مما أناف على العشرين .

قال الماوردىّ : لعل مالم يصل إلينا منها أكثر . وقد اقتصرنا على ماقدمنا ، رَوْماً للاختصار ، ولسهولة الوقوف على البقية ، من مثل (أعلام النبوّة للماوردىّ) و (إظهار الحق) وغيرهما .

وقد قال صاحب (إظهار الحق) الشيخ رحمة الله ، عليه رحمة الله: إن من أسلم من علماء اليهود والنصارى فى القرن الأول ، شهد بوجود البشارات المحمدية فى كتب العهدين ، مثل عبدالله بن سلام ، وابنى سعية ، وبنيامين، ومخيريق ، وكعب الأحبار ، وغيرهم من علماء اليهود. ومثل بحيرا ونسطورا الحبشى ، وضغاطر ، وهو الأسقف الرومىّ الذى أسلم على يد دِحْيَةَ الكلبىّ وقت الرسالة فقتلوه . والجارود ، والنجاشى ، والسوس ، والرهبان الذى جاءوا مع جعفر ابن أبى طالب رضى الله عنه ، وغيرهم من علماء النصارى . وقد اعترف بصحة نبوته ، وعموم

رسالته ، هرقل قيصر الروم ، ومقوقس صاحب مصر ، وابن صوريا ، وحُيىّ بن أخطب وأبو ياسر بن أخطب وغيرهم ، ممن حملهم الحسد على الشقاء ولم يسلموا .

ولما ورد على النبيّ صلى الله عليه وسلم نصارى نجران ، وحاجّهم فى شأن عيسى عليه السلام وحجّهم ، دعاهم إلى المباهلة بأمره تعالى ، فنكصوا على أعقابهم ، خوفا من شؤم مغبتها، فكانوا كقوم فرعون آمنوا بها (وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)(١) .

السادس ـ قوله تعالى (يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ) يحتمل أن يكون مستأنفاً ، وأن يكون مفسرًا لـ (مَكْتُوبًا) أى لما كتب .

السابع ـ الطيبات أعم من الطيبات فى المأكل كالشحوم ، وكذا البحائر والسوائب والوصائل والحام . ومن الطيبات فى حكم الشريعة كالبيع ، وما خلا كسبه عن سحت . وكذا الخبائث ما يستخبث ، من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير وما أُهِلَّ لغير الله به ، أو ما خبث فى الحكم كالربا والرشوة وغيرها من المكاسب الخبيثة. قيل: يستبعد إرادة ماطاب أو خبث فى الحكم ، لأن معناه حينئذ ما حكم الشرع بحله ، أو حكم بحرمته ، فيرجع الكلام إلى أنه يحل ما يحكم بحله ، ويحرّم ما يحكم بحرمته ، ولا فائدة فيه . وردّوه بأنه يفيد فائدة وأىّ فائدة ! لأن معناه أن الحل والحرمة بحكم الشرع ، لا بالعقل والرأى .

الثامن ـ فى قوله تعالى(وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ) إشارة إلى أنه ﷺ جاء بالتيسير والسماحة ، كما ورد الحديث من طرقٍ عن رسول الله ﷺ أنه قال(٢) : بعثت بالحنيفية السمحة . وقال ﷺ(٣) لأميريه معاذ وأبى موسى الأشعرىّ ، لما بعثهما إلى اليمن : بشرا ولا تنفرا ، ويسرا ولا تعسرا ، وتطاوعا ولا تختلفا .

(١) يشير إلى قوله تعالى فى : [٢٧ / النمل / ١٤] .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده بالصفحة رقم ٢٦٦ من الجزء الخامس (طبعة الحلبىّ) من حديث طويل رواه أبوأمامة عنه ﷺ .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٦٤ ـ باب ما يكره من التنازع والاختلاف فى الحرب وعقوبة من عصا إمامه ، حديث ١١٢٩ .

وقدمنا أن (الإصر والأغلال) استعارة لما كان فى شرائعهم من الأشياء الشاقة . فمنها تحريم طبخ الجدى بلبن أمه ، ومنها نظام الأعياد التى يعيّدونها لله فى السنة وهى عيد الفطير وعيد الحصاد وعيد المظال . وكذلك عيد كل سبت ، لا يعمل فيه أدنى عمل . وكذلك سبت المزارع . ففى كل سنة سابعة سبت للأرض ، لا يزرع فيها ، ولا يقطف الكروم ، بل تترك الأراضى عطلًا ، وغلات الكروم مأكلًا لفقراء شعبهم ووحوش البرية . ومنها أن من ضرب أباه أو أمه أو شتمهما أو تمرد عليهما وعصاهما يقتل حدًّا . وكذا من يعمل يوم السبت يقتل . ومن كان به جن أو تابعة يرجم بالحجارة حتى يموت . ومن تزوج فتاة فادعى أنه لم يجد لها عذرة ، ثم تبيّن كذبه ، جميعاً يقتلان . وإذا أمسكت امرأةٌ عورةَ رجل تقطع يدها . وإذا نطح ثور رجلًا أو امرأة فمات المنطوح ، يرجم الثور ولا يؤكل لحمه . ومن اضطجع مع امرأة طامث يقطعان من شعبهم . ومن طلق امرأته ثم تزوجت آخر ، وطلقها أو مات عنها ، فلا يجوز لزوجها الأول أن يرجعها . وغير ذلك من الآصار التى تقدم بعضها فى آخر سورة البقرة ـ فراجعه ـ .

التاسع ـ قال الجشمىّ : تدل الآية على أن شريعته صلى الله عليه وسلم أسهل الشرائع ، وأنه وضع عن أمته كل ثقل كان فى الأمم الماضية . وذلك نعمة عظيمة على هذه الأمة . وتدل على وجوب تعظيم الرسول ، ونصره بالجهاد ، ونصرته بنصرة دينه ، وكل أمر يؤدى إلى توهين مايتصل بذلك ، لأن جميع ذلك من باب النصرة . وهذا لا يختص بعصره . فجميع ذلك لازم إلى انقضاء التكليف . ولعل الجهاد بالبيان ، وإيراد الحجة ، ووضع الكتب فيه ، وحلّ شبه المخالفين ، يزيد فى كثير من الأوقات على الجهاد بالسيف ، ولهذا قلنا (منازل العلماء فى ذلك أعظم المنازل) اه .

العاشر ـ قال العلامة البقاعىّ : لما تراسلت الآى ، وطال المدى فى أقاصيص موسى عليه السلام ، وبيان مناقبه العظام ، ومآثره الجسام ، وكان ذلك ربما أوقع فى بعض النفوس أنه أعلى المرسلين منصباً ، وأعظمهم رتبة ـ ساق سبحانه هذه الآيات ، هذا السياق ، على هذا

الوجه ، الذى بين أعلاهم مراتب ، وأزكاهم مناقب ، الذى خص برحمتــه من يؤمن به من خلقه، قوة أو فعلا . وجعل سبحانه ذلك فى أثناء قصة بنى إسرائيل ، اهتماماً به ، وتعجيلا له ، مع ما سيذكر، مما يظهر أفضليته، ويوضح أكمليته ، بقصته مع قومه، فى مبدأ أمره وأوسطه ومنتهاه ، فى سورة (الأنفال) و (براءة) بكمالها .

ثم قال البقاعىّ : لما تم ما نظمه تعالى فى أثناء هذه القصص ، من جواهر أوصاف هذا النبى الكريم ، حث على الإيمان به، إيجاباً له على وجهٍ علم منه أنه رسول الله إلى كل مكلف، تقدم زمانه أو تأخر ـ أمرَهُ سبحانه أن يصرح بما تقدم التلويح إليه، ويصرح بما أخذ ميثاق الرسل عليه ، تحقيقاً لعموم رسالته ، وشمول دعوته ، فقال سبحانه:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٨] (قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

« قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » أى كافة « ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ » نعوتٌ للفظ الجلالة ، أى الذى أرسلنى هو خالق كل شىء وربه ومليكه الذى بيده الملك والإحياء والإماتة . والآية نصٌّ فى عموم بعثته للأحمر والأسود ، والعربىّ والعجمىّ . وفى الحديث : أعطيت خمساً لم يعطهن نبىٌّ قبلى ـ ولا أقولهن فخراً ـ بُعثت إلى الناس كافة ، الأحمر والأسود ؛ ونصرت بالرعب مسيرةَ شهر؛ وأُحلّت لى الغنائم ، ولم تحلّ لأحد قبلى ؛ وجُعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة ، فَأَخَّرْتُهَا لأمتى ، فهى لمن لا يشرك بالله شيئاً . رواه الإمام أحمد[1] عن ابن عباس

---

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٠١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٢٧٤٢ (طبعة المعارف) .

مرفوعاً ، ورواه[1] أيضاً عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلي . أما أنا فأرسلت إلى الناس كلهم عامة ، وكان مَنْ قبلي إنما يرسل إلى قومه ؛ ونُصرت على العدوّ بالرعب ، ولو كان بيني وبينهم مسيرة شهر لملئ منه رعباً ؛ وأحلت لي الغنائم ، آكلها ؛ وكان من قبلي يُعظِّمون أكلها ، كانوا يحرِقُونها ؛ وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهُوراً ، أينما أدركتني الصلاة تمسَّحْتُ وصليت وكان مَنْ قبلي يُعظِّمون ذلك ، إنما كانوا يصلون في بِيَعِهِمْ وكنائسهم ؛ والخامسة هي ما هي ! قيل لي : سل ، فإن كل نبيّ قد سأل ، فأخرتُ مسألتي إلى يوم القيامة ، فهي لكم ، ولمن يشهد أن لا إله إلا الله .

قال الحافظ ابن كثير : إسنادهما جيد قويّ .

وروى الإمام أحمد بمعناه عن ابن عمر وأبي موسى ، وهو ثابت في الصحيحين[2] عن جابر .

وأخرج مسلم[3] عن أبي موسى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده ! لا يسمع بي رجل من هذه الأمة ، يهوديّ ولا نصرانيّ ، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار « فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ » أي الذي نبئ ما يرشد الخلائق كلهم ، مع كونه أميًّا . وفي نعته بذلك زيادة تقرير أمره وتحقيق أنه المكتوب في الكتابين « ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ » أي ما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه ووحيه « وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » .

---

(١) أخرجه في المسند بالصحفة رقم ٢٢٢ من الجزء الثاني (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٧٠٦٨ (طبعة المعارف) . (٢) أخرجه البخاريّ في : ٨ ــ كتاب الصلاة ، ٥٦ ــ باب قول النبيّ ﷺ « جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا » حديث رقم ٢٣١ .
ومسلم في : ٥ ــ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ٣ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم في : ١ ــ كتاب الإيمان ، حديث رقم ٢٤٠ (طبعتنا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٥٩] ﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾

« وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ » أى : موقنين ثابتين ، يهدون الناس بكلمة الحق ، ويدلونهم على الاستقامة ، ويرشدونهم « وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ » وبالحق يعدلون بينهم فى الحكم ، لا يجورون . والآية سيقت لدفع ما عسى يوهمه تخصيص كَتْبِ الرحمة والتقوى والإيمان بمتبعى رسول الله ﷺ من حرمان أسلاف قوم موسى عليه السلام ، من كل خير ، وبيان أن كلهم ليسوا كما حكيت أحوالهم . وقيل هم الذين آمنوا بالنبىّ ﷺ . ويأباه أنه قد مرّ ذكرهم فيما سلف . أفاده أبو السعود .

وهذه الآية كقوله تعالى ﴿ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾(١) ، وقوله تعالى ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ، أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾(٢)

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٠] ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ اثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ، وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ اسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ، فَانۢبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

« وَقَطَّعْنَٰهُمُ » أى قوم موسى « اثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا » أى صيّرناهم قطعاً ، أى فرقاً ، وميزنا بعضهم من بعض . والأسباط : أولاد الولد ، وكانوا اثنتى عشرة قبيلة ، من اثنى عشر

---

(١) [٣ / آل عمران / ١١٣] . (٢) [٣/ آل عمران / ١٩٩] .

ولدًا ، من ولد يعقوب عليه السلام « أُمَمًا » أى عظيمة وجماعة كثيفة العدد « وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ » أى فى التيه « أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ » فضربه « فَٱنۢبَجَسَتْ » أى انفجرت « مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا » بعدد الأسباط « قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ » أى سبط منهم « مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ » فى التيه من حرّ الشمس « وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ » حيث أوجبوا لها العذاب الدائم.

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٦١] (وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ)

« وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ » يعنى بيت المقدس، والقائل موسى عليه السلام، دعاهم إلى دخول بيت المقدس . أو يوشع ، فإنه دعاهم ، بعد وفاة موسى، إلى غزو بيت المقدس « وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ » أى قولوا حُطَّ عنا ذنوبنا ، وقيل: أمروا بكلمة إذا قالوها حطّ عنهم أوزارهم « وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ » أى باب القرية « سُجَّدًا » أى ساجدين أو خاضعين . أُمِروا بأن يدخلوها بالتواضع ، وكان ذلك شرطًا فى قبول فعلهم « نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٢] (فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ)

« فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا »

أى عذاباً « مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ » وقد تقدم تفسير هذا كله فى سورة البقرة[١] بما يغنى عن إعادته .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٣] (وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ، كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ)

« وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ » هذا السياق هو بسط لقوله تعالى (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ)[٢] . فقوله تعالى (وَسْئَلْهُمْ) عطف على (اذكر) المقدر عند قوله (وَإِذْ قِيلَ) أى واسأل اليهود المعاصرين لك ، سؤال تقريع وتقرير ، بقديم كفرهم وتجاوزهم حدود الله ، وإعلاماً بأن هذا من علومهم التى لا تعلم إلا بكتاب أو وحى ، فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم ، علم أنه من جهة الوحى .

وقال ابن كثير : أى : واسأل هؤلاء اليهود بحضرتك عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ، ففجأتهم نقمته على صنيعهم واعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة ، وحذّر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم ، لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم .

و (هذه القرية) هى أيلة ، بين مدين والطور ، وقيل هى متنا ، بين مدين وعينونا . ومعنى كونها (حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ) أنها قريبة منه ، راكبة لشاطئه .

---

(١) يشير إلى قوله تعالى فى : [٢ / البقرة / ٥٩] صفحة رقم ١٣٣ من التفسير .

(٢) [٢/ البقرة /٦٥].

وقوله تعالى : (إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ) أى يتجاوزون حد الله فيه ، وهو اصطيادهم فى يوم السبت ، وقد نهوا عنه ، فقد أخذت عليهم العهود والمواثيق أن يحفظوا السبوت من عمل ما .

و (الحيتان) السمك ، وأكثر ماتستعمل العرب الحوت ، فى معنى السمكة .

و (شُرَّعًا) جمع شارع ، من (شرع) بمعنى دنا . يقال : شرع علينا فلان ، إذا دنا منا ، وأشرف علينا . وشرعت على فلان فى بيته ، فرأيته يفعل كذا ، وهو حال من (حِيتَانُهُمْ) أى تأتيهم يوم سبتهم ظاهرة على وجه الماء ، قريبة من الساحل ، ويوم لا يسبتون لاتأتيهم أصلًا إلى السبت المقبل .

قرئ (يُسْبِتُونَ) ثلاثيًّا ، ومزيداً فيه ، من (أسبت) معلوماً ومجهولًا أيضا ، بمعنى ، لايدخلون فى السبت ، ولا يدار عليهم .

وقوله تعالى (كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم) أى مثل ذلك البلاء العجيب الفظيع ، نختبرهم بإظهار السمك لهم على ظهر الماء ، فى اليوم المحرم عليهم صيده ، وإخفائه عنهم فى اليوم الحلال لهم صيده ، أى نعاملهم معاملة من يختبرهم ، بسبب فسقهم ، فيظهر عدوانهم ، فيستحقون المؤاخذة .

ثم بين تعالى تماديهم فى العدوان ، وعدم انزجارهم عنه ، بعد العظات والإنذارات ، بقوله سبحانه:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٤] (وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ، قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)

« وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ » أى جماعة من صلحائهم، يحاورون فريقاً ممن دأب فى عظتهم « لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ » أى : مخترمهم ومطهر الأرض منهم « أَوْ مُعَذِّبُهُمْ

عَذَابًا شَدِيدًا » أى بل معذبهم عذاباً شديداً ، إذ مجرد الإهلاك قد يوجد معه لطف ، وأما شدة العذاب فتلك القاصمة « قَالُواْ » أى: الوعاظ « مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ » أى نعظهم معذرة إليه تعالى ، لئلا ننسب إلى التفريط فى وصيته بالنهى عن المنكر . وقرئ بالرفع . أى موعظتنا معذرةٌ « وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » أى ورجاء فى أن يتقوا فيتوبوا فينجوا من الإهلاك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٥] (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ)

« فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ » أى فلما تركوا ما ذكرهم به صلحاؤهم ، ترك الناسى للشيء ، وأعرضوا عنه إعراضاً كلياً ، بحيث لم يخطر ببالهم شيء من تلك المواعظ أصلاً « أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ » أى : المرتكبين المنكر .

« بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ » أى: شديد، وزنا ومعنى « بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ » بفعل المنكر

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٦] (فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ)

« فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ » ، أى تكبروا وأبوا أن يتركوا ما نهوا عنه « قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ » أى صاغرين أذلاء ، بُعَداءَ من الناس .

قال الزجاج : أمروا بأن يكونوا كذلك بقولٍ سُمِعَ .

وقال غيره : المراد بالأمر هو الأمر التكوينى ، لا القولى ، أى: التكليفى ، لأنه ليس فى وسعهم حتى يؤمروا به . وفى الكلام استعارة تخييلية . شبه تأثير قدرته تعالى فى المراد من غير توقف ، ومن غير مزاولة عمل واستعمال آلة ، بأمر المطاع للمطيع ، فى حصول المأمور به ، من غير توقف . كذا فى (العناية) .

وظاهر الآية يقتضى أن الله تعالى عذبهم أوّلا بعذاب شديد، فعتوا بعد ذلك، فمسخهم. ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريرا وتفصيلا لما قبلها .

تنبيهات :

الأول ـ قال الجشميّ : تدل الآية على أنهم تعبدوا بتحريم الصيد يوم السبت . وأنه شدد التكليف عليهم بظهورها يومئذ ، وأنهم خالفوا أمر الله، وهذا القدر يقتضيه الظاهر. ومتى قيل : أفظهور الحيتان يوم السبت دون غيره من الأيام ، هل كانت معجزة ؟ قلنا : اختلفوا فيه . فقيل : كان معجزة لنبيّ ذلك الزمان ، لأنه لا يتفق للسمك أن يأتى الأنهار كثيرا فى يوم واحد ، ولا يظهر فى سائر الأيام . فإن كان كذلك ، فلا بد أن الله تعالى قوّى دواعى الحيتان يوم السبت، فظهروا . وصرفهم فى سائر الأيام، فلم يظهروا ، فكانت معجزة. وقيل : كانت جرت عادتهم بترك الصيد يوم السبت ، فعلموا ذلك فكثروا فى ذلك اليوم على عادتهم ، كما اعتاد الدواب كثيرا من الأشياء . انتهى .

وقد روى فى اعتدائهم فى السبت روايات :

منها ـ أنهم تحيلوا لاصطياد الحيتان فيه بوضع الحبائل والبرك قبل يوم السبت، حتى إذا جاءت يوم السبت على عادتها فى الكثرة ، نشبت بتلك الحبائل ، فلم تخلص منها يومها، فإذا كان الليل ، أخذوها بعد انقضاء السبت .

ومنها ـ أنهم كانوا يأخذونها يوم السبت بالفعل ، ولكن يأكلونها فى غيره من الأيام، فتأول لهم الشيطان أن النهى عن الأكل فيه منها ، لا عن صيدها . فنهتهم طائفة منهم عن ذلك وقالت : ما نراكم تصبحون حتى يصبحكم الله بخسف ، أو قذف ، أو بعض ما عنده من العذاب . فلما أصبحوا وجدوهم أصابهم من المسخ ما أصابهم ، وإذا هم قردة ـ رواه عبد الرزاق وابن جرير ـ وثمة روايات أخر .

وروى عن مجاهد أنهم مسخت قلوبهم ، لا أبدانهم ـ والله أعلم ـ .

الثانى ـ استُدِلَّ بهذه القصة على تحريم الحِيَلِ .

قال الإمام ابن القيّم فى (إغاثة اللهفان) : ومن مكايد الشيطان التى كادَ بها الإسلام وأهــله ، الحيل والمـكر والخداع ، الذى يتضمن تحليل ما حرم الله ، وإسقاط مافرضه ، ومضادته فى أمره ونهيه . وهى من الرأى الباطل الذى اتفق السلف على ذمه . فإن الرأى رأيان : رأى يوافق النصوص ، وتشهد له بالصحة والاعتبار ، وهو الذى اعتبره السلف ، وعملوا به . ورأى يخالف النصوص ، وتشهد له بالإبطال والإهدار ، فهو الذى ذموه وأنـكروه . وكذلك الحيل نوعان : نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله تعالى به ، وترك ما نهى عنه ، والتخلص من الحرام ، وتخليص المحق من الظالم المانع له ، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغى، فهذا النوع محمود ، يثاب فاعله ومعلمه . ونوع يتضمن إسقاط الواجبات ، وتحليل المحرمات ، وقلب المظلوم ظالمًا ، والظالم مظلوماً، والحق باطلا ، والباطل حقا ، فهذا الذى اتفق السلف على ذمه ، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض .

ثم ساق الوجوه العديدة على تحريمه وإبطاله . وقال فى سادسها :

إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة لَمَّا احتالوا على إباحة ماحرمه الله تعالى عليهم من الصيد ، بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة ، فلما وقع فيها الصيد ، أخذوه يوم الأحد . قال بعض الأئمة : ففى هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهى الشرعية ، ممن يتلبس بعـلم الفقه ، وهو غـير فقيه ، إذ الفقيه من يخشى الله تعالى بحفظ حـدوده ، وتعظيم حرماته ، والوقوف عنـدها . ليس المتحيلَ على إباحة محارمه ، وإسقاط فرائضه . ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تـكذيبا لموسى عليه السلام وكفرا بالتوراة ، وإنما هو استحلال تأويل . واحتيال ظاهره ظاهر الإيفاء ، وباطنه باطن الاعتداء ، ولهذا ـ والله أعلم ـ مسخوا قردة ، لأن صورة القرد فيها شبه من صورة الإنسان ، وفى أوصافه شبه منهم ، وهو مخالف له فى الحد والحقيقة . فلما نَسَخَ أولئك المعتدون دين الله تعـالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين فى بعض ظاهره ، دون حقيقته ، مسخهم الله تعالى قردة يشبهونهم فى بعض ظواهرهم ، دون الحقيقة ، جزاء وِفَاقاً .

ثم روى فى عاشرها عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ[1] : لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل .

الثالث ـ دلت الآيات على أن أهل هذه القرية صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحذور ، واحتالوا على صيد السمك يوم السبت ، كما بيّنا . وفرقة نهت عن ذلك واعتزلتهم . وفرقة سكتت فلم تفعل ولم تنه ، ولكنها قالت للمنكرة : لم تنهون هؤلاء ، وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله فلا فائدة فى نهيكم إياهم ؟ فأجابتها المنكرة : بأنا نفعل ذلك اعتذارا إلى ربنا فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . ثم نص تعالى على نجاة الناهين ، وهلاك الظالمين .

وقال ابن كثير : وسكت عن الساكتين ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لا يستحقون مدحاً فيمدحوا ولا ارتكبوا عظيما فيذموا ، ومع هذا فقد اختلف الأئمة فيهم : هل كانوا من الهالكين ، أو من الناجين ؟ على قولين . ويروى أن ابن عباس كان توقف فيهم ، ثم صار إلى نجاتهم ، لما قال له غلامه عكرمة : ألا ترى أنهم قد كرهوا ماهم عليه ، وخالفوهم ، وقالوا : لم تعظون قوماً الله مهلكهم ؟ فكساه حلة .

الرابع ـ دل قوله تعالى (قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) على أن النهى عن المنكر لا يسقط ، ولو علم المنكِر عدم الفائدة فيه . إذ ليس من شرطه حصول الامتثال عنه ، ولو لم يكن فيه إلا القيام بركن عظيم من أركان الدين ، والغيرة على حدود الله ، والاعتذار إليه تعالى ، إذ شدد فى تركه ـ لكفاه فائدة .

ولما ذكر تعالى بعض مساوئ اليهود ، تأثره ببيان أنه حكم عليهم بالذل والصغار إلى يوم القيامة فقال سبحانه :

---

(١) رواه أبو عبد الله بن بطّة . انظر : الجزء الأول من (إغاثة اللهفان) ص ٣٤٨ (طبعة مصطفى الحلبىّ) عام ١٣٥٧ هـ .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٧] (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ، وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ)

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ » أى آذن ، (كتوعد بمعنى أوعد) . من (الإيذان) بمعنى (الإعلام) أُجرِيَ مجرى فعل القسم ، كعلم الله ، وشهد الله . ولذلك أجيب بما يجاب به القسم ، وهو قوله : « لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ » والمعنى : وإذ حتم ربك وحكم ، ليسلطن على اليهود « إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ » كالإذلال وضرب الجزية وغير ذلك ، بسبب عصيانهم ومخالفتهم أوامر الله وشرعه ، واحتيالهم على المحارم . وقد بعث الله تعالى ، بعد سليمان عليه السلام ، بختنصر مالك بابل ، فخرب ديارهم ، وقتل مقاتلتهم ، وسبى نساءهم وذراريهم ، وضرب الجزية على من بقى منهم ، وجلا كثيرا منهم إلى بابل ـ قصبة مملكته ـ وأقاموا فيها سبعين سنة ، ثم تسلطت عليهم ملوك شتى ، ولبثوا زماناً طويلا يكابدون بلاء عنيفاً ، من تواتر الحروب على بلادهم ، إلى أن صاروا جميعا تحت سلطة الرومان ، بعد ولادة عيسى عليه السلام بإحدى وسبعين سنة ، واستؤصلوا من أرضهم ، وتفرقوا فى البلادشذر مذر ، صاغرين مقهورين . ومن هاهنا ، استدل من استدل بأنهم لا يكون لهم دولة ولا عز ، وباتصال ذلهم . « إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ » لمن أقام على كفره ، ونبذ وصاياه « وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ » أى لمن تاب وآمن وعمل صالحاً .

ثم أخبر تعالى عن تبددهم فى الأقطار بقوله :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٨] (وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا ، مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ، وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا » أى فرقنا بنى إسرائيل فى الأرض ، وجعلنا كل فرقة

منهم فى قطر من أقطارها ، بحيث لا تخلو ناحية منها ، منهم ، تكملة لإدبارهم ، حتى لا تكون لهم شوكة « مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ » أى من ينحط عن درجة الصلاح ، لكفر أو فسق « وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ » أى بالنعم والنقم التى هى أمثلة جزاء الصلاح والفسق « لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى عن أسباب السيئات إلى الحسنات .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٦٩] (فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ، وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

« فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ » أى من بعد هؤلاء المذكورين « خَلْفٌ » أى بدل سوء . والمراد بهم الذين كانوا فى زمن رسول ﷺ . و (الخلف) مصدر ، ولذا يوصف به المفرد وغيره ، وقد شاع فى الطالح ، ومفتوح اللام بـ(الصالح) ، وربما جاء عكسه «وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ» أى التوراة من أسلافهم المختلفين ، يقرؤونها ويقفون على ما فيها من الأوامر والنواهى ، والتحليل والتحريم ، ولا يعملون بها كما قال: « يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ » أى حطام هـذا الشىء الأدنى ، يريد الدنيا ، وما يتمتع به منها . وفى قوله (هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ) تخسيس وتحقير . و (العَرَض) بفتح الراء ، ما لا ثبات له ، ومنه استعار المتكلمون (العرض) لمقابل (الجوهر) . و (الأدنى) إما من الدنوّ بمعنى القرب ، لأنه عاجل قريب بالنسبة إلى الآخرة . وإما من دنوّ الحال وسقوطها وقلتها (وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا » أى يتقاضون عن بذل الحق ونشره ، بعرض الحياة الدنيا ، ويتحكمون على الله تعالى بأنه لا يؤاخذهم بما أخذوا « وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ » الواو للحال ، أى يرجون المغفرة ، وهم مصرّون

عائدون إلى مثل فعلهم ، غير تائبين ، كلما لاح لهم مثل الأول أخذوه . « أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ » أى الميثاق الوارد فيه « أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ » أى فلو صح ما تحكموا به على الله ، لم يكن لأخذ هذا الميثاق معنى .

ثم أخبر تعالى أن أخذهم ليس عن جهلهم بذلك الميثاق بقوله : « وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ » أى قرأوا ما فى الكتاب من الميثاق مرة بعد مرة «وَٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ » أى من ذلك العرض الخسيس « لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ » أى أخذ هذا الأدنى بدل كتم الحق «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» أى فتعلموا ذلك ، فلا تستبدلوا الأدنى المؤدى إلى العقاب ، بالنعيم المخلد . وقرىء بالياء . وفى الالتفات تشديد للتوبيخ .

ثم أثنى تعالى على من تمسك بكتابه الذى يقوده إلى اتباع رسوله محمد ﷺ ، كما هو مكتوب فيه ، بقوله سبحانه .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٠] (وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ)

«وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ» أى يتمسكون به فى أمور دينهم. يقال: مسّك بالشىء وتمسك به . وقرىء يُمْسكون ، من (الإمساك) وتمسكوا واستمسكوا « وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ » من وضع الظاهر موضع المضمر ، تنبيهاً على أن الإصلاح كالمانع من التضييع ، لأن التعليق بالمشتق يفيد علة مأخذ الاشتقاق ، فكأنه قيل : لا نضيع أجرهم لإصلاحهم . فإن قلت: التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة، ومنها إقامة الصلاة، فكيف أفردت ؟ أجيب : بأن إفرادها ، إظهارا لمزية الصلاة ـ لكونها عماد الدين ، وفارقة بين الكفر والإيمان .

قال الجشمىّ : تدل الآية على وعيد المعرض عن الكتاب ، ووعد من تمسّك به، تنبيهاً

لنا وتحذيراً عن سلوك طريقهم . وتدل على أن الاستغفار باللسان ، وتمنى المغفرة لا ينفع حتى يكون معهما التوبة والعمل.

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧١] ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

«وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ» أى رفعناه «كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ» أى سحابة «وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ» أى ساقط عليهم، لأن الجبل لا يثبت فى الجوّ «خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم» أى وقلنا، أو قائلين : خذوا ما آتيناكم من أحكام التوراة «بِقُوَّةٍ» أى عزيمة وجد «وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ» أى بالعمل ولا تتركوه كالمنسىّ «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» أى مساوئ الأعمال ، أو راجين أن تنظموا فى سلك المتقين . وهذه الآية كقوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ﴾[1].

وقد روى عن ابن عباس وغيره من السلف : أنهم راجعوا موسى فى فرائض التوراة وشرائعها ، حتى رفع الله الجبل فوق رءوسهم ، فقال لهم موسى : ألا ترون ما يقول ربى عز وجل ؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها ، لأرمينكم بهذا! فخرّوا سجّداً ، فرقاً من أن يسقط عليهم ـ رواه النسائىّ[2] وسنيد ـ .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٧٢] ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» أى أخرج من أصلابهم

(١) [٤ / النساء / ١٥٤] . (٢) لم أهتد إليه .

نسلهم على ما يتوالدون قرناً بعد قرن ، من أنهم كانوا نطفة قذفت إلى رحم الأمهات ، ثم جعلت علقة ، ثم مضغة ، ثم أنشأهم بشراً سويًّا حيًّا مكلفاً ، فجعل خلقه إياهم كذلك ، إخراجاً من أصلابهم ، لأن أصلهم خرج منها . و (مِن ظُهُورِهِمْ) بدل من (بَنِيٓ ءَادَمَ) بدل البعض . وقرئ (ذرياتهم) « وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ » أي أشهد كل واحدة من أولئك الذريات المأخوذين من ظهور آبائهم على نفسها ، تقريراً لهم بربوبيته التامة .

قال الجشمي : أي أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته ، وعجائب خلقته ، وغرائب صنعته ، من أعضاء سوية ، وحواس مدركة ، وجوارح ظاهرة ، وأعصاب وعروق وغير ذلك ، مما يعلمه من تفكر فيه ، وكلها تدل عليه وعلى صفاته ووحدانيته ، فبالإشهاد بالأدلة ، صار كأنه أشهدهم بقوله .

وقوله تعالى « أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ » على إرادة القول ، أي قائلا : ألست بربكم ، ومالك أمركم ومربيكم على الإطلاق ، من غير أن يكون لأحد مدخل في شأن من شؤونكم ، فينتظم استحقاق المعبودية ، ويستلزم اختصاصه به تعالى « قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ » أي على أنفسنا بأنك ربنا وإلهنا لا رب غيرك ، لأنهم بما ظهر عليهم من آثار الصنعة ، صاروا كأنهم قالوا (بلى) ، وإن لم يكن هناك قول باللسان . فالآية من باب التمثيل المعروف في كلام العرب . مثّل تعالى خلقهم على فطرة التوحيد ، وإخراجهم من ظهور آبائهم ، شاهدين بربوبيته شهادة لا يخالجها ريب ، بحمله إياهم على الاعتراف بها بطريق الأمر ، ومسارعتهم إلى ذلك من غير تلعثم أصلاً . والقصد من الآية الاحتجاج على المشركين بمعرفتهم ربوبيته تعالى معرفة فطرية ، لازمة لهم لزوم الإقرار منهم والشهادة . قال تعالى : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ)[1] والفطرة هي معرفة ربوبيته .

---

(١) [٣٠ / الروم / ٣٠] .

وفى الصحيحين [١] عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه كما تنتج البهيمةُ بهيمةً جمعاء . هل تحسون فيها من جدعاء ؟ .

والجمعاء سالمة الأذن ، والجدعاء مقطوعتها .

وفى صحيح مسلم [٢] عن عياض بن حمار قال رسول الله ﷺ : يقول الله إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين ، فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللتُ لهم .

وروى الطبرى عن الحسن عن الأسود بن سريع قال : قال رسول الله ﷺ : كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهوّدانها أو ينصّرانها .

قال الحسن : والله لقد قال الله فى كتابه (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِىٓ ءَادَمَ ...) الآية ـ رواه الإمام أحمد [٣] والنسائى ، بدون استشهاد الحسن بالآية .

وأما الأخبار المروية فى إخراج الذرية من صلب آدم عليه السلام ، وتكليمه تعالى إياهم ، ونطقهم ، ثم إعادتهم إلى صلب أبيهم ـ فغير صحيحة الإسناد . وما حَسُنَ إسناده منها فغير صريح فى ذلك ، بل هو أقرب إلى ألفاظ الآية ، كما بينه الحافظ ابن كثير . قال رحمه الله :

ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهـذا الإشهاد فطرهم على التوحيد ، كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض والأسود . وقد فسر الحسن الآية بذلك .

قالوا : ومعنى (أشهدهم) أى أوجدهم شاهدين بذلك ، قائلين له حالا وقالا . والشهادة

---

(١) أخرجه البخارى فى : ٢٣ ـ كتاب الجنائز ، ٨٠ ـ باب إذا أسلم الصبى فمات هل يصلى عليه ، وهل يعرض على الصبىّ الإسلام ، حديث ٧١٦ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٦ ـ كتاب القدر ، حديث رقم ٢٢ ـ ٢٤ (طبعتنا) .

(٢) أخرجه فى : ٥١ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، حديث رقم ٦٣ (طبعتنا) ضمن حديث طويل . (٣) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٤٣٥ من الجزء الثالث (طبعة الحلبى) .

obeikandi.com

تارة تكون بالقول ، كقوله (قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا)[١] الآية ـ وتارة تكون حالا كقوله تعالى : (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ)[٢] أى حالهم شاهداً عليهم بذلك ، لأنهم قائلون ذلك. وكذا قوله تعالى (وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ)[٣] كما أن السؤال تارة يكون بالقال ، وتارة يكون بالحال ، كقوله : (وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ)[٤] .

قالوا : ومما يدل على أن المراد هذا، أن جعل الإشهاد حجة عليهم فى الإشراك ، فلو كان قد وقع هذا كما قاله من قاله ، لكان كل أحد يذكره ليكون حجة عليه . فإن قيل : إخبار الرسول ﷺ به كاف فى وجوده ، فالجواب : أن المكذبين من المشركين يكذبون بجميع ما جاءتهم به الرسل من هذا وغيره . وهذا جعل حجة مستقلة عليهم ، فدل على أنه الفطرة التى فطروا عليها من الإقرار بالتوحيد .

« أَن تَقُولُواْ » أى كراهة أن تقولوا « يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ » أى الذى يسأل فيه عن الربوبية والتوحيد « إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا » أى عن ربوبيته وتوحيده « غَٰفِلِينَ » أى لم ننبه عليه . فإنهم حيث جبلوا على ما ذكر ، صاروا محجوبين عاجزين عن الاعتذار بذلك . إذ لا سبيل لأحد إلى إنكار ما ذكر من خلقهم على الفطرة السليمة .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٣] (أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ، أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ)

« أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا » أى سنوا الإشراك واخترعوه « مِن قَبْلُ » أى من قبل زماننا « وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ » أى فنشأنا على طريقهم، احتجاجاً بالتقليد،

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٣٠] . (٢) [٩ / التوبة / ١٧] .
(٣) [١٠٠ / العاديات / ٧] . (٤) [١٤ / إبراهيم / ٣٤] .

وتعويلا عليه ، فقد قطعنا العذر بما بيّنا من الآيات « أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ » أى أتؤاخذنا بما فعل آباؤنا من الشرك ، وأسسوا من الباطل ، أو بفعل آبائنا الذين أبطلوا تأثير العقول ، وأقوال الرسل ؟ والاستفهام للإنكار ، أى أنت حكيم لا تأخذ الأبناء بفعل الآباء ، وقد سلكنا طريقهم والحجة عليهم بما شرعوا لنا من الباطل . والمعنى : أزلنا الشبهتين بأن الإقرار بالربوبية والتوحيد ، هو فى أصل فطرتكم ، فلم لم ترجعوا إليه عند دعوة العقول والرسل ؟ والفطرة أكبر دليل ، فهى تسد باب الاعتذار بوجهٍ ما . لا سيما والتقليد عند قيام الدلائل ، والقدرة على الاستدلال بها ، مما لا مساغ له أصلا .

تنبيهات

الأول ـ وافق الإمام ابن كثير ، فى هذا المقام أيضا الجشمىّ فى تفسيره ، قال :

ويروى أصحاب الحديث عن أسلافهم من الآثار موقوفة ومرفوعة ، ويجعلون ذلك تأويلا للآية ، وهو أنه تعالى مسح ظهر آدم ، فأخرج منه ذريته ، أمثال الذر ، فقال : ألست بربكم؟ فقالوا : بلى طائعين . ثم أعادهم فى صلب آدم . وإن تأويل الآية على ذلك .

قال : وقد ذكر مشايخنا رحمهم الله أن ذلك فاسد ، وأن ظاهر الآية يخالف ذلك ، وذكروا فى الرواية ما نذكره . قالوا : فمما يدل على فساده وجوه .

منها : أنه لو كان حالٌ كما ذكروا ، لذكرناه ، لأن مثل ذلك الأمر العظيم لا ينساه العاقل ، خصوصاً إذا كان إشهاداً عليه ، ليعمل به .

ومنها : ما ذكره شيخنا أبو علىّ ، أن ظهر آدم لا يسع هذا الجمع العظيم ، وهذا شنيع من الكلام .

ومنها : أنه ذكر أنه خلقنا من نطفة ، وكل ولد ولد من أب ومن نطفة ، فلو خلقهم ابتداءً لا من شىء ، لم يصح ذلك .

ومنها : أن الجزء الواحد ، لا يجوز أن يكون حيًّا عاقلًا ، لأن تلك البنية ، لا تحمل الحياة ، فلا بد من أن يكون مؤلفاً من أجزاء ، وحينئذ لا يصح أن يكون الجميع فى ظهر آدم .

obeikandi.com

ومنها : أنه يفتح باب التناسخ ، والقول بالرجعة ، لأن لهم أن يقولوا : إذا جاز الإعادة ثمة ، لم ينكر التناسخ .

ومنها : أنه لابد أن يكون فيه فائدة ، وفائدته أن يذكره ليجرى على تلك الطريقة ، وإذا لم يذكره بطلت فائدته .

ومنها : أن الاعتراف لا يصح إلا وقد تقدم حال لهم عرفوا ذلك ، فكيف يصح فى ابتداء الخلق ، إلى غير ذلك مما لا يقبله العقل .

ثم قال : قال مشايخنا رحمهم الله : والآية ظاهرها بخلاف قولهم من وجوه :

منها : أنه قال : (وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ) ولم يقل (من آدم) . وقال : (مِن ظُهُورِهِمْ) ولم يقل (من ظهره) . وقال (ذُرِّيَّتَهُمْ) ولم يقل (ذريته) .

ومنها : أنه قال : (أَن تَقُولُواْ) يعنى فعل ذلك ، لكيلا تقولوا : إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ . وأى غفلة أعظم من أن جميع العقلاء لا يذكرون شيئاً من ذلك .

ومنها : أنه قال : (إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا) ولم يكن لهم يومئذ أب مشرك . وكل ذلك يبين فساد ما قالوا . ولم يصحح أحد من مشايخنا هذه الرواية ، ولا قبلها ، بل ردها . غير أبى بكر أحمد بن علىّ ، فإنه جوّز ذلك من غير قطع على صحته . غير أنه قال : ليس ذلك بتأويل الآية ، وذكر أن فائدة ذلك أن يجروا على الأعراق الكريمة فى شكر النعمة ، والإقرار بالربوبية . كما قال : إنهم ولدوا على الفطرة . قال: وأخرجهم كالذر ثم ألهمهم حتى قالوا بلى. انتهى ما قاله الجشمىّ .

الثانى ـ تدل الآية على فساد التقليد فى الدين ، وتدل على أنه تعالى أزال العذر، وأزاح العلة، وبعدها لا يعذر أحد . ذكره الجشمىّ .

الثالث ـ استدل بهذه الآية والأحاديث المتقدمة فى معناها ، أن معرفته تعالى فطرية ضرورية؛قال تعالى[١] (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ)وقال تعالى[٢] (وَلَئِن سَأَلْتَهُم

---

(١) [١٤ / إبراهيم / ١٠] . (٢) [٣١ / لقمان / ٢٥] و [٣٩ / الزمر / ٣٨] .

مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ). (قُلْ [١] مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ) .

وعن عمران بن حصين قال : قال النبيّ ﷺ لأبى : ياحصين : كم تعبد اليوم إلها؟ قال أبى: سبعة ستا فى الأرض ، وواحداً فى السماء ! قال : فأيهم تعدُّ لرغبتك ورهبتك ؟ قال : الذى فى السماء ـ رواه الترمذىّ [٢] ـ فالله تعالى فطر الخلق كلهم على معرفته فطرة توحيد ، حتى من خلق مجنوناً مطبقاً مصطلماً لا يفهم شيئاً ، ما يحلف إلا به ، ولا يلهج لسانه بأكثر من اسمه المقدس ، فطرة بالغة .

قال التقى ابن تيمية : إن الإقرار والاعتراف بالخالق فطرىّ ضرورىّ فى نفوس الناس . وإن كان بعض الناس قد يحصل له ما يفسد فطرته ، حتى يحتاج إلى نظر يحصل له به المعرفة وهذا قول جمهور الناس ، وعليه حذاق النظار ؛ أن المعرفة تحصل بالضرورة ، وقد تحصل بالنظر لمن فسدت فطرته ، كما اعترف بذلك خلائق من أئمة المتكلمين .

وقال أيضاً : ذهب طوائف من النظار إلى أن معرفة الله واجبة ، ولا طريق لها إلا بالنظر فأوجبوا النظر على كل أحد . وهذا القول إنما اشتهر فى الأمة عن المعتزلة ونحوهم . ولهذا قال أبو جعفر السمنانىّ وغيره : إيجاب الأشعرىّ النظر فى المعرفة بقية بقيت عليه من الاعتزال .

وذكر رحمه الله أن الذى يدل عليه كلام الأئمة والسلف ـ وهو أعدل الأقوال ـ أن النظر يجب فى حال دون حال ، وعلى شخص دون شخص . فوجوبه من العوارض التى تجب على بعض الناس فى بعض الأحوال ، لا من اللوازم العامة . والذين أوجبوا النظر ليس معهم مايدل على عموم وجوبه، إنما يدل على أنه قد يجب، كقوله تعالى [٣]: (قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

(١) [٢٣ / المؤمنون / ٨٦ و ٨٧] . (٢) أخرجه فى : ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٦٩ ـ باب حدثنا أحمد بن منيع . (٣) [١٠ / يونس / ١٠١] .

وَالْأَرْضِ) وقوله[1] (فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ) فإنه خطاب مع المتكبرين الجاحدين ، أُمِروا بالنظر ، ليعرفوا الحق ، ويقرّوا به، ولا ريب أن النظر يجب على هؤلاء .

قال أبو حيّان التوحيديّ فى (مقابساته) فى المقابسة الثانية والأربعين : قيل لأبى الخير: حدثنا عن معرفة الله، تقدس وعلا، ضرورةٌ هى أم استدلال ؟ فإن المتكلمين فى هذا اختلفوا اختلافاً شديداً ، وتنابذوا عليه تنابذاً بعيداً ، ونحب أن يحصل لنا جواب ، فيفسر على حد الاختصار مع البيان .

فقال : هى ضرورة من ناحية العقل، واستدلال من ناحية الحسّ. ولما كان كل مطلوب من العلم إما أن يطلب بالعقل فى المعقول ، أو بالحس فى المحسوس ، ساغ أن يظن مرة أن معرفته تعالى اكتساب واستدلال ، لأن الحس يتصفح ويستقوى بمؤازرة العقل ومظاهرته وتحصيله . وأن يظن تارة أنها ضرورة ، فإن العقل السليم من الآفة ، البرىء من العاهة ، يحث على الاعتراف بالله تقدس اسمه ، ويحظر على صاحبه جحده وإنكاره والتشكك فيه ، لكن ضرورة لائقة بالعقل . لأن ضرورة العقل ليست كضرورة الحس. لأن ضرورة الحس فيها جذب واختيار، وحمل وإكراه . وضرورة العقل لطيفة جدًّا . لأنه يعظ ويلاطف وينصح ويخفف .

ثم ضرب مثلًا لطيفاً ، وقال بعده : فعلى هذا ، فإن الله تقدس اسمه ، معروف عند العقل بالاضطرار ، لا ريب عنده فى وجوده ، ومستدل عليه عند الحس ، لأنه يستحيل كثيراً ، ولا يثبت أصلًا، فمن استدل ترقى من الجزئيات . ومن ادعى الاضطرار انحدر من الكليات. وكلا الطريقين قد وضح بهذا الاعتبار ، وكُفِى مؤونة الخبط والإكثار . فأما ما ينظر منه فى الجدال، فلا يرث منه إلا الشك والفرقة والحمية والعصبيّة. وهناك للهوى ولادة وحضانة، وللباطل استيلاء وجولة ، وللحيرة ركود وإقامة . أخذ الله بأيدينا ، وكفانا الهوى الذى يؤذينا ـ انتهى ـ .

وقوله تعالى:

---

(١) [٨٦ / الطارق / ٥] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٤] (وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

« وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ » أى مثل ما ذكرنا ، نبين الأدلة والحجج ، ليرجعوا إلى الحق . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٥] (وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ)

« وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ » أى على قومك أو على اليهود « نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا » أى علم الكتاب ، فلطف به حتى تعلم وفهم المعانى ، وصار عالماً بها « فَٱنسَلَخَ مِنْهَا » بأن نزع العلم عنه ، فكفر بها ، وخرج منها خروج الحية من جلدها « فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ » أى فلحقه وأدركه وصار قريناً له حتى أضله « فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٦] (وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ، فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ، فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ)

« وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا » أى لعظمناه بالعمل بها « وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ » أى مال إلى الدنيا ، ورغب فيها « وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث » وذلك لأنه استوى فى حقه إيتاء الآيات ، والتكليف بها ، والتعظيم من أجلها ، وعدم ذلك . كالكلب يدلع لسانه بكل حال ، إن تحمل عليه ، أى

obeikandi.com

تشدّ عليه وتهيجه ، أو تتركه غير متعرض له بالحمل عليه ، فلهثه موجود فى الحالتين جميعاً «ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا »أى من التوراة أو غيرها « فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٧] (سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ)

« سَآءَ مَثَلًا » أى ما مثل به « ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا » أى حيث شبهوا بالكلاب ، إما فى استواء الحالتين فى النقصان ، وأنهم ضالون ، وعظوا أم لم يوعظوا كما قدمنا . وإما فى الخسة ، فإن الكلاب لا همة لها إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن حيز الهدى والعلم ، وأقبل على هواه ، صار شبيهاً بالكلب ، وبئس المثل مثله . ولهذا ثبت فى الصحيح عنه ﷺ قال[(١)] : ليس لنا مثل السوء . العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه . « وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ » اعلم أن من السلف من ذهب إلى أن هذه الآية مثل ضربه الله لمن عرض عليه الإيمان فأبى أن يقبله وتركه ، وهو قول قتادة وعكرمة واختاره أبو مسلم ، حيث قال : قوله (ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا) أى بيناها ، فلم يقبل ، وعرى منها . وسواء قولك : انسلخ وعرى وتباعد . وهذا يقع على كل كافر لم يؤمن بالأدلة ، وأقام على الكفر . قال : ونظيره قوله تعالى (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم)[(٢)] وقال فى حق فرعون : (وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ)[(٣)] . ومنهم من ذهب إلى أن الموصول فيها أريد به معيّن ، فروى عن عبد الله بن عمر وسعيد بن المسيّب وزيد بن

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٥١ ـ كتاب الهبة ، ٣٠ ـ باب لا يحل لأحد أن يرجع فى هبته وصدقته ، حديث رقم ١٢٦٤ عن ابن عباس .

وأخرجه مسلم فى : ٢٤ ـ كتاب الهبات ، حديث ٥ ـ ٨ (طبعتنا) .

(٢) [٤ / النساء / ٤٧] . (٣) [٢٠ / طه / ٥٦] .

أسلم وأبى روق أنه أمية بن أبى الصلت ، فإنه كان قد قرأ الكتب ، وعلم أن الله مرسل رسولا فى ذلك الوقت ، ورجا أن يكون هو ، فلما أرسل الله محمداً عليه الصلاة والسلام حسده ، ثم مات كافراً ، ولم يؤمن بالنبيّ ﷺ . وهو الذى قال فيه رسول الله(١) (إنه آمن شعره وكفر قلبه) يريد أن شعره كشعر المؤمنين ، وذلك أنه يوحد الله فى شعره ، ويذكر دلائل توحيده .

وقيل : نزلت فى أبى عامر الراهب ، الذى سماه النبيّ ﷺ (الفاسق) ، كان يترهب فى الجاهلية . فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام ، وأمر المنافقين باتخاذ مسجد الضرار والشقاق ، وأتى قيصر واستنجده على النبيّ ﷺ ، فمات هناك طريداً وحيداً . وهو قول سعيد ابن المسيّب .

وقيل نزلت فى منافقى أهل الكتاب . كانوا يعرفون النبيّ صلى الله عليه وسلم ، فأنكروه . عن الحسن والأصم .

وقيل: إنه فرعون. والآيات آيات موسى، كأنه لما اقتص أنباء بني إسرائيل عاد إلى قصة فرعون وضرب له المثل .

ومن الأقوال التى تناقلها المفسرون أنها نزلت فى بلعام بن بَعُور ، ويحكون عنه قصة لم تُرْوَ فى جوامع الآثار الصحيحة عندنا ، ولا هى مطابقة لما عند أهل الكتاب . فقد ذكر نبؤه فى الفصل الثانى والعشرين والثالث والعشرين من سفر العدد، من تاريخ التوراة، بغير ما رويه المفسرون عنه . ثم رأيت الجشميّ لم يصحح ذلك ، فحمدت المولى على الموافقة . وعبارته :

« وعن مجاهد قال : هو نبي يقال له بلعم . رشاه قومه فكفر . وهذا لا يجوز ، لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر . لأن ذلك ينفّر الخلق عن الأنبياء ، والقبول منهم ، ويحقرهم

---

(١) فى كشف الخفاء رقم ١٩، رواه أبو بكر بن الأنباريّ فى كتاب المصاحف، والخطيب وابن عساكر عن ابن عباس . قال المناوى : وسند الحديث ضعيف .

فى النفوس ، ولأنهم حجج الله على خلقه ، اصطفاهم . فالأقرب أنه لا يصح عن مجاهد » ـ انتهى ـ وهو كذلك لأن من قرأ نبأه فى السفر المتقدم ، رأى من ثباته ، وعدم موافقته لبالاق ، ملك مؤاب ، على ما أراده منه ـ ما يبرئه عن ذلك .

تنبيه :

قال الجشمىّ : إن قيل : كيف تتصل الآية بما قبلها ؟ قلنا : على القول بأنه عنى بها فرعون فقد اتصلت قصته بقصة بنى إسرائيل . وقيل لما نهى عن تقليد الآباء فى الدين ، بيّن فى هذه الآية حال علماء السوء ، الذين يختارون الدنيا على الآخرة . نهياً عن تقليدهم واتباعهم ، كما نهى عن تقليد الآباء . وقيل : لما تقدم ذكر أخذ الميثاق ، بين حال من آتاه الله الآيات فانسلخ منها ولم يتبعها . اهـ

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٨] (مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ، وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ)

«مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ» قال أبو السعود: لما أمر النبىّ ﷺ بأن يقص قصص المنسلخ على هؤلاء الضالين الذين مثلهم كمثله ، ليتفكروا فيه ، ويتركوا ما هم عليه من الإخلاد إلى الضلالة ، ويهتدوا إلى الحق ـ عقب ذلك بتحقيق أن الهداية والضلالة من جهة الله عز وجل ، وإنما العظة والتذكير من قبيل الوسائط العادية فى حصول الاهتداء ، من غير تأثيرلها فيه ، سوى كونها دواعى إلى صرف العبد اختياره نحو تحصيله ، حسبما نيط به خلق الله تعالى إياه ، كسائر أفعال العباد .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٧٩] ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ، أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾

« وَلَقَدْ ذَرَأْنَا » أي خلقنا « لِجَهَنَّمَ » أي لدخولها والتعذيب بها « كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ » وهم الكفار من الفريقين، الموصوفون بقوله تعالى: « لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا » أي آيات الله الهادية إلى الكمالات « وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا » أي دلائل وحدته ، بصر اعتبار « وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا » أي الآيات والمواعظ سماع تدبر واتعاظ ، يعني أنهم لا ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية ، كما قال تعالى[١] (وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ) . « أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ » أي السارحة التي لا تنتفع بهذه الحواس منها، إلا في الذي يقيتها ، كقوله تعالى : (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً »[٢] أي ومثلهم في حال دعائهم إلى الإيمان ، كمثل الأنعام إذا دعاها راعيها ، لا تسمع إلا صوته ، ولا تفقه ما يقول. وقوله تعالى: « بَلْ هُمْ أَضَلُّ »أي الأنعام، إذ ليس للأنعام قوة تحصيل تلك الكمالات ودفع تلك النقائص. وهم مع ما لهم من تلك القوة قد خلوا عن الكمالات ، وعن دفع أضدادها ، فكانوا أردأ حالاً منها ، لنقصهم مع وجود قوة الكمال فيهم . وأيضاً : الأنعام تبصر منافعها ومضارها ، فتلزم بعض ما تبصره . وهؤلاء ، أكثرهم يعلم أنه معاند ، فيقدم على النار . وأيضاً : الأنعام قد تستجيب لراعيها ، وإن لم تفقه كلامه ، بخلاف هؤلاء ، وأيضا : إنها تفعل ما خلقت له ، إما بطبعها ، وإما بتسخيرها ، بخلاف هؤلاء ؛ فإنهم خلقوا ليعبدوا الله ، ويوحدوه ،

(١) [٤٦ / الأحقاف / ٢٦] . (٢) [٢ / البقرة / ١٧١] .

فكفروا به وأشركوا «أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ» أى عن تلك الكمالات والنقائص، ليهتموا لتحصيلها ودفعها ، اهتمامهم لجر المنافع الدنيوية ، ودفع مضارّها .

تنبيه :

قال أبو السعود : المراد بهؤلاء الذين ذُرئوا لجهنم ، الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة، لكن لا بطريق الجبر، من غير أن يكون من قِبَلِهِمْ ما يؤدى إلى ذلك ، بل لعلمه تعالى بأنهم لا يصرفون اختيارهم نحو الحق أبدًا ، بل يصرّون على الباطل من غير صارف يلويهم ولا عاطف يثنيهم من الآيات والنذر . فبهذا الاعتبار جعل خلقهم مغيًّا بها ، كما أن جميع الفريقين باعتبار استعدادهم الكامل الفطريّ للعبادة، وتمكنهم التام منها ، جعل خلقهم مغيًّا بها . كما نطق به قوله تعالى(١) : (وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) . وقوله تعالى:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٠] (وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ)

« وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ » روى مقاتل أن رجلًا دعا الله فى صلاته ، ودعا الرحمن . فقال بعض المشركين : إن محمدًا وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون ربًّا واحدًا ، فما بال هذا يدعو اثنين ؟ فنزلت الآية . و (الحسنى) تأنيث (الأحسن) . والمعنى : لله الأسماء التى هى أحسن الأسماء وأجلها، لإنبائها عن أحسن المعانى وأشرفها «فَٱدْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ » أى يميلون عن الإقرار بها ويجحدونها ، ويعدلون عنها كفرًا بها . كقوله تعالى(٢) : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا) أى زادهم ذكر الرحمن نفورًا . ولذا قال تعالى(٣) : (قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ) . وقوله تعالى «سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» يعنى فى الآخرة ، من جحدهم إياها ونفورهم عن الإيمان بها .

(١) [٥١/الذاريات/٥٦]. (٢) [٢٥/ الفرقان /٦٠]. (٣) [١٧/ الإسراء/ ١١٠].

تنبيهات

الأول ـ قال السيد محمد بن المرتضى اليمانيّ فى (إيثار الحق) : مقام معرفة كمال هـذا الرب الـكريم . وما يجب له من نعوته وأسمائه الحسنى ، من تمام التوحيد ، الذى لا بد منه . لأن كمال الذات بأسمائها الحسنى ، ونعوتها الشريفة . ولا كمال لذات لا نعت لها ولا اسم . ولذلك عدّ مذهب الملاحدة فى مدح الرب بنفيها ، من أعظم مكائدهم للإسلام . فإنهم عكسوا المعلوم عقلًا وسمعاً . فذموا الأمر المحمود ، ومدحوا الأمر المذموم ، القائم مقام النفى والجحد المحض . وضادّوا كتاب الله ونصوصه الساطعة . قال الله جل جلاله ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ . . . ﴾ الآية . وقال[1] ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ ﴾ الآية ـ فما كان منها منصوصاً فى كتاب الله ، وجب الإيمان به على الجميع ، والإنـكار على من جحده ، أو زعم أن ظاهره اسم ذم لله سبحانه . وما كان فى الحديث وجب الإيمان به على من عرف صحته . وما نزل عن هـذه المرتبة ، أو كان مختلفاً فى صحته ، لم يصح استعماله . فإن الله أجل من أن يسمى باسم لم يتحقق أنه تسمى به . انتهى .

الثانى ـ روى الشيخان[2] عن أبى هريرة قال:قال رسول الله ﷺ : إن لله تسعة وتسعين اسماً ، من حفظها دخل الجـنة ، والله وترٌ يحب الوتر . وفى رواية : من أحصاها . قال البخاريّ[3] : أحصيناه : حفظناه وأخرجه الترمذيّ[4] وزاد سوقَ الأسماء معدودة:

---

(١) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

(٢) أخرجه البخاريّ فى : ٨٠ ـ كتاب الدعوات ، ٦٨ ـ باب لله مائة اسم غير واحد ، حديث رقم ١٣١٣ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث رقم ٥و٦ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه فى : ٩٧ ـ كتاب التوحيد ، ١٢ ـ باب إن لله مائة اسم إلا واحدا.

(٤) أخرجه الترمذيّ فى ٤٥ ـ كتاب الدعوات ، ٨٢ ـ باب حدثنا يوسف بن حماد البصرى.

ثم قال : ولا نعلم فى كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا فى هذا الحديث . ورواه ابن ماجة[١] أيضاً . فسرد الأسماء بزيادة ونقصان .

قال الحافظ ابن كثير : والذى عول عليه جماعة من الحفاظ ؛ أن سرد الأسماء فى هذا الحديث مدرج فيه ، وإنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبد الملك بن محمد الصنعانىّ عن زهير ابن محمد أنه بلغه عن غير واحد من أهل العلم أنهم قالوا ذلك . أى أنهم جمعوها من القرآن . كما روى عن جعفر بن محمد وسفيان بن عيينة وأبى زيد اللغوىّ . انتهى .

وقال النووىّ : اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى. وليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين ، وإنما المقصود من الحديث الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها ، لا الإخبار بحصرها . ولهذا جاء فى الحديث[٢] الآخر : أسألك بكل اسم سميت به نفسك ، أو استأثرت به فى علم الغيب عندك . وقد ذكر الحافظ أبو بكر ابن العربىّ المالكىّ عن بعضهم ؛ أن لله ألف اسم . انتهى .

وقال السيد اليمانىّ[٣] فى (إيثار الحق) : عادة المتكلمين أن يقتصروا هنا على اليسير من الأسماء ، ولا ينبغى ترك شىء منها ، ولا اختصاره ! فإن ذلك كالاختصار للقرآن الكريم. ولو كان منها شىء لا ينبغى اعتقاده ولا ذكره ، ما ذكره الله تعالى فى القرآن العظيم . وعادة بعض المحدثين أن يوردوا جميع ما ورد فى الحديث المشهور فى تعدادها ، مع الاختلاف الشهير فى صحته . وحسبك أن البخارىّ ومسلماً تركا تخريجه مع رواية أوله . واتفاقهما على ذلك يشعر بقوة العلة فيه ، ولكن الأكثرين اعتمدوا ذلك تعرضاً لفضل الله العظيم فى وعده ، من أحصاها ، بالجنة كما اتفق على صحته . وليس يستيقن إحصاؤها بذلك إلا لو لم يكن لله سبحانه اسم غير تلك الأسماء . فأما إذا كانت أسماؤه سبحانه أكثر من أن تحصى ، بطل اليقين بذلك ، وكان الأحسن الاقتصار على ما فى كتاب الله ، وما اتفق على صحته بعد ذلك ، وهو النادر وقد

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ٣٤ ـ كتاب الدعاء ، ١٠ ـ باب أسماء الله عزوجل ، حديث ٣٨٦٠ و ٣٨٦١ (طبعتنا) (٢) من حديث طويل أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٩١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٧١٢ (طبعة المعارف) (٣) الصفحة رقم ١٦٩ .

ثبت أن أسماء الله تعالى أكثر من ذلك المروىّ بالضرورة والنص . أما الضرورة ، فإن فى كتاب الله أكثر من ذلك . وأما النص ، فحديث ابن مسعود رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال (١) : ما قال عبد أصابه همّ أو حزن : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى بيدك ، ماضٍ فىَّ حكمك ، عدل فىَّ قضاؤك . أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك ، أو استأثرت به فى علم الغيب ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ، ونور صدرى ، وجلاء حزنى ، وذهاب همى وغمى ، إلا أذهب الله همه وغمه ، وأبدله مكان حزنه فرحاً ـ رواه أحمد ، وأبو عوانة فى (صحيحه) وأبو يعلى والبزار .

ثم أخذ اليمانىّ يذكر ماوجده من الأسماء منصوصاً ، غير معرِّج على التقليد . فانظره فى (إيثار الحق) ، فإنه جوّد البحث بمنزع شريف .

الثالث ـ قال بعض مفسرى الزيدية فى قوله تعالى (فَادْعُوهُ بِهَا) : المعنى سموه بها ، وفى ذلك أمر بدعائه بالأسماء الحسنى ، وهو أمر ندب إذا حمل على التلاوة بالتسعة والتسعين ، وحث على ذلك فى الحديث عنه ﷺ . وإن أريد التسمية بما فيه مدح ، دون ما فيه إلحاد ، فذلك وجوب .

الرابع ـ قال السيد اليمانىّ فى (إيثار الحق) : هل يجوز تسمية محامد الرب تعالى وأسمائه الحسنى صفات له سبحانه وتعالى ؟ قال الله تعالى : (وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ) (٢) وذكر أهل التفسير واللغة أنه الوصف الأعلى ، وكذلك جاء فى كلام علىّ عليه السلام أنه قال : فعليك أيها السائل بما دل عليه القرآن من صفته ـ ذكره السيد أبو طالب فى (الأمالى) بإسناده ، والسيد الرضى فى (النهج) كلاهما فى جوابه عليه السلام ، على الذى قال له :

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى المسند بالصفحة رقم ٣٩١ من الجزء الأول (طبعة الحلبىّ) والحديث رقم ٣٧١٢ (طبعة المعارف) . (٢) [١٦ / النحل / ٦٠] .

صف لنا نار ربنا ـ وهذا لا يعارض قوله عز وجل (سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ)(١) لأنه لم ينزه ذاته عن الوصف مطلقاً ، حتى يعم الوصف الحسن ، وإنما ينزه عن وصفهم له بالباطل القبيح . انتهى .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨١] (وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ)

« وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ » أى للجنة ، لأنه فى مقابلة (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ)(٢) ـ قاله النسفىّ ـ « أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ » أى يدعون إليه « وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ » أى يعملون ويقضون. وقد جاء فى الآثار ؛ أن المراد بالأمة ، هذه الأمة المحمدية . وقال قتادة : بلغنا أن النبىّ ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية يقول : هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها. وعن الربيع بن أنس ـ فى هذه الآية ـ قال : قال رسول الله ﷺ : إن من أمتى قوماً على الحق، حتى ينزل عيسى ابن مريم متى ما نزل . وفى الصحيحين(٣) عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين ، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى تقوم الساعة. وفى رواية : حتى يأتى أمر الله وهم على ذلك .

قال الشهاب : استدل بالآية على أن الإجماع حجة فى كل عصر ، وعلى أنه لا يخلو عصر من مجتهد إلى قيام الساعة .

---

(١) [٦ / الأنعام / ١٠٠] .　　(٢) [٧ / الأعراف / ١٧٩] .

(٣) أخرجه البخارىّ فى : ٩٦ ـ كتاب الاعتصام ، ١٠ ـ باب قول النبىّ ﷺ « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق يقاتلون ، وهم أهل العلم » حديث رقم ٦٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٣٣ ـ كتاب الإمارة ، حديث ١٧٤و١٧٥ (طبعتنا) .

obeikandi.com

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٢] (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ)

« وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ » أى سنأخذهم بالعذاب من طريق لا يعلمونها ، أو نفتح لهم من الأحوال ما يلائم أهويتهم ، ثم نهلكهم . وأصل الاستدراج : أن يتدرج إلى الشىء قليلًا قليلًا ، تشبيهاً بمن يرقى درجة درجة ، حتى ينتهى إلى العلوّ . وقيل : أصله من الدرج الذى يطوى فكأنه يطوى منزلة بعد منزلة ، كما يطوى الدرج . وقيل : لأنه من الدرجة فيكون ، لأنه ينحط درجة بعد درجة حتى ينتهى إلى حال الهلاك .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٣] (وَأُمْلِي لَهُمْ ، إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

« وَأُمْلِي لَهُمْ » أى أمهلهم ليزدادوا إثماً « إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ » أى قوىّ شديد . والمعنيّون بهذا الخطاب كفار مكة . قال فى (التنوير) : هم أبو جهل وأصحابه المستهزئون ، أخذهم الله بعذابه فى يوم (أُحُد) ، وأهلك كل واحد بهلاكٍ غير هلاك صاحبه . انتهى . ويدل قوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٤] (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا ، مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ)

« أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ » أى كما يختلقون . والاستفهام للإنكار والتوبيخ . أى : أو لم يتفكروا فى أنه ليس بصاحبهم الذى هو أعظم الأمة الهادية بالحق ، شىء من جنة . وجوّز أن يكون الكلام تمّ عند قوله (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا) إنكارًا لعدم تفكرهم فى شأنه ، الموقف على صدقه ، وصحة نبوته . ثم ابتدأ نفى الجنة عنه تعجيباً وتبكيتاً .

و(الْجِنَّةُ) مصدر ، كالجلسة، بمعنى الجنون ، وليس المراد به الجن. كما فى قوله تعالى[1] : (مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ) ، لأنه يحوج إلى تقدير مضاف ، أى مس جنة أو تخبطها . والتعبير عنه ﷺ بـ (صاحبهم) للإيذان بأن طول مصاحبتهم له ، مما يطلعهم على نزاهته عما ذكر ، ففيه تأكيد للنكير ، وتشديد له « إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ » أى رسول مخوّف « مُّبِينٌ » أى موضح إنذاره ، مبالغة فى الإعذار . ولما نعى عليهم تفكرهم فى شأنه ﷺ ، أنكر إخلالهم فى التأمل بالآيات التكوينية المنصوبة فى الآفاق والأنفس ، الشاهدة بصحة الآيات المنزلة ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٥] (أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ، فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ)

« أَوَلَمْ يَنظُرُوا » أى نظر استدلال « فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ » من الشمس والقمر والنجوم والسحاب . والملكوت: الملك العظيم « وَالْأَرْضِ » أى وفى ملكوت الأرض، من البحار والجبال والدواب والشجر « وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ » أى وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم (الشيء) ، من أجناس لا يحصرها العدد ، ولا يحيط بها الوصف « وَأَنْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ » عطف على (ملكوت) . أى فى احتمال أن يهلكوا عما قريب ، فيفارقوا الدنيا ، وهم على أتعس الأحوال « فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ » أى القرآن « يُؤْمِنُونَ » أى إذا لم يؤمنوا به ، وهو المعجز الجامع لكل مايفيد الهداية . وفى هذا قطع لاحتمال إيمانهم رأسًا ، ونفى له بالكلية .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على وجوب النظر فى الأدلة ، وأنها طريق المعرفة . وتدل على أنه لا شىء ينظر فيه ، إلا ويعرف الله تعالى به ..

(١) [١١٤ / الناس / ٦] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٦] (مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ، وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ)

«مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ» أى فى كفرهم يتحيرون. يعنى أن من كتب عليـــه الضلالة ، فلا يهديه أحد ، ولا يغنيه النظر ، ولا الإنذار. كما قال تعالى(١) : (قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ)(٢) (وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٧] (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)

« يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ » أى عن قيامها وحينها « أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا » أى متى إرساؤها أو وقت إرسائها ، أى إثباتها وإقرارها . والرسوّ يستعمل فى الأجسام الثقيلة ، وإطلاقه على المعانى ، تشبيهاً لها بالأجسام « قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ » أى لا يظهرها فى وقتها إلا هو « ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ » أى عظمت و كبرت على أهلهما لهولها وما فيها من المحاسبة والمجازاة . أو ثقل علم وقتها على أهلهما . أو عظم وصفها على أهل السموات والأرض ، من انتشار النجوم ، وتكوير الشمس ، وتسيير الجبال « لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً » أى فجأة على حين غفلة منكم « يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا »

---

(١) [١٠ / يونس / ١٠١] . (٢) [٥ / المائدة / ٤١] .

أى عالم بها « قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » أى أن علمها عند الله ، لم يؤته أحدًا من خلقه .

لطيفة :

قال الزمخشرىّ : فإن قلت . لم كرر (يَسْـَٔلُونَكَ) و (إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ) ؟ قلت: للتأكيد ، ولما جاء به من زيادة قوله : (كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا) وعلى هذا تكرير العلماء الحذاق فى كتبهم ، لا يخلون المكرر من فائدة زائدة . انتهى .

وقال الناصر فى (الانتصاف) : وفى هذا النوع من التكرير نكتة لا تلفى إلا فى الكتاب العزيز ، وهو أجلّ من أن يشارك فيها . وذاك أن المعهود فى أمثال هذا التكرير ، أن الكلام إذا بُنى على مقصد ، واعترض فى أثنائه عارض ، فأريد الرجوع لتتميم المقصد الأول ، وقد بعد عهده ، طُرّى بذكر المقصد الأول ، لتتصل نهايته ببدايته . وقد تقدم لذلك فى الكتاب العزيز أمثال ، وسيأتى ، وهذا منها . فإنه لما ابتدأ الكلام بقوله : (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَـٰهَا) ثم اعترض ذكر الجواب المضمن فى قوله : (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى) إلى قوله (بَغْتَةً) أريد تتميم سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم، وهو المضمن فى قوله : (كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا) وهو شديد التعلق بالسؤال ، وقد بعد عهده ، فطُرِّىَ ذكره تطرية عامة ، ولا تراه أبدا يطرى إلا بنوع من الإجمال ، كالتذكرة للأول، مستغنى عن تفصيله بما تقدم . فمن ثم قيل : (يَسْـَٔلُونَكَ) ولم يذكر المسؤول عنه ، وهو (الساعة) اكتفاء بما تقدم فلما كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضاً مجملًا ، فقال : (قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ) . ويلاحظ هذا فى تلخيص الكلام بعد بسطه . ومن أدق ما وقفتْ عليه العرب فى هذا النمط من التكرير لأجل بعد العهد ، تطرية للذكر ، قوله :

عَجِّلْ لَنَا هذا وألحقنا بذا الـ　　　الشحم إنا قد مللناه بَجَلْ

أى فقط ، فذكر الألف واللام ، خاتمة للأول من الرجزين ، ثم لما استفتح الرجز الثانى ، استبعد العهد بالأولى ، فطرَّىَ ذكرها ، وأبقى الأولى فى مكانها . ومن ثم استدلّ ابن جنى .

على أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء ، فهو بيت كامل ، وليس بنصف ، كما ذهب إليه أبو الحسن . قال : ولو كان بيتاً واحداً ، لم يكن عهد الأولى متباعداً ، فلم يكن محتاجاً إلى تكريرها . ألا ترى أن عَبِيداً لما جاء بقصيدة طويلة الأبيات ، وجعل آخر المصراع الأول (أل) لم يعدها أول المصراع الثاني ، لأنها بيت واحد، فلم ير عهدها بعيداً، وذلك قول عبيد ابن الأبرص الأسدىّ :

يا خليليّ ارْبَعَا وَاسْتَخْبِرا الْـ   مَنْزِلَ الدَّارِسَ عَنْ أَهْلِ الْحِلَالِ
مِثْلَ سَحْقِ الْبُرْدِ عَفَّى بَعْدَكَ الْـ   قَطْرُ مَغْنَاهُ وَتَأْوِيبُ الشَّمَالِ

اربعا : أقيما . الحلال : اسم امرأة . سَحْق البرد : يريد مثل البرد المسحوق أى البالى . وعفى ، بالتشديد : محا . القطر : المطر . مغناه . هو الموضع الذى كانوا يسكنونه . والشمال ـ بالفتح والكسر ـ من الرياح ، مامهبّه من مطلع الشمس وبنات نعش . وهى لا تكاد تهب ليلا . وتأويبها : هبوبها النهار كله) ثم استرسل فيها كذلك بضعة عشر بيتاً . فانظر هذه النكته ، كيف بالغت العرب فى رعايتها ، حتى عدت القريب بعيداً ، والمتقاصر مديداً . فتأملها فإنها تحفة إنما تنفق عند الحذاق الأعيان، فى صناعتى العربية والبيان ، والله المستعان ـ انتهى ـ .

(والقصيدة بتمامها فى (مختارات ابن الشجرىّ) بالصفحة رقم ٣٧)

ثم أمره تعالى أن يخبر بعبوديته الكاملة، بما ينبئ عن عجزه عن علم الساعة بقوله سبحانه:

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٨٨] (قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ، وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ، إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا » أى لا أقدر ، لأجل نفسى ، على جلب نفعٍ مّا،

ولا على دفع ضرٍّ ما « إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ » أى تمليكه لى من ذلك بأن يلهمنيه ، فيمكننى منه ، ويقدرنى عليه . وهذا كقوله تعالى فى سورة يونس(١) (وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ* قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ). « وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ » أى النفع ، بترتيب أسبابه ، فكنت مثلاً أعد للسنة المجدبة من المخصبة ، ولوقت الغلاء من الرخص « وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ » أى الضر ، للتوقى عن أسبابه « إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ » أى عبد أرسلتُ نذيرًا وبشيرًا ، وما من شأنى أنى أعلم الغيب . وقوله تعالى « لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » يجوز أن يتعلق بـ (نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ) جميعاً ، لأن المؤمنين هم المنتفعون بالنذارة والبشارة ، أو يتعلق بـ (بَشِيرٌ) وحده، ومتعلق النذير محذوف ، أى للكافرين ، وحذف للعلم به . وقال الشهاب : ليطهر اللسان منهم . ثم بيّن تعالى عظم جناية الكفرة فى جراءتهم على الإشراك ، بتذكير مبادئ أحوالهم المنافية له ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى:

[١٨٩] (هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ، فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ)

« هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ » وهى نفس آدم عليه السلام « وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا » أى من جنسها ، كقوله تعالى(٢) : (وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا) « لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » أى ليطمئن إليها ويميل ، ولا ينفر ، لأن الجنس إلى الجنس أميل ، وبه آنس . وإذا كانت بعضاً منه كان السكون والمحبة أبلغ ، كما يسكن الإنسان

---

(١) [١٠ / يونس / ٤٨ و ٤٩] . (٢) [٣٠ / الروم / ٢١] .

إلى ولده ، ويحبه محبة لكونه بضعة منه . وذُكّر (لِيَسْكُنَ) بعد ما أنث في قوله (وَاحِدَةٍ) و (مِنْهَا زَوْجَهَا) ذهاباً إلى معنى النفس ، ليبين أن المراد بها آدم ، ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأنثى ويتغشاها ، فكان التذكير أحسن طباقاً للمعنى . أفاده الزمخشري . « فَلَمَّا تَغَشَّاهَا » أي وطئها . و (التغشي) كناية عن الجماع ، وكذلك الغشيان والإتيان « حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا » أي خف عليها ، وذلك أول الحمل ، لا تجد المرأة له ألماً ، إنما هي النطفة ، ثم العلقة ، ثم المضغة « فَمَرَّتْ بِهِ » أي فاستمرت به خفيفة ، وقامت وقعدت « فَلَمَّا أَثْقَلَت » أي صارت ذات ثقل ، لكبر الولد في بطنها « دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا » أي ولداً سوياً قد صلح بدنه ، أو غلاماً « لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ » أي على نعمائك التي منها هذه النعمة .

القول في تأويل قوله تعالى :

[١٩٠] (فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا ، فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

« فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا » أي كما طلبا « جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا » أي أخلا بالشكر في مقابلة نعمة الولد الصالح أسوأ إخلال ، إذ استبدلوه بالإشراك . وقوله تعالى : « فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » تنزيه فيه معنى التعجب .

تنبيه :

هذه الآية سيقت توبيخاً للمشركين في جنايتهم بالشرك ، ونقضهم ميثاقهم ، في جريهم على خلاف ما يعاهدون الله عليه . وذلك أنه تعالى ذكر ما أنعم به عليهم من الخلق من نفس واحدة ، وجعل أزواجهم من أنفسهم ليأنسوا بهن . ثم إنشائه إياهم بعد الغشيان ، متدرجين في أطوار الخلق من العدم إلى الوجود ، ومن الضعف إلى القوة . ثم بين إعطاءهم المواثيق إن آتاهم ما يطلبون وولد لهم ما يشتهون ، ليكونن من الشاكرين . ثم أخبر عن غدرهم وكفرانهم هذه النعم ، التي امتن سبحانه بها عليهم ، ونقضهم ميثاقهم في إفراده بالشكر ،

حيث أشركوا معه غيره فى ذلك. ونظير هذه الآية، فى الإخبار عن تبديل المشركين نعمة الله كفراً، قوله تعالى[1] فى سورة يونس (هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ، حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ) وقد ذكر المفسرون ههنا أحاديث وآثاراً تفهم أن المراد بهذا السياق آدم وحواء. ولا حاجة بنا إلى رواياتها لأنها واهية الإسناد معلولة، كما بينه الحافظ ابن كثير فى (تفسيره) . وتقبُّل ثُلة من السلف لهـا وتلقيها ـ لا يجدى فى صحتها شيئاً . إذ أصلها مأخوذ من أقاصيص مسلمة أهل الكتاب ، كما برهن عليه ابن كثير . وتهويلُ بعضهم بأنها مقتبسة من مشكاة النبوة ، إذ أخرجها فلان وفلان ، من تنميق الألفاظ لتزيق المعانى ؛ فإن المشكاة النبوية أجلُّ من أن يقتبس منها إلا كل ما عرفت جودته .

إذا علمت ذلك ، تبين لك أن من استند إلى تلك الأحاديث والآثار، فذهب إلى أن المراد بالنفس الواحدة وقرينتها ، آدم وحواء ، ثم أورد على نفسه أنهما بريئان من الشرك ، وأن ظاهر النظم يقتضيه ، ثم أخذ يؤوله ، إما بتقدير مضاف ، أى جعل أولادهما له شركاء ، فيما آتى أولادهما ، وإما بأن المراد جعل أحدهما وهو (حواء) من إطلاق المثنى وإرادة المفرد، وإما بغير ذلك ـ فإنه ذهب فى غير مذهب .

وقد قرر ما ارتضيناه فى معنى الآية غير واحد . قال الحسن البصرىّ ، فيما روى عنه ابن جرير : إن الآية عنى بها ذرية آدم ، ومن أشرك منهم بعده . وفى رواية عنه : كان هذا فى بعض الملل ، ولم يكن بآدم .

قال ابن كثير : والأسانيد إلى الحسن ، فى تفسير هـــذا ، صحيحة ، وهو من أحسن التفاسير ، وأولى ما حملت عليه الآية .

---

(١) [١٠ / يونس / ٢٢ و ٢٣] .

قال : ولو كان الحديث المرفوع ، فى أنها فى آدم وحواء ، محفوظاً عنده من رواية رسول الله ﷺ ، لما عدل عنه هو ولا غيره ، لاسيما مع تقواه وورعه . فهذا يدل على أنه ـ إن صح ـ موقوف على الصحابىّ ، لا مرفوع . انتهى .

وقال القفال : إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل ، وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين فى جهلهم ، وقولهم بالشرك . وتقرير هذا الكلام ، كأنه تعالى يقول : هو الذى خلق كل واحد منكم من نفس واحدة ، وجعل من جنسها زوجها إنساناً يساويه فى الإنسانية ، فلما تغشى الزوج زوجته ، وظهر الحمل ، دعا الزوج والزوجة ربهما ، لئن آتيتنا ولداً صالحاً سوياً لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك ، فلما آتاهما الله ولداً صالحاً سويًّا ، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما ، لأنهم تارة ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع ، كما هو قول الطبائعيين . وتارة إلى الكواكب ، كما هو قول المنجمين . وتارة إلى الأصنام والأوثان ، كما هو قول عبدة الأصنام .

وقال الناصر فى (الانتصاف) ـ متعقباً على الزمخشرىّ ـ : الأسلم والأقرب ، والله أعلم ، أن يكون المراد جنسى الذكر والأنثى ، لا يقصد فيه إلى معيّن . وكأن المعنى ـ والله أعلم ـ خلقكم جنساً واحداً ، وجعل أزواجكم منكم أيضاً ، لتسكنوا إليهن ، فلما تغشى الجنس الذى هو الذكر ، الجنس الآخر ، الذى هو الأنثى ، جرى من هذين الجنسين كيت وكيت ، وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس ، وإن كان فيهم الموحدون ، على حد (بنو فلان قتلوا قتيلا) يعنى من نسبة ما صدر من البعض إلى الكل .

فائدة :

قال بعض مفسرى الزيدية : ثمرة هذه الآية أنه تعالى لما قال (فَلَمَّآ أَثْقَلَت) جعل حال الإثقال يخالف ما قبله ، وأنه يختص فيه الدعاء لأجل أنه حال الخوف . وقد ذهب الهادى إلى أن الحامل إذا أتى عليها من الحمل ستة أشهر ، كانت تصرفاتها كتصرفات المريض ،

تنفذ من الثلث . وهو قول مالك والليث ، واحتجا بالآية ، لأنه تعالى فرق بين حال الخفة والإثقال . وقال غيرهما : تصرفها من الجميع ، ما لم يأخذها الطلق . قلنا : إنه يجوز عليها بعد الستة ، وضع الحمل فى كل وقت . انتهى .

ثم قال : ودلت الآية على أنه يجوز الدعاء لطلب أمور الدنيا ، وإن حصول الولد منة يجب الشكر عليها . انتهى .

ثم استأنف تعالى توبيخ المشركين كافة ، واستقباح إشراكهم ، وإبطاله بالكلية ببيان شأن ما أشركوا به سبحانه ، وتفصيل أحواله القاضية ببطلان ما اعتقدوه فى حقه ، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩١] (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ)

« أَيُشْرِكُونَ » أى بخالق الأشياء تعالى وتقدس « مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا » أى لا يقدر على خلق شىء ما، كقوله تعالى(١) : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ ، إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ) أى: وَمَنْ هذه صفته كيف يعبد ؟ ومن حق المعبود أن يكون خالقاً لعابده لا محالة « وَهُمْ يُخْلَقُونَ » أى بل هم مخلوقون مصنوعون ، كما قال الخليل(٢) عليه الصلاة والسلام : (أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٢] (وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ)

« وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ » أى لعبدتهم إذا حزبهم أمر « نَصْرًا » أى بجلب نفع ، أو دفع ضر « وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ » إذا اعترتهم حادثة من الحوادث ، كما قال تعالى :

---

(١) [٢٢ / الحج / ٧٣] . (٢) [٣٧ / الصافات / ٩٥] .

(وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ)(١) وكما كان الخليل عليه الصلاة والسلام يكسر أصنام قومه ، ويهينها غاية الإهانة .

وقد حكى ابن كثير أن معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعاذ بن جبل رضى الله عنهما أسلما لما قدم النبىّ ﷺ المدينة ، وكانا شابين ، فكانا يعدوان فى الليل على أصنام المشركين ، يكسرانها ويتلفانها ، ويتخذانها حطباً للأرامل ، ليعتبر قومهما . وكان لعمرو بن الجموح ـ وكان سيدًا فى قومه ـ صنم يعبده ويطيّبه ، فكانا يجيئان فى الليل ، فينكسانه على رأسه ، ويلطخانه بالعذرة . فيجئ عمرو بن الجموح ، فيرى ما صنع به ، فيغسله ويطيبه ، ويضع عنده سيفاً ، ويقول له : انتصر ، ثم يعودان لمثل ذلك ، ويعود إلى صنيعه أيضاً . حتى أخذاه مرة ، فقرناه مع كلب ميت ، ودلّياه فى حبل فى بئر هناك ، فلما جاء عمرو بن الجموح ، ورأى ذلك ، نظر فعلم أن ما كان عليه من الدين باطل ، وقال :

تاللهِ لو كنتَ إلـهاً مُسْتَدَنْ　　لم تك والكلبَ جميعاً فى قَرَنْ

(مستدن : ذليل مستعبد . والقَرَن : الحبل) .

ثم أسلم فحسن إسلامه ، وقتل يوم أحد شهيدًا ، رضى الله عنه وأرضاه .

(انظر سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٩٥ طبعة الحلبىّ . وص ٣٠٣ طبعة جوتنجن) .

تنبيه :

قال الجشمىّ : تدل الآية على صحة الحجاج فى الدين ، لأن قوله : (أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ . . .) الآية ـ حجاج . وتدل على أن المستحق للعبادة الذى يخلق وينعم ويقدر على النفع والضر هو الله تعالى .

---

(١) [٢٢ / الحج / ٧٣] .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٣] (وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ)

« وَإِن تَدْعُوهُمْ » أيها المشركون « إِلَى ٱلْهُدَىٰ » أى إلى مافيه رشاد « لَا يَتَّبِعُوكُمْ » أى إلى مرادكم وطلبتكم « سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ » يعنى أن هذه الأصنام لا تسمع دعاء من دعاها ، كما قال إبراهيم[١] : (يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا) . وجوّز فى الآية أن يكون المعنى : وإن تدعوهم إلى أن يهدوكم وتطلبوا منهم ، كما تطلبون من الله ، الخير والشر ، لايجيبوكم كما يجيبكم الله ، لقوله تعالى[٢] بعدُ : (فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ) .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٤] (إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ)

« إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ » أى تعبدونهم وتسمونهم آلهة « عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ » أى مخلوقات مماثلة لكم « فَٱدْعُوهُمْ » أمر تعجيز وتبكيت . أى فادعوهم لجلب نفع ، أو كشف ضر « فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ » أى فى زعمكم أنها آلهة . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٥] (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ، أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ، قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ)

« أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ، أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ،

(١) [١٩ / مريم / ٤٢] . (٢) [٧ / الأعراف / ١٩٤] .

أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا » تبكيت إثر تبكيت ، مؤكد لما يفيده الأمر التعجيزىّ ، من عدم الاستجابة ، ببيان فقدان آلتها بالكلية . فإن الاستجابة من الهياكل الجسمانية ، إنما تتصور إذا كان لها حياة وقوى محركة . ومدركة . وما ليس له شىء من ذلك، فهو بمعزل من الأفاعيل بالمرة . كأنه قيل : ألهم هذه الآلات التى بها تتحقق الاستجابة ، حتى يمكن استجابتهم لكم ؟ وقد وجه الإنكار إلى كل واحدة من هذه الآلات الأربع على حدة ، تكريراً للتبكيت ، وتثنية للتقريع ، وإشعاراً بأن انتفاء كل واحدة منها بحيالها ، كاف فى الدلالة على استحالة الاستجابة . أفاده أبو السعود .

ويقال : إنه لما جعلهم مثلهم ، كرّ على المثلية بالنقض بما ذكر ، لأنهم أدون منهم ، وعبادة الشخص مَن هو مثله لا تليق ، فكيف من هو دونه .

تنبيه :

قال الرازىّ : تعلق بعض أغمار المشبهة وجهّالهم بهذه الآية ، فى إثبات هذه الأعضاء لله تعالى ، فقالوا : إنه تعالى جعل عدم هذه الأعضاء ، لهذه الأصنام ، دليلاً على عدم إلهيتها. فلو لم تكن هذه الأعضاء موجودة لله تعالى ، لكان عدمها دليلًا على عدم الإلٰهية ، وذلك باطل . فوجب القول بإثبات هذه الأعضاء لله تعالى . . . الخ .

وأقول : الظاهر أن ملحظ مثبتيها هو أن عدمها يدل على النقص، وهو محال على المولى تعالى ، إذ له كل صفة كمال . ومعلوم أن فى إثباتها له تعالى من آيات أخر، وأحاديث مشهورة، ما يغنى عن تكلف استنباطها له تعالى من مثل هذه الآية ، ولكن على المنهاج السلفىّ ، وهو إثبات بلا تكييف ، إذ من كيّف فقد مثّل ، ومن نفى فقد عطّل . فالمشبهة كالمعطلة ، والحق وراءهما ، والمسألة شهيرة .

ولما بين تعالى أن شركاءهم عاجزون ، أمر تعالى رسوله ﷺ أن يناصبهم للمحاجّة ، ويكرر عليهم التبكيت ، فقال سبحانه : « قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ » أى استنصروا بها على « ثُمَّ كِيدُونِ » أى اعملوا أنتم وهم فى هلاكى من حيث لا أشعر به ، حتى يمكننى دفعه .

« فَلَا تُنظِرُونِ » أى عجِّلوا فى كيدى، فلا تمهلونى مدة أطلع فيها على كيدكم، فإنى لا أبالى بكم . وقد أثبت نافع وأبو عمرو الياء فى (كِيدُونِى)، والباقون حذفوها. ومثله فى قوله[1] : (وَلَا تُنظِرُونِ)(ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ)[2] قال الواحدىّ : والقول فيه أن الفواصل تشبه القوافى، وقد حذفوا هذه اليآت إذا كانت فى القوافى ، كقوله :

يلمسُ الأحلاسَ فى منزلِهِ بيديه كاليهُودىّ المُصَلْ (وأصلها المصلِّى)

والذين أثبتوها ، فلأن الأصل هو الإثبات .

وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٦] (إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْـكِتَـٰبَ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ)

«إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّـهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْـكِتَـٰبَ »تعليل لعدم المبالاة، المفهم من السوق انفهامًا جليًّا . أى: الذى يتولىحفظى ونصرتى هو الله الذى أنزل الـكتاب، المشتمل على هذه العلوم العظيمة النافعة .

قال أبو السعود : ووصفه تعـالى بتنزيل الـكتاب ، للإشعار بدليل الولاية ، والإشارة إلى علة أخرىلعدم المبالاة. كأنه قيل: لا أبالى بكم وبشركائـكم ، لأن ولي هو الله الذى نزل الـكتاب الناطق بأنه ولي وناصرى ، وبأن شركاءكم لايستطيعون نصر أنفسهم ، فضلًاعن نصركم . وقوله تعالى « وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ » تذييل مقرر لما قبله . أى ومن عادته أن يتولى الصالحين من عبـاده ، وينصرهم ولا يخذلهم . وفيه تعريض ، لمن فقد الصلاح ، بالخذلان والمَحْقِ .

قال الحسن البصرىّ : إن المشركين كانوا يخوّفون الرسول ﷺ بآلهتهم ، فقال تعالى (ٱدْعُواْ شُرَكَـآءَكُمْ . . .) الآية ــ ليظهر لـكم أنه لا قدرة لها على إيصال المضارّ إلىّ ، بوجه من الوجوه . وهذا كما قال هود عليه السلام ، لما قال قومه (إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ

---

(١) [١٠/ يونس / ٧١]. (٢) [١١ / هود / ٥٥].

بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ، قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِۦ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ * إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ...) الآية[1].

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٧] (وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ)

«وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ» أى لا يتولون أحدًا ، لأنهم لا يستطيعون نصركم « وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ » أى إذا قصد إضرارهم .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٨] (وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ ، وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ)

« وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُواْ » إذ ليس لهم سمع ، وإن صوّرت لهم الآذان . كما أنه لا بصر لهم ، وإن صورت لهم الأعين . كما قال : « وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ » إذ صورت لهم الأعين «وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ» لأنهم جماد عوملوا معاملة من يعقل ، فعبر عنهم بضميره ، لأنهم على صورٍ مصورة كالإنسان . وهذا من تمام التعليل ، لعدم مبالاته بهم ، فلا تكرار .

وقال السدّىّ: المراد بهذا (المشركون) وروى عن مجاهد نحوه. أى وإن كانوا ينظرون إليك ، فإنهم لا ينتفعون بالنظر والرؤية .

قال ابن كثير : والأول أولى ، وهو اختيار ابن جرير ، وقاله قتادة . أى تفصياً من التفكيك ، لأن المحدث عنهم الأصنام .

تنبيه :

من غرائب استنباط المعتزلة قولهم فى هذه الآية ـ والعبارة للجشمىّ ـ ما مثاله : تدل

(١) [١١ / هود / ٥٤ ـ ٥٦] .

الآية على أن النظر غير الرؤية ، وأنه لا يقتضى الرؤية ، لذلك أثبتهم ناظرين غير رائين .

قال : ومثله قولهم نظرت إلى الهلال فلم أره . ويقسمون النظر إلى وجوه ، ولا تنقسم الرؤية .

قال: فبطل قول من يقول: إن قوله تعالى[1] (وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ) يقتضى الرؤية . انتهى .

ولا يخفى أن الأصل فى إطلاق النظر هو الرؤية والإبصار، ولذلك تتعاقب فى هذا المعنى، وتترادف كثيراً . وانفكاكه عن الرؤية فى هذه الآية لقرينة كون المحدَّث عنهم جماداً ، ولا قرينة فى الآية لتقاس على ما هنا . دع ما صح من الأخبار فى وقوعها ، مما هو بيان لها ـ فافهم ـ .

ثم أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بالصفح عن المشركين، إذا جادلوه فى شركائهم بعد هذا البيان، بقوله سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[١٩٩] (خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ)

« خُذِ ٱلْعَفْوَ » أى مكان الغضب ، ليكونوا أقبل للنصيحة « وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ » أى بالجميل المستحسن من الأفعال ، فإنها قريبة من قبول الناس من غير نكير، ولما كان الناصح لغيره ، كالمعرّض لعدوانهم ، ثلّث بما يحتاج إليه فى ذلك فقال : «وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ» أى المصرِّين على جهلهم ، فلا تكافئ السفهاء بمثل سفههم، ولا تمارهم، واحلم عنهم ، وأغض على ما يسوؤك منهم .

تنبيهان :

الأول ـ قال بعض العلماء : إن سر الشريعة فى الطباع والعادات ، هو تأييد المستحسن

(١) [٧٥ / القيامة / ٢٢و٢٣] .

ومحو المستقبح . وإليه الإشارة بقوله تعالى : (وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ) فإن المعروف ما عرفته الطباع السليمة واستحسنته ، والمنكر ماأنكرته واستقبحته . ذلك لأن غاية الشريعة راحة الخلق على حال ونظام معقولين ، فلا يصح الحكم بتوحيد العادات فى كل البلاد . اه .

الثانى ـ روى عن الإمام جعفر الصادق رضى الله عنه قال : أمر الله نبيه ﷺ بمكارم الأخلاق، وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها .

وروى البخاريّ[1] عن ابن عباس أن عيينة بن حصن قال لعمر بن الخطاب : هِى يا ابن الخطاب ! فوالله ، ماتعطينا الجزل ، ولا تحكم فينا بالعدل ، فغضب عمر ، حتى همّ أن يوقع به . فقال له الحرّ بن قيس : يا أمير المؤمنين ! إن الله تعالى قال لنبيه ﷺ : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » ، وإن هذا من الجاهلين .

قال ابن عباس : والله ! ما جاوزها عمر حين تلاها عليه ، وكان وقّافاً عند كتاب الله عز وجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٠] (وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ، إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

« وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ » أى يصيبنّك من الشيطان وسوسة تثير غضبك على جهلهم وإساءتهم ، وتحملك على خلاف ماأمرت فيه من العفو والأمر بالمعروف « فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ » أى استجر به، وادعه فى دفعه « إِنَّهُ سَمِيعٌ » أى لدعائك « عَلِيمٌ » أى باستعاذتك.

قال الزمخشريّ : النزغ والنسغ : الغرز والنخس ، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصى . أى فشبهت وسوسته وإغراؤه بالغرز، وهو إدخال الإبرة وطرف العصا وما يشبهه

---

(١) أخرجه البخاريّ فى : ٦٥ ـ كتاب التفسير ، ٧ ـ سورة الأعراف ، ٥ ـ باب خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ، حديث ٢٠٠٤ .

فى الجلد ، كما يفعله السائق لحث الدواب . وجعلُ النزغ نازغاً مجاز بالإسناد ، لجعل المصدر فاعلًا ، كجد جدّه .

قال أبوالسعود: وفى الأمر بالاستعاذة بالله تعالى تهويل لأمره، وتنبيه على أنه من الغوائل الصعبة التى لا يتخلص من مضرتها إلا بالالتجاء إلى حرم عصمته عز وجل .

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠١] ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾

« إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ » أى أصابهم « طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ » أى وسوسة وخاطر منه « تَذَكَّرُوا۟ » أى الاستعاذة به تعالى والتوكل عليه « فَإِذَا هُم » أى بسبب ذلك التذكر « مُّبْصِرُونَ » أى مواقع الخطأ، ومكائد الشيطان. فينتهون عنها ولايتبعونه . وقرىء (طيف) على أنه مصدر ، من قولهم (طاف به الخيال يطيف طيفا) ، أو تخفيف (طيّف) كليّن وهيّن . وهذه الآية تأكيد وتقرير لما قبلها من وجوب الاستعاذة بالله تعالى، عند نزغ الشيطان ، وأن المتقين هذه عادتهم . وقوله تعالى :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٢] ﴿ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾

«وَإِخْوَٰنُهُمْ» يعنى وأما إخوان الشياطين من شياطين الإنس. كقوله : (إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ)(١) ، وهم الذين لم يتقوا؛ فلم يتأت لهم التذكر ، ولا ينفع فيهم الاستعاذة لأن الشياطين « يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ » أى يكونون مددًا لهم بتكثير الشبه والتزيين والتسهيل فى الضلال ، يعنى تساعدهم الشياطين على المعاصى ، وتسهلها عليهم وتحسّنها لهم

(١) [١٧ / الإسراء ٢٧] .

obeikandi.com

« ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ » أى لا يمسكون عن إغوائهم ، حتى يصرّوا ولا يرجعوا : يعنى أن الشياطين يمدون أولياءهم من الإنس ، ولا يسأمون من إمدادهم من الشر ، لأن ذلك طبيعة لهم وسجية : وجوز عود الضمير لـ (الإخوان) ، أى لا يرعوون عن الغىّ ولا يقصرون، وإن بولغ عليهم فى الوعظ بآيات الله ، وإقامة الدلائل، ورفع الشبه ، وغير ذلك. وجوز أيضاً أن يراد أيضـاً بـ (الإخوان) الشياطين ، ويرجع الضمير إلى (الْجَاهِلِينَ) أى وإخوان الجاهلين ، وهم الشياطين ، يمدون الجاهلين فى الغىّ .

قال الزمخشرىّ : والأول أوجه ، لأن (إخوانهم) فى مقابلة (الَّذِينَ اتَّقَوْا) .

ثم بين تعالى ، من أنواع إغوائهم ، لجاجهم فى طلب آيات معينة، وتعنتهم فى اقتراحها، مع أن لديهم المعجزة العظمى ، والخارقة الكبرى ، وهى القرآن الكريم ، فقال سبحانه :

القول فى تأويل قوله تعالى :

[٢٠٣] (وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُواْ لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا، قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى ، هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)

« وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ » أى مما اقترحوه « قَالُواْ لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا » أى هلا تكلفتها وأنشأتها من عندك « قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّى » أى فلست بمفتعل للآيات، ولا أتقدم إليه تعالى فى شىء منها. ثم أرشدهم تعالى إلى أن هذا القرآن هو أعظم المعجزات ، وأبين الدلالات ، وأصدق الحجج والبينات ، فقال سبحانه « هَـٰذَا » أى القرآن « بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ » أى بمنزلة البصائر للقلوب ، بها يبصر الحق ، ويدرك الصواب . فالكلام على طريقة التشبيه البليغ . أو سبب البصائر ، فهو مجاز مرسل . أو استعارة لإرشاده . أو المعنى : حجج بيّنة ، وبراهين نيّرة . وإنما جمع خبر المفرد لاشتماله على آيات وسور ، جعل كل منها بصيرة . والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرهم ـ لتأكيد وجوب

الإيمان بها « وَهُدًى » أي من الضلالة « وَرَحْمَةٌ » أي من العذاب « لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ » أي به ، فيتفكرون في حقائقه .

تنبيه :

قال الجشميّ : تدل الآية أنه تعالى ينزل الآيات بحسب المصلحة ، لا بحسب اقتراحهم ، لأن ذلك قد يكون فسادًا . ويدل قوله : (هَٰذَا بَصَائِرُ) أن المعارف مكتسبة . وتدل أن جميع ما يقوله الرسول ويفعله من الشرع من وحيه ، لذلك قال : (أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ) ، ومتى قيل : هل تدل الآية على أنه لا يجتهد ولا يقيس ؟ قلنا : لا ! لأن القياس والاجتهاد إذا كان متعبدًا به ، فاتباعه اتباع الوحي . كالعاميّ يقبل من المفتي ، والعالم يجتهد ، ويتبع الوحي ، كذلك هذا . والذي يدل عليه أن النبيّ ﷺ لا يفعل شيئًا من تلقاء نفسه حتى يؤمر به ـ انتهى كلامه ـ وفي إطلاقه تفصيل له موضع آخر .

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٤] (وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)

« وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ » أي عن حديث النفس وغيره « لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » لما ذكر تعالى أن القرآن بصائر للناس وهدى ورحمة ، أرشد إلى طريق الفوز بما انطوى عليه من منافعه الجليلة . أي وإذا قرئ القرآن الذي ذكرت خصائصه ، فاستمعوا له ، أي أصغوا إليه بأسماعكم لتفهموا معانيه ، وتتدبروا مواعظه ، وأنصتوا لقراءته حتى تنقضي، إعظامًا له واحترامًا، لكي تفوزوا بالرحمة التي هي أعظم ثمراته، لا كما يعتمده كفار قريش من قولهم (لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ)(١) .

---

(١) [٤١ / فصلت / ٢٦] .

تنبيهات :

الأول ـ ظاهر الآية يقتضي وجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن في الصلاة وغيرها ، وعليه أهل الظاهر ، وهو قول الحسن البصريّ وأبي مسلم الأصفهانيّ . وقد روى مسلم[١] عن أبي موسى الأشعريّ قال : قال رسول الله ﷺ : إنما جعل الإمام ليؤتم به ، فإذا كبّر فكبّروا ، وإذا قرأ فأنصتوا . وكذا رواه أهل السنن من حديث أبي هريرة .

وروى الإمام أحمد[٢] وأهل السنن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاة جهر فيها بالقراءة فقال : هل قرأ أحد منكم معي آنفاً ؟ قال رجل : نعم ، يارسول الله . قال: إني أقول : مالي أنازَع القرآن ؟ قال: فانتهى الناس عن القراءة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جهر فيه بالقراءة من الصلاة ، حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ .

قال الترمذي[٣] : هذا حديث حسن . وصححه أبو حاتم الرازيّ . نعم وردت السنة الصحيحة باستثناء الفاتحة وحدَها للمأموم . وذلك فيما رواه عبادة قال : صلى بنا رسول الله ﷺ الصبح ، فثقلت عليه القراءة ، فلما انصرف قال : إني أراكم تقرءون وراء إمامكم ؟ قال : قلنا : يارسول الله ! إي والله . قال : لاتفعلوا إلا بأم القرآن ، فإنه لا صلاة لمن لا يقرأ بها ـ رواه أبو داود[٤] والترمذيّ[٥] ـ وفي لفظ: فلا تقرءوا بشيء من القرآن إذا جهرت

(١) أخرجه مسلم في : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث ٧٧ ـ ٨١ عن أنس و٨٢ عن عائشة و٨٦ عن أبي هريرة (طبعتنا) أما حديث أبي موسى فلم أهتد إليه . (٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند بالصفحة ٢٤٠ من الجزء الثاني (طبعة الحلبيّ) والحديث رقم ٧٢٦٨ (طبعة المعارف) . (٣) أخرجه الترمذيّ في : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١١٦ ـ باب ماجاء في ترك القراءة خلف الإمام إذا جهر بالقراءة . (٤) أخرجه أبو داود في : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ١٣١ ـ باب القراءة في الفجر ، حديث ٨٢٣ . (٥) أخرجه الترمذيّ في : ٢ ـ كتاب الصلاة ، ٦٩ ـ باب لاصلاة إلا بفاتحة الكتاب .

به ، إلا بأم القرآن ـ رواه أبو داود والنسائىّ ، والدارقطنىّ وقال : رواته كلهم ثقات .

وأخرج ابن حبان عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : أتقرءون فى صلاتكم خلف الإمام ، والإمام يقرأ ؟ فلا تفعلوا ، وليقرأ أحدكم بفاتحة الكتاب فى نفسه .

وأما حديث أبى هريرة المتقدم ، فلا يستدل به على عدم قراءة المأموم مطلقاً ، بل جهراً . لأن المنازعة إنما تكون مع جهر المأموم ، لا مع إسراره . ولو سلم دخول ذلك فى المنازعة لكان الاستفهام الإنكارىّ فيه عاماً لجميع القرآن ، أو مطلقاً فى جميعه . وحديث عبادة خاص أو مقيّد ، ولا تعارض بين عام وخاص ، أو مطلق ومقيد ، لابتناء الأول على الثانى . وكذا يقال فى عموم الآية . وفى هذا جمع بين دلالة الكتاب ، وصحيح السنة ، إذ جاءنا بها من جاء بالقرآن .

الثانى ـ روى عن كثير من السلف أن الآية نزلت فى الصلاة . وعن بعضهم : فيها وفى الخطبة يوم الجمعة . وعن بعضهم : فيهما وفى خطبة الأضحى والفطر . وقد قدمنا فى مقدمة الكتاب مصطلح السلف فى قولهم (نزلت هذه الآية فى كذا) وبيّنّا أنه قد يراد بذلك ، أن الآية تشمل ذلك الشىء لدخوله فى عمومها ، لا أنه سبب لنزولها ، وذلك فى بعض المقامات ، وما هنا منه . وبتحقيق هذا يسقط ما للرازىّ هنا من أنه إذا قيل بنزولها فى منع المأموم من الجهر بالقراءة ، يذهب تناسب الآية مع ماقبلها من إفحام المشركين ، بأن يستمعوا لقراءته ، ليقفوا على إعجازه . وما للخازن ؛ بأن الآية مكية ، وخطبة الجمعة والعيدين شرعتا بالمدينة ـ فافهمه ـ .

الثالث ـ روى الإمام أحمد (١) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : من استمع إلى آية من كتاب الله ، كتبت له حسنة مضاعفة ، ومن تلاها كانت له نوراً يوم القيامة . قال ابن كثير تفرد به الإمام أحمد رحمه الله تعالى .

وقوله تعالى :

(١) أخرجه فى المسند بالصفحة رقم ٣٤١ من الجزء الثانى (طبعة الحلبىّ) .

القول فى تأويل قوله تعالى:

[٢٠٥] (وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ)

«وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ» خطاب للنبىّ ﷺ ، والمراد عامّ . أو المعنى : واذكر ربك أيها الإنسان . والأول أظهر ، لأن ما خوطب به النبىّ ﷺ ولم يكن من خصائصه ، فإنه مشروع لأمته . وقد أوضح هذا آية: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا * وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا)[1] . والأمر بالذكر ، قال الزمخشرىّ : هو عام فى الأذكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتهليل وغير ذلك . وقال بعض الزيدية : هذا الأمر يحتمل الوجوب ، إن فسر الذكر بالصلاة ، وإن أريد الدعاء أو الذكر باللسان ، فهو محمول على الاستحباب . قال : وبكلٍّ فسرت الآية .

ثم إنه تعالى ذكر آداباً لذكره :

الأول ـ أن يكون فى نفسه ، لأن الإخفاء أدخل فى الإخلاص ، وأقرب إلى الإجابة ، وأبعد من الرياء .

الثانى ـ أن يكون على سبيل التضرع ، وهو التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير ، ليتحقق بذلة العبودية لعزة الربوبية .

الثالث ـ أن يكون على وجه الخيفة أى الخوف والخشية من سلطان الربوبية ، وعظمة الألوهية ، من المؤاخذة على التقصير فى العمل ، لتخشع النفس ، ويخضع القلب .

(١) [٣٣ / الأحزاب / ٤١ و ٤٢] .

الرابع ـ أن يكون دون الجهر ، لأنه أقرب إلى حسن التفكر . قال ابن كثير : فلهذا يستحب أن لا يكون الذكر نداء ولا جهراً بليغاً. وفى الصحيحين(١) عن أبى موسى الأشعرىّ رضى الله عنه قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار ، فقال لهم النبىّ ﷺ : يا أيها الناس ! اربعوا على أنفسكم ، فإنكم لاتدعون أصمّ ولا غائباً . إن الذين تدعونه سميع قريب، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته. قال الإمام: المراد أن يقع الذكر متوسطاً بين الجهر والمخافة ، كما قال تعالى : (وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا)(٢).

الخامس ـ أن يكون باللسان لا بالقلب وحده ، وهو مستفاد من قوله (وَدُونَ الْجَهْرِ) لأن معناه : ومتكلماً كلاماً دون الجهر ، فيكون صفة لمعمول حال محذوفة معطوفاً على (تَضَرُّعًا) ، أو هو معطوف على (فِي نَفْسِكَ) . أى اذكره ذكراً فى نفسك ، وذكراً بلسانك دون الجهر .

السادس ـ أن يكون بالغدوّ والآصال ، أى فى البكرة والعشىّ . فتدل الآية على مزية هذين الوقتين ، لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد. وما بينهما ، الغالبُ فيه الانقطاعُ إلى أمر المعاش . وقد روى : أن عمل العبد يصعد أول النهار وآخره ، فطلب الذكر فيهما ، ليكون ابتداء عمله واختتامه بالذكر .

ثم نهى تعالى عن الغفلة عن ذكره بقوله « وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ » أى من الذين يغفلون عن ذكر الله ، ويلهون عنه، وفيه إشعار بطلب دوام ذكره تعالى، واستحضار عظمته وجلاله وكبريائه ، بقدر الطاقة البشرية .

---

(١) أخرجه فى البخارىّ فى : ٥٦ ـ كتاب الجهاد ، ١٣١ ـ باب ما يكره من رفع الصوت بالتكبير ، حديث ١٤٢٣ .

وأخرجه مسلم فى : ٤٨ ـ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، حديث ٤٤ـ٤٧ (طبعتنا) . (٢) [١٧ / الإسراء / ١١٠] .

ثم ذكر تعالى ما يقوى دواعي الذكر ، وينهض الهمم إليه ، بمدح الملائكة الذين يسبحون الليل النهار ، لا يفترون ، فقال :

القول في تأويل قوله تعالى :

[٢٠٦] (إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ) ﴿سجدة﴾

« إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ » يعني الملائكة الذين هم في أعلى مقامات القرب « لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ » أي لا يتعظمون عنها . وقوله « وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ » أي فينبغي أن يقتدى بهم فيما ذكر عنهم ، ففيه حث ولطف مرغب في ذلك . لأنه إذا كان أولئك ـ وهم ما هم في قرب المنزلة والعصمة ـ حالهم في عبادته تعالى وتسبيحه ما ذكر ، فكيف ينبغي أن يكون غيرهم .

تنبيهات

الأول ـ قال الرازيّ : تمسك أبو بكر الأصم بهذه الآية في تفضيل الملائكة على البشر قال : لأنه تعالى لما أمر رسوله بالعبادة والذكر قال : (إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ...) الآية ـ أي فأنت أولى وأحق بالعبادة ، والمسألة مستوفاة في كتب الكلام . واستنبط من قال بالتفضيل المذكور من الآية ؛ أنه ينبغي للعبد أن ينظر إلى من فوقه في طاعة الله تعالى .

الثاني ـ قال الرازيّ : المشبهة تمسكوا بقوله تعالى (إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ...) وقالوا : لفظ (عِندَ) مشعر بالجهة . ثم أجاب بما هو معروف للخلف . ويعني ، سامحه الله ، بالمشبهة الحنابلة ، وهم براء من التشبيه ، كما يعلمه من طالع عقائدهم ، واقفون على حدّ النصوص بلا تشبيه ولا تعطيل ، ولم ينفردوا بذلك ، فقد تقدمهم من لا يحصى في هذه المسألة . راجع كتاب (العلوّ للذهبيّ) تعلم ما ذكرنا .

الثالث ـ قال الجشمىّ : تدل الآية على كون الملائكة مكلفين . وتدل على أنهم سجدوا لله . وآدمُ كان قبلة السجود ، لأنه وصفهم بأنهم يسجدون له .

الرابع ـ هذه أول سجدة فى القرآن مما يشرع لتاليها ومستمعها السجود بالإجماع .

وقد ورد فى حديث رواه ابن ماجة(١) عن أبى الدرداء عن النبىّ ﷺ ، أنه عدها فى سجدات القرآن .

وروى الشيخان (٢) عن عبد الله بن عمر أن النبىّ ﷺ كان يقرأ القرآن ، فيقرأ سورة فيها سجدة ، فيسجد ونسجد معه ، حتى ما يجد بعضنا موضعا لمكان جبهته ، فى غير وقت صلاة .

وروى مسلم (٣) عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد ، اعتزل الشيطان يبكى يقول : ياويلتا ! أمر ابن آدم بالسجود فسجد ، فله الجنة ، وأمرتُ بالسجود فأبيتُ ، فلى النار .

وروى مسلم (٤) عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال : سألت رسول الله ﷺ فقال : عليك بكثرة السجود لله ، فإنك لا تسجد لله سجدة ، إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة .

الخامس ـ السجدة المشروعة ، إن كانت لآية ، أُمِرَ فيها بالسجود فللأمر ، أو حكى فيها

---

(١) أخرجه ابن ماجة فى : ٥ ـ كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها ، باب عدد سجود القرآن ، حديث رقم ١٠٥٦ (طبعتنا) . (٢) أخرجه البخارىّ فى : ١٧ ـ كتاب سجود القرآن : ٨ ـ باب من سجد لسجود القارئ ، حديث رقم ٥٩٢ .

وأخرجه مسلم فى : ٥ ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، حديث رقم ١٠٥ (طبعتنا) .

(٣) أخرجه مسلم فى : ١ ـ كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٣٣ (طبعتنا) .

(٤) أخرجه مسلم فى : ٤ ـ كتاب الصلاة ، حديث رقم ٢٢٥ (طبعتنا) .

obeikandl.com

استنكاف الكفرة عنه ، فلمخالفتهم وإرغامهم ، أو حكى فيها سجود الأنبياء أو الملائكة ، فللتأسي بهم ـ كذا في (العناية) .

وهذا آخر ما تيسر تعليقه على سورة الأعراف ، فلله الحمد على هذا التسهيل والإسعاف. ونسأله بمنه وكرمه العون على الإتمام ، فإنه ذو الجلال والإكرام .

وكان الفراغ من ذلك طلوع الشمس من يوم الثلاثاء ، في ٢٦ رمضان المبارك سنة ١٣٢١ بشباك السدة العليا اليمنى من جامع السنانية . على يد الفقير جمال الدين القاسمي غفر الله له ولوالديه ولجميع المؤمنين ، ورحمه وإياهم إنه أرحم الراحمين .

تم الجزء السابع

ويليه ، إن شاء الله تعالى ، الجزء الثامن

ويحتوى على تفسير سورتي الأنفال والتوبة

تنبيه :

كانت النية معقودة على إخراج (التفسير) على حسب تجزئة المؤلف . لكنا ، لما رأينا أن حجوم الأجزاء غير متساوية ، ولتيسير الحصول عليها ، قررنا إخراج الأجزاء الباقية ، ابتداء من هذا الجزء ، في حجم الأجزاء الأربعة الأولى . والله الموفق والمستعان .